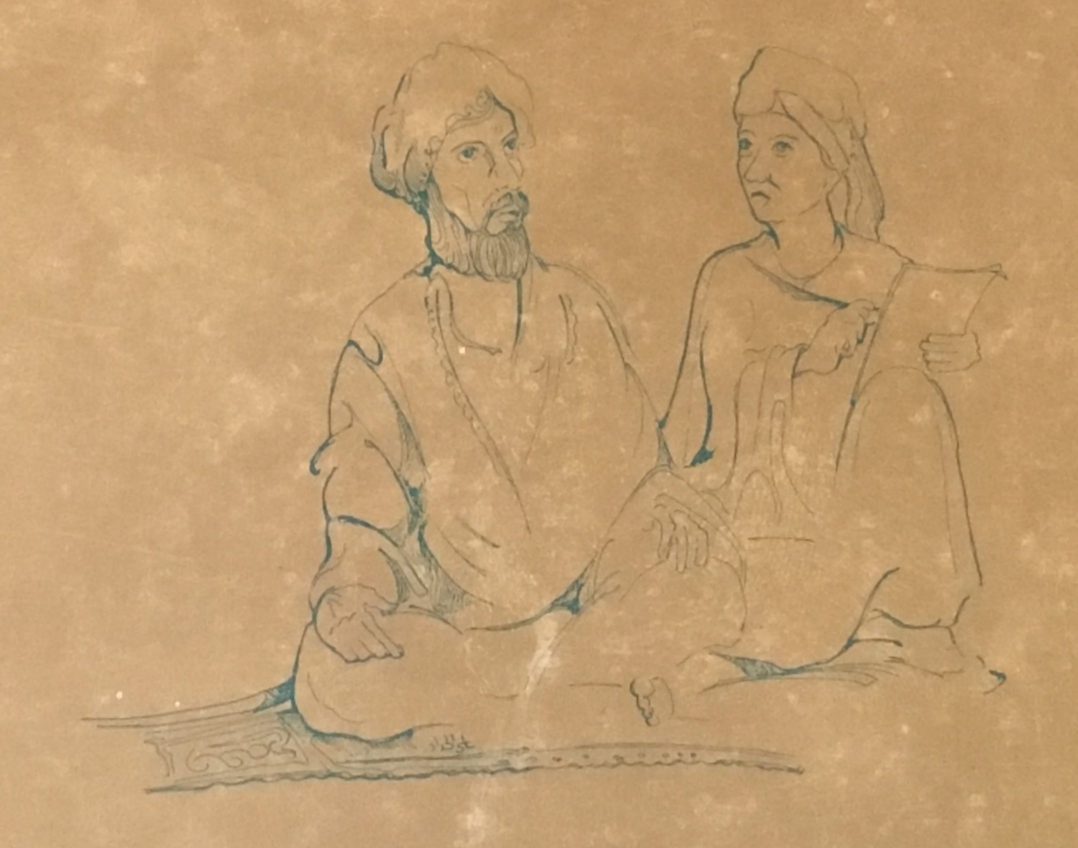


الكتاب العربي السعودي ٦٨

أبو تراب الظاهري

الموزون والمخزون



الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية



الكتاب العربي السعودي ٦٨

أبو تراب الظاهري

الموزون والمخزون

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم


الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ، ٥٤٥٥ - هاتف ، ٦٤٤٤٤٤٤

الموزون والمخزون

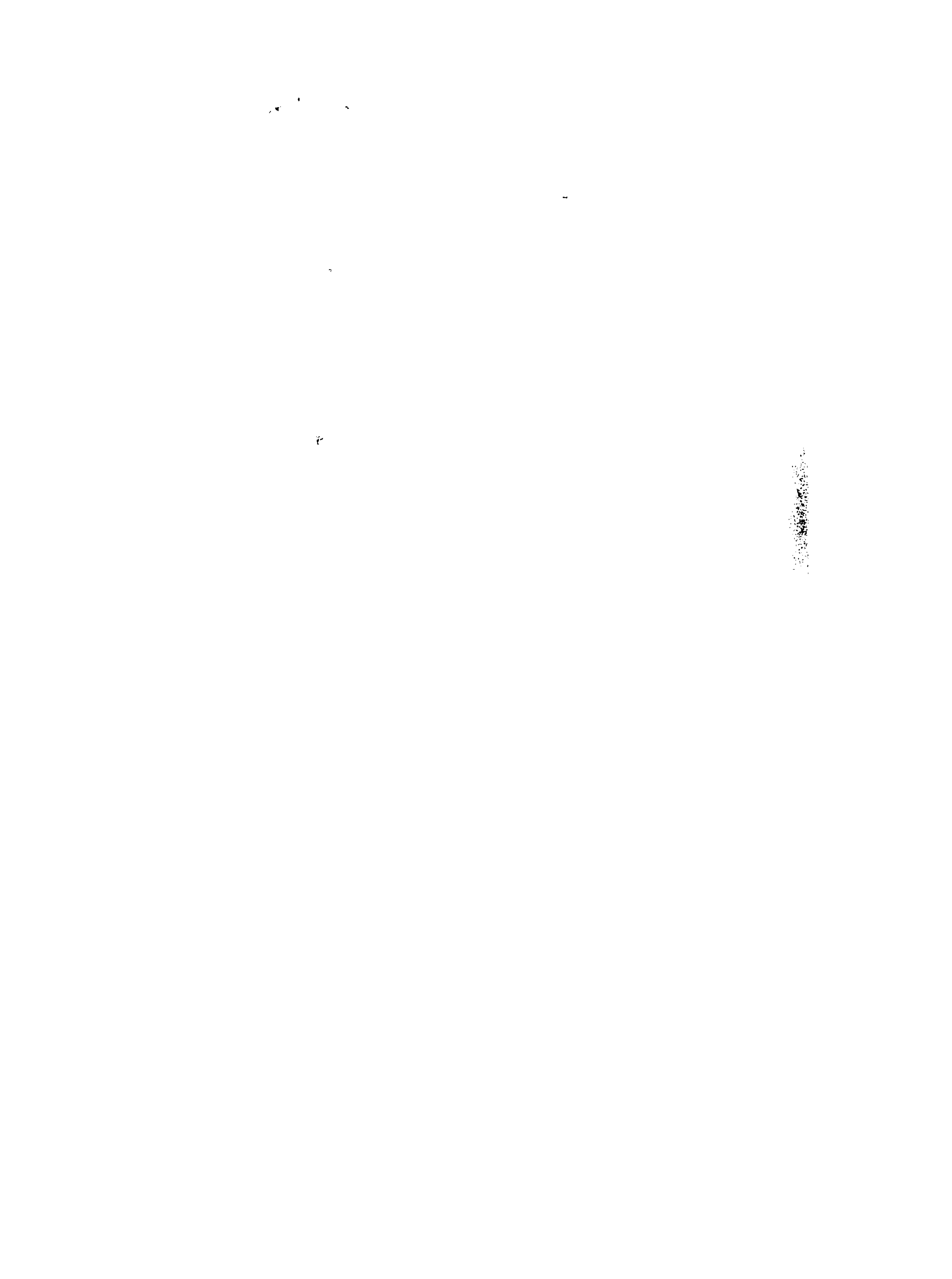
الى من أهدي كتابي هذا .. أهدي هذه الكلمة الحيدرية :

« ألصق روانفك بالجبوب ، وخذ المزبر بشناترك ،
واجعل حندرتيك الى قيهلي ، حتى لا أنغي نغية إلا أودعتها
بحماطة جلجلانك »

فهل وعيتموها أيها الأصحاب ؟

أبو تراب الظاهري
عفا الله عنه

في ١٩/١١/١٤٠٢هـ



قال ابو تراب : –

قالوا : وأنت لماذا لا تكتب ؟ عِفْتَ الصَّنْعةَ ؟ أم مَلَلْتَ سبيل الاستفادة والافادة ؟ فكنت عنها من المتشاغلين ! قلت : كلاّ ، فربما يخُيِّل اليكم أن ذلك كذلك ، فأنا لا أنقطع عن المطالعة والكَتْب إن لم تَسْنَح لى فُرصُ الاذاعة والنشر ، فما أنا بالعائف ، ولا الخائف من القائف ، وانما الأيام أرجوحة تَصْعَد وتَهْبِط ، فاذا حميت تلك فَتَرَتْ هذه ، واذا بَرَدَتْ هذه استَعَرَتْ تلك ، وما تجرى على سَنَنٍ واحدٍ قَطُّ ، ويذكّرنى هذا بابن زاكور حيث يقول :

لو كان هذا الحب وَصْلاً كله — لم تكن عاقبتُهْ الاّ المَلَلْ

أو كان هذا الحب هَجْرا كله — لم تكن عاقبتهْ الاّ الأجلْ

لكنما الحب كمثل الماء لا — يُستساغ الماء الاّ بالعَلَلْ

قال ابو تراب : والسكون على الهاء هنا متعينّ فى قوله (عاقبتُهْ) لأجل الوزن وها أنذا أضرب باليراع يُمْنَةً ويَسْرَةً ، وأبدأ بهذا المفتتح أُداعب من يُغاضبُنى ، وأُخاشنُ من يُلايِنُنى ، ولا أنا صب العداء فى الانتقاد ، وانما أصادق من يَنْطوى على إصلاح المعايبِ ، فاذا عاند كان التجهَم رده ، والانجفالَ مهادنتُه ، واذا سلم وطّأناه الكواهل ورفعناه مكاناً علياً .

فان لم أجد من ذا شيئا أتْحَفْتُ القارئين بما عَلِقَ بالخاطر ، ومَرَّ بالناظر من

نوادر الأدب ومُلَح المتظرّفين من الأدباء نثراً كان أم شعراً ، وأرجو أن لا أكون كمن ساق بتمره الى خَيْبَرَ أو حَمَلَ مِسْكَهُ الى خُتَنَ . (هما اسما موضعين اشتهر الأول بالأول والثانى بالثانى) . وأقدّم عذرى ان قَسَا بعض اللفظ على بعض المسامع فانى أتجنب الحوشّى من الكلام ، وما ذنبى اذا كان اللفظ مؤنسًا مستعملا مقروئًا عندى فى الكتب غير مَطروق عند من يقرأه فى كلامى فان العيب فى قصرِ الباع لا فى سعة الاطلاع .

وتحضرنى هنا طُرْفَةُ صفى الدين الحلى إذ قال بعض الفضلاء فى شعره بعد أن استحسنه : لاعيبَ فيه سوى قلة استعماله للغة الغريبة وهو يعنى بذلك غريبَ الكلمات فكتب اليه قصيدة أولها :

انما الحَيْزَبُونُ والدردبيس والطَّخَا والنُّقاخ والعَلْطَبِيْسُ
والحراجيج والشَّقَحْطَبُ والصَّقْعَبُ والعنقفيز والعَنتريس
والغَطاريسُ والعَفَنْقَسُ والعَفْلَقُ والجَرْبضَيضُ والعيطموس
والسَّبَنْتَى والحِقْصُ والهَيْقُ والهِجْرِشُ والطِّرفسان والعَسْطُوسُ
لغةٌ تَنْفِر المسامع منها حين تُروى وتَشْمئز النُّفوسُ
وقبيحٌ أن يُذْكَر النَّافِرُ الوَحْشِى منها ويُتركَ المأنوسُ

الى آخر ما قال ، وقد أصبحت هذه الأبيات على ألسنة المشتغلين بالأدب كثيرة الدَّوَران ، خاصة عند التندّر والاستهزاء بمن يُولَعُ بالغريب المهجور المتنافر اللفظ .

ونختم مُسْتَهلَّ هذه السلسلة الميمونة بذكر مَعَانى المُسْتَغْلِق من هذه الأبيات لئلا يكون إيرادها دون ذكر معانيها عبثاً من العبث ، أو ضرباً من الهَوس .

فالحَيْزبون العَجوزُ ، والدَّرْدَبِيسُ الداهيةُ والطَّخَا السحابُ ، والنُّقاخُ الماءُ الباردُ ، والعَلْطبيسُ الأَمْلَس البَرَّاقُ ، والحراجيُج النياق ، والشَّقَحْطب الكَبْشُ ،

والصَّقْعَبُ الطويل والعنقفيز العَقْرَبُ ، والعَنْتريسُ الناقةُ ، والغطاريسُ الظَّالمونَ ، والعَفَنْقَسُ اللئيم ، والعَفَلَقُ المرأةُ السيّئةُ ، والعَيْطَموسُ ، الابل التامّةُ الخَلْقِ ، والجربضيض العظيمُ ، والسَّبَنْتَى الجَرىءُ ، والحقِصُ الشَّـدُّ ، والهَيـق النَّعـامُ ، والهِجرشُ الناقةُ الطويلةُ ، والِطّرفسان الرَّمْلُ والعَسْطُوس نوعٌ من شجر ، والى كلام لاحق ان شاء ربك ،

(٢)

قال ابو تراب :

وأُلْقى فى رُوعى أن يكون « معجون الادباء » هو عنوانَ هذا المسلسـل ، وقَوِيَتْ فيه النية ، وصَحَّحتُ عليه العزم ، ولكن بعض الخُلَّص من الاصدقاء أَبَى أن يكون هذا اسماً مُعَنْوناً ، فكأنّه أَحَسَّ بأن إسفنجة هذه اللفظة لا تَبِضُّ بماء ، فمستعملها المألوف يَسْتعصى معه استجلاب المعنى المتلوف ، ومبادأةُ هذا الانكار وقعتْ منذ القدِمَ من رئيسٍ أديبٍ ، صديق ودودٍ هو الاستـاذ « عبـد المجيـد شبكشى » حين اخترت هذا العنوان وأن أكتب فى « البلاد » وهو مُتَنَبه لا يغفل ، ومتيقّظ لا يهُمِل ، والقوم بعده كما قيل :

لا يَسرْحون اللَّحْظَ عنـد حضوره   الاّ بحيـث رَمَـى مواقـعَ لَحْظِهِ

وتنازعنا وتجاذب القول منا كلَّ مدخل ، وهمست فى أذن الصديق المفضال الأديب الأريَب الاستاذ احمد محمود رئيس كَتَبة « المدينة » ولا أقـول : رئيس تحريرها لأن التحرير لا يَعْنى ما يَعْنُون ، وفوجىء الاستاذ احمد محمود بالعنوان ولم يُثْبِتْه وإنْ ثبت فى ذهنى ودلّ عليه البيان ، كما لم يستقر عليه الرأى وان شهدله العدول . ففى الحديث مَنْزِع وإباء ، وكأنه ليس فيه قناعة ورضاء ، وأزمع الاستاذ (أحمد محمود) السفر لئلا أرسل الأوراق ، واستدعيت صحبى لئـلا

يخوضوا فى حديث غيره ، وهو يشبه النهر المتدفّق فى سيره .

وما عابنـــى جارى سوِىَ أن حاجتـــى أكلّفهـــا من دونـــه للأجانب

وذهبتِ الاقتراحاتُ أيْدى ِ سبأ ، وهبّ منى راقد الحَزْم ، وتنبّه عندى وافد العزم ، وأَقْلَعتِ السنة ، إذْ زُمّتِ الألسنة ،

فقلـــتُ للائمـــى أَقْصِرْ فانى سأختـــار المقُـــامَ على المَقَامِ

فألقيت « الموزون من المخزون » فتداعتِ الأصوات ، وتجاوبت الاصداءُ ، فكأنما ارتاحت اليه النفوس بعد أن انجنم زناد الفكر ، وخفقت الأعمدة على المغافر .

ولست بحاجة الى التعليل والتأويل ، فالموزون يوزن وزناً يشمل النقد والتعليق ، والمخزون يختزن اختزاناً يحوى الرواية والنقـل ، وهـذا مُجْتَلَـب من الـذاكرة ، وذاك مُعْتَصرَ من الفـاكرة ، فخـذ هذه الصُّبابـة ، وهَبْهـا لاخطـأ ولا إصابة ، من غير أن تكون هذه لغة الكُرَاتِ والكُرينَ ، ومن أتقنها دَهْهَهَةً من اللاعبين ، كما قال ابن كلثوم :

يُدَهْـدُونَ الـرُّؤُسَ كما تُدَهْدِىْ حَزَاوِرَةٌ بأبطحهـــا الكُريناَ

ولم يتنفس اليراع الصُّعَداء حتى سال منه لُعابُه ، وضمّ حواشيه إذْ علم أنه مُراقَبٌ من الأدباء وفى ذلك عذابهُ وعقابهُ . فالتزم قلة التلَفُّت الى كل ذى زُلْفَة ولو اتُّهم بالفشل والجُبن ، فان الاستدعاء ، بالطمع مهلكة موحشة ، وطوية متخّونة .

فاللهم الهمنا استقامة الألسنة وأبن عنا موبقـات الأعمال ، وخفّف عنـا أواصر الأوزار فيما نقدمه من أمانة التنصُّح ففى يديك معالق العصمة من الزلل والخطل فى القول والرأى ، نبتغى رشادك غُنْماً ، وعفوك مدّخراً .

لا تَيْأسَنْ عند النُوبْ	من فُرْجَة تَجْلُو الكُربْ
فلكم سَمُومٍ هَبَّ ثم	جَرى نَسيما وانْقَلَبْ
وسحاب مكروهٍ تَنَشّأ	فاضمحلَّ وما سَكبْ
ودُخانِ خَطْبٍ خِيفَ منه	فما أستبان له لَهَبْ
وكأنّما طَلَع الأسَى	وعلى تَفَيُّئِهِ غَرَبْ
فَاصبر اذا ما ناب رَوْ	عُ فالزمانُ أبو العَجَبْ
وتَرَجَّ من رَوْح الأله	لطائفاً لا تُحتسبْ

(فائدة : قال ابو تراب :

الهجرشُ فی أبيات الحلیّ المتقدمة بمعنى الناقة ، فاذا أُهملتِ الشين كان بمعنى الثعلب والدب والقرد ، وقد ذكرنا فی ترجمة سعد بن عبادة من سير الصحابة انه قال لعُيَيْنة والزبرقان : أُسْكُتَا أيُّها الهِجرسانِ وهوَ يُقرع رؤسَهما بالعَصَا ، وفی الحديث انه مَدّ رجلَيهْ بحضرة رسول الله ﷺ فقال له : ياعين الهجرس أتمد رجليك أمام نبی الله ويعنی بالهجرس الرجل اللئيم ومعناه القرد .

(٣)

قال ابو تراب :

طيب الله أيام أُصيحاب لنا استخرجونی من وحشتی وكِناسی ، كنت لا ألتقی بهم الاّ فی مجالس قليلة من الجدّ لا تعتورها شائبة الهزل أصلاً ، أو فی أوراق من الجرائد متناثرة يطالعون لی فيها كلاماً مكتوباً فاذا قریء تمزّقت الصفحات اشلاءً ذابلة ، فكأنما لا يجمعها جامع بل يحول بينهم وبينها مانع .

وكنت لاأهجع ليلی ولا أهْدَأُ نهاری ، فَالْمُمْسَی أرق ، والمُصَبَّح قلق ، وليس ثمة عُلالة بها أتعلّل ، ولابُلالة بها أتندَّی ، فكأنّ الفرزدق كان يَعنينی اذ يقول :

عارى الأشاجع مشفوه أخوقَنَص ما يُطعم العين نومًا غير تهويم

ولم اجد لهذا الأمر كآبة ولا حزازة ولا أسفا ولا أسى ، لأن امتداد حبل الأمانى قلم بالاستشفاع الى ذوى الفضل فأحلّونى هذه الزاوية المنزوية ، وأنّى لهم عليها لمن الشّاكرين .

واستمليت اليم من صاحب الاقتراح الخطوط التى أنسج عليها أبْرادَ هذا الركن علّها توازى علّو همته ، وتشاكل رفيع نُبله فيها اعتبار للبيب الأريب ، ومُتعة بالحديث العجيب ، نستروح به اذا لم يهْتكِ الستر ، ويُقلّبِ الجِلْد ، ويجُرحِ الشعور ، ويُسأِ النقد ، فيصبح عارياً من زينة الحياء .

وليس الخروج من الجدّ الحق الى المُزاح المباح الأترويحاً وانبساطاً ، ومؤانسة وإمتاعاً ، تسكن اليه النفس فلا تتخدّر بالملل ، ولا تَثْمَل بالسأم ، وهو مما لا تنخدش به كرامة المرء ، ولا يذهب معه وقاره ، اذا تأدّب فى المقال ، وتصرّف تصرفَ المحسنين فى الفعال .

ولقد قرأنا فى الفتوحات للشيخ ابن عربى قال : بتنا ليلة عند أبى الحسن ابن أبى عمر ابن الطفيل بأشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة ، وكان كثيراً ما يحتشمنى ويلتزم الأدب بحضورى ، وبات معنا ابو القاسم الخطيب ، وابو بكر ابن وسّلم ، وابو الحكم ابن السراج ، وكلهم قد منعهم احترام جانبى من الانبساط ، ولزموا الأدب والسكون ، فأردت أن أعمل الحيلة فى مباسطتهم ، فسألنى صاحب المنزل أن يقف على شىء من كلامنا ، فوجدت طريقاً الى ما كان فى نفسى من مباسطتهم ، فقلت : عليك من تصانيفنا بكتاب سميناه : « الارشاد فى خَرْق الأدب المعتاد » فان شئت عرضت عليك فصلاً من فصوله ، فقال لى : أشتهى ذلك . فمددتُ رجلى فى حِجْره ، وقلت له : كَبّسْنِى ؟ فَفَهِم عنى ما قصدت ، وفهمتِ الجماعة ، فانبسطوا ، وزال ما كان بهم من

الانقباض ، والوحشة ، وبتنا ليلة فى مباسطة دينية .

قال ابو تراب :

وللمناسبة سقتُ هذه النادرة ، وابن عربى هذا هو غير ابن العربى القاضى أبى بكر المالكى الفقيه صاحب « أحكام القرآن » وشرح جامع الترمذى ، و« العواصم والقواصم » فى ردّ مزاعم الشيعة ، والأول رأس المتصوفة له مصنفات كثيرة أشهرها « الفتوحات المكية » و« فصوص الحكم » و« إنشاء الدوائر » و« التفسير » وشرح اسماء الله الحسنى وقد ردّ على كثير من مزاعمه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ، وللحافظ ابن حجر العسقلانى رأى فيه ذكره فى ترجمته فى « لسان الميزان » وأُلّفت فى شأنه كتب مفردة ، وتجريد اسمه من الألف واللام للتمييز والتفرقة بينه وبين سميّه الآخر عند أصحاب التراجم .

(٤)

قال أبوتراب :

وإذا جاز لصاحب صنعةٍ ما أن يتسلىّ بما تبتكر قريحته ، ويسمو اليه طائره ، فمن حق الأديب وهو يملك زمام الكلمة أن يتخذ من اللفظ له خديما ، ومن المعانى له عرائس ، وربما لَهَا بالغريب ، أوأَعْمَل الصناعة فأتى بالعجائب ، من دون أن يُثير صداعاً ، ولكن ليجعل منه جذوة لمقتبس ، وشُعلة لمقتدح ..

وهذا أديب العربية أبومحمد الحريرى صاحب « المقامات » الشهيرة أنشأ رسالة التزم فيها الشين فى كل كلمة ، وأرسلها الى شمس الشعراء طلحة بن احمد ابن طلحة النعمانى ، نضرب بها المثل هنا للتدليل على الصنعة ، قال رحمه الله ، نثرا :

بارشاد المُنشى ، أُنشى ، شغفى بالشيخ شمس الشعراء ريش معاشه ، وفشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشب شعابه ، يشاكل شغف المنتشى بالنشوى ،

والمرتشي بالرشوى ، والشـادن بشرخ الشبـاب ، والعطشـان بِشَبَم الشراب ، وشكرى لتجشّمه ومشقته ، وشواهد شفقته ، يشـاكل شكر الناشـد للمنشـد ، والمسترشد للمرشد ، والمستشعر للمبشر ، والمستجيش للجيش المشمّر ، وشعارى إنشاد شعره ، وإشجاء الكاشح والمكاشر بنشره ، وشغلى إشاعة وشائعه ، وتشييد شفائعه ، والاشادة بشذوره وشنوفه ، والمشورة بتشفيعه وتشريفه ، وأشهد شهادة المشنّع الكاشف ، والمنشرّ المكاشف ، لأَنشادُهُ يدهش الشائب والناشي ، ويلاشي شعر الناشي ، ولَمشاهدتُه كاشتيار الشهد ، وتباشير الرشد ، ولَمشاحنتُه تُشقي المشاجن ، ولمشاجرته تنشر المشاين ، ولَمشاغبته تُشظّي الأشطان ، وتشيط الشيطان ، فشرفا للشيخ شرفاً ، وشغفا بِشِنْشِنَتِه شغفا ، (ثم قال شعرا) :

فأشعـاره مشهـورة ومشاعره — وعشرتـه مشـكورة وعشائرهْ
شَأى الشعـراء المُشْمَعِلّـين شعرهُ — فشَانِيـهُ مَشْجُـوٌّ الحشـا ومشاغره
وشـوه ترقيش المرقش رقشه — فأشياعـه يشكونـه ومعاشره
وشاق الشباب الشُمَّ والشيبَ وَشْيُه — فمنشوره بشرى المشوق وناشرهْ
شمائلـه معشوقـة كشموله — وشريبـه مسـتبشر ومعاشرهْ
شكور ومشـكور وحَشْـو مُشَاشِه — شهامـةُ شِمّـير يطيش مشاجرهْ
شقاشقُـه مُخْشِيَـةٌ وشَباتُه — شَبَـا مَشْرَفيٍّ جاش للشر شاهرهْ
شَفَى بالأناشيـد النشـاوى وشفّهم — فمَشْفِيُّـه مُشْفًـى وشاكيـه شاكرهْ
ويشـدو فيهتشّ الشحيـح لِشَدْوِهِ — ويُشغفـه إنشـاده فيشاطرهْ
تجشّـم غشيانـي فشرّد وحشتي — وبَشّرَ مُمْشَـاهُ ببشرٍ أباشرهْ
سأنشـده شعـراً يشرّق شمسه — وأشـكره شكرا تشيـع بشائره

(ثم ختم الرسالة نثرا فقال) :

وأشهد شهادة شاهد الأشياء ، ومشبع الأحشاء ، ليُشـعلنّ شواظ أشـواقى

شَحْطَه ، وليُشعثنّ شمل نشاطى نَشْطَه ، فناشدت الشيخ أيشعر باستيحاشى لشسوعه ، وإجهاشى لتشييعه ، ووشايتى لنشيده الموشّى ، ونشيد شخصه بالأشراق والعَشِى ، حاشاه حاشاه تُغَشّيه شبهةٌ أو تَغْشَاه ، فليَسْتَشِفَّ شرح شجونى لشطونه ، ومشاركتى لشجونه ، واشتغالى بتمشية شؤنه ، ليشدّ جاشى ، ويشارف انكماشى ، عاش مُنْتَعِشَ الحُشاشة ، مُسْتَبْشِرَ الهَشَاشَة ، مشحوذ الشِفار ، منتشر الشرَّار ، شتاما للأشرار ، شحّاذا بالأشعار ، يشرح ويحوش ، وينعش المنقوش ، بمشيئة الشديد البطش ، الشامخ العرش وتشريفه لبشير البشر ، وشفيع المحشر .

قال أبوتراب : وليس فى هذه الرسالة غريب يحتاج الى تفسير فكل ألفاظها من المستعمل المتردّد على أسِنّة الأقلام ، فاذا اختلفت الصيغة فعليك يافتى بأعمال الفكر لتطأ ثراها ، وتفوز بمرآها ، وتصيب قِراها ، والى الرسالة السينية إن شاءربك .

(٥)

قال أبوتراب :

قيل لى لانريد أن تأتى برسائل الأدباء تنقلها نقلا ، فليس كل مافيها الا تكثير القول ، والاحتطاب بالليل ، ونحن قُمَنَاءُ بأن نقرأها فى مظانّها ، وما أغنانا عنك ساعتئذ ، ونحن فى المنهل شارعون ، وإنا من نميره لشاربون . فقلت حماكم الله من الأَفَن فى الحِجَى ، والسفاهة فى الرأى ، والخَرَق فى النحيزة ، والاساءة من الأدب ، فما أنا بالمكثر قولا ، ولكنى أقرره تقريراً ليكون أخلق بانطباعه بالنُهى ، ولا أنا بالناقل نقلا ، وانما أنا الضارب مثلا ، لابد من سَوْقه اذا دعت اليه ضرورة البحث ، وليس من بأس فى إدراجه مادام معزوّاً الى القائل ، والاّ

فكيف يعرف السابق من اللاحق ، والمُجلىّ من المُصلىّ ، وبضدها تتبين الأشياء . على أن فى رد الفرع الى الأصل ، وإعادة الصارم الى القراب ، وصرف الماء إلى منابت الشجر النامى ، اعترافا بذوى الفضل ، وانما يعرف الفضل من الناس ذووه ، كما أن من الغبن والعىّ والظلم ومنشأ الحصر ادعاء أثارة من العلم وقد سبق اليها السابقون ، ثم خلف من بعدهم خلف ذوو الفهاهة وقالوا انا لفاعلون . ولئن نال فى ذلك سالط اللسان ، أو عاوى البيان ، فماتلك علّتى ، وانما هى علّة الفهم السَّبَهْلَلِ لايفقه أصول الرواية فى العلم ، ولا أحكام الدراية فى التخريج ، ولا فوائد التعليق على المنقول ، ولا إثبات العزو الصحيح ، ولست فى الميدان وحدى ، وانما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، وليت القوم كانوا يفقهون قول الزبير بن بكّار :

غدونا فشرّقنا وغاروا فيمّنوا وفاضت على آثارهن دموع

وهانحن أولاء نستصرف الأبصار الى موضوع أمس ، ثانين الزمام لانجاز الوعد ، وهاهى ذه سينية الحريرى أخت الشينية ، وعلى من يقرأها فى مظانها أن لايحرم منها من لايطولها الاّ منقولة بقلمنا ، محمولة بأيدينا ، معلقا عليها بحواشينا ، مضبوطة بعَزْوِنا الى قائلها ، وكذلك دَيْدَنُ الرواة ، فمن يريد منها غير هذا فانما يتعب نفسه ، وقد كتبها الحريرى على لسان الأمير أمين الملك أبى الحسن ابن قطير المدائنى ، وكان يتولى ديوان الاستيفاء بالبصرة الى الأمير الأجل الاسفهسلار النفيس ، معاتبا له على اختصاصه بالدعوة للأمير الحسام ، وقد كان نزل على الحسام فى داره بالبصرة فى المحلّة المعروفة ببنى حرام ، وهى محلّة الشيخ الحريرى ، وكان أمين الملك جاره ، وصديق ابن يثقراب النفيس ، فلم يدعه فكتب اليه يمازحه على لسانه :

باسم السميع القدوس أستفتح ، وباسعاده أستنجح ، سيرة سيدنا

الاسفهسلار السيد النفيس سيد الرؤساء سيف السلاطين حرست نفسه ، واستنارت شمسه ، واتّسق أنسه ، وبسق غرسه ، استمالة الجليس ، ومساهمة الأنيس ، ومساعدة الكسير والسليب ، ومواساة السحيق والنسيب ، والسيادة تستدعى استدامة السنن ، وحراسة الرسم الحسن ، وسمعت بالأمس تدارس الألسن ، سلافة خندريسه ، فى سلسال كؤسه ، ومحاسن مجلس سرُاته ، وإحسان سُمعة سيادته ، فاستسلفت السراء ، وتوسمت الاستدعاء ، وسوفت نفسى بالاحتساء ، ومؤانسة الجلساء ، وجلست أستقرى السبل ، وأستطلع الرسل ، واستبعد تناسى اسمى ، وأساور الوساوس لاستحالة رسمى ، (ثم قال شعرا) :

وسيف السلاطين مستأثر ... بأنس السماع وحسو الكؤس
سلانى وليس لباس السلو ... يناسب حسن سمات النفوس
وسن تناسى جلاّسه ... وأسوا السجايا تناسى الجليس
وسر حسودى بطمس الرسوم ... وطمس الرسوم كرمس النفوس
وساقى الحسام بكأس السلاف ... وأسهمنى بعبوس وبُوس
وأسكرنى حسرة واستعاض ... لقسوته سكرة الخندريس
سأكسوه لبسة مستعتب ... وأمسك إمساك سال يؤس
أسطر سيناته سيرة ... تسير أساطيرها كالبسوس

وحسبنا السلام لرسول الاسلام ..

(٦)

قال أبوتراب :

كنا فى مجلس ضم نخبة من الصحب ، ودار بنا الحديث فى علم العروض ، فبينما نحن نتكلم عنها اعترض سبب خفيف اقتضى منى الجواب ومارأيت من

بأس بمعالجته ، بقصد العودة الى حيث وقف بنا الجواد ، وانتهى اليه القول .. وهذه صلة الى ذلك المُفْضى ، ليست الزكانة فيه تحمل معنى الجد ، وانما الدعابة قد طبعته بصبغة الهزل ، لأنه ليس أحد ينكر البحور التى نظمت منها العرب شعرها ، ولافضل الفراهيدى فى استقرائها وتتبعها ثم حصرها ، حتى انقطع الطمع فى انتزاعها منه ، وفصلها عنه ، فكأنه هو واضعها ، لا مستنبطها ، أو مُرسى قواعدها ، لا جامع أشتاتها ، كما يقع فى هذا الوهم من لم يعان عناءه ، ولم يقاس بلاءه ، فيظن انه مكلّف الناس شططا ، ومرهقهم صَعودا ، وجاعلهم يتخبطون فى حصيد هو صاحب فتاته ، وزروع هو صاحب صريمها .

ولم يكن الخليل غير مستقرىء لما جاء شعر العرب منه ، حتى خرج من ذلك بعلم لم يسبقه أحد الى تدوينه وتتبعه ، ولا عار فى ذلك ولا شنار ولا وصمة ولا معرّة ، بل انه من الله لفضل على ذلك العبقرى ، رفع رتبته ، وأعلى منزلته ، ولئن جحد حقه الجاحدون ، أو غمط همته الغامطون ، فاما ذلك حسد يغصون به فى حلوقهم ، وإما جهل ومن جهل شيئا عاداه ، وفى ذلك يقول الامام نفسه مخاطباً ابنه الذى جمع عليه أشهاد الناس ، وقد رأى أباه ، وهو يَلْوى فاه ، فى خلوته ، دون جلوته ، يستخرج التفاعيل من الحركات ، وينظر فى امتزاج البحور ، وصروف الأسباب والأوتاد والفواصل :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى — أو كنت أجهل ماتقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى — وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وليت القوم فقهوا ماقيل فى العروض من ان معرفتها تسهل عليك ماتعوّج من الشعر ، فانّ الوزن نصابه ونظامه ، وعموده وقوامه ، لكنهم عابوا صنيعه حتى أن النظّام قال فى حق الخليل : إنه تعاطى ما لايحسنه ، ورام مالايناله ، وفتنته الدوائر التى لايحتاج اليها غيره .

وقيل : إن أعرابيا دخل مسجد البصرة ، فانتهى الى حلقة علم يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار ، وهو يستطيب كلامهم ، ثم أخذوا فى العروض ، فلما سمع المفاعيل والفعول ، ورد عليه ما لم يعرفه ، فظن أنهم يأتمرون به ، فقام مسرعاً ، وخرج وهو يقول :

قد كان أخذهمو فى الشعر يعجبنى حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لّما سمعت كلاماً لست أعرفه كأنه زجل الغربان والبوم
ولّيت منفلتاً والله يعصمنى من التقحم فى تلك الجرائيم

أما أنا فقلت لصاحبى المنخرط بحسك القتاد ، المتورط فى انكسار الأوزان ، الحيران بين السبب الخفيف ، وبين السبب الثقيل ، المتبرم من النصح الهادى ، المتنصل من العهد كالأعادى ، متمثلاً :

هززتك للعلا فكبوت عنها كُبُوَّ البغل طال به التعنّى

وأما التفاعيل المكسورة ، والعروض المختلة ، التى أحس بها صاحبنا دونما إتقان لصنعتها ، وانما تذوقاً لجرسها ورنينها ، فحديثى اليه ماقال فيها ابن طَبَاطَبَا مع أنى لست أؤمن بكل مضمون ومشحون ، فى هذا الموزون والمخزون :

كل العلوم يزين المرء بهجتها الاّ العروض فقد شانت ذوى الأدب
بى الدوائر دارت من دوائرها ما لامرىء أرب فى ذاك من أرب
فاستعمل الذوق فى شعر تؤلفه وزِنْ به مابنوا فى سالف الحقب

فعلى رسلك ياأخا العرب ، جئت تحجل وأنت عاثر الخُطى ، وتقرع الظنبوب وفى الوظيفين جَنَف ، سامحك الله ، فقد تعجلت وما تأملت .

قال ابو تراب :

يعيب علينا قومنا البيان لَياً بألسنتهم ، وكأنا أخذنا بمتنفّسهم ومخنّقهم ، فسددنا عليهم السبل والمسالك ، وكأنهم كانوا يناغون السماء ، فهى اليوم محفوفة بالمنعة والشهب .

همو قومى وقد أنكرت منهم   شمائل بدّلوها عن شمال

فاذا استرحنا واستراحوا سألناهم ما اللغة التى يبغونها منا عوجاً ، أهى لغة العرب أم لغات الأعاجم ، أم هى خُلّيطَى بين هذه وتلك ؟ وما الأسلوب الذى يريدونه لنا أمْتاً ، أهو أسلوب البلغاء أم من أساليب السوقة أم هو لُغَيْزَى بين هَذا وذاك ؟ فاذا قالوا : بلى لغة العرب وسنن كلامها ، قلنا : وذلك ما لم نتوان فى النسج على منواله ، ولم نَتَجَمْجَمْ فى البناء على أطلاله ، وشاهدنا شعر العرب وهو ديوانها ، وما حفظ من كلامها فانه نافخ نارها ، فلا تجعلوا الكلام غرضاً للسهام ، قبل مقارنة الكلام بالكلام والنظام بالنظام ، فما نتوخى الاّ استقامة النهج ،وما نتحرى الاّ مَرضاة المَحْمَدة ، وما نكلّمكم الاّ بالعربية الفصحى ، لا بالمَلْطِيَّةِ الشوهاء ، تلك التى وصفها أحمد فارس شدياق بقوله :

تباً لها لغة بغير قراءة   وكتابة عين بلا إنسان
تتبلبل الألباب فى تركيبها   ويكلّ عنها حدّ كل لسان
أذنابها ورؤسها عربية   فسدتْ وأوسطها من الطليانى

واليك تفكهةً بابيات مالطية مع شرحها :

سِيَارُ النّيرِ دَقُّوا تَرمْبِيْتَة   جائِنِى عاذْ ومَا جِيْشْ

يعنى أطلقوا المدافع ونفخوا بالأبواق ، وحبيبى لم يحضر إلى الآن .

قَضَبْتُ العونلا مَـرْت أنْفَتْشُوا نَسيبُـو وخَرَجْتُ شَبيبتْ

يعنى لبست العباءة ، وخرجت أفتش عنه ، فوجدته جالسا مع شابة

وقال بعضهم :

بينا نحبو وأنت تحبنى حلى لمسك ويااميعى
هل ترى من هو الحيار بينك نطعمك البسكوتنى
ورقدك فوق الطيار

غيره :

المحبوب تا قلبى سافر ليلى ونهارى نبكيح
جعلتلو به معى البحر وبتنهيدات تا قلب الريح

غيره :

بينما اشتقت نجى فوق سدتك تحبى شبيهة تا عصفور
نطفى المصباح بجوانحى نعطيك عنكه وترجع تمور

ونقل فريد وجدى : أنهم يقولون : « حبيبتنا مالطة الفلوروتا الموندو » ومعناه حبيبتنا مالطة زهرة الدنيا ، ويقولون للتفاح : (تفيح) وللرمان : (رمين) وللبطيخ : (بتيخ) وللخيار : (حيار) وللاجّاص : (لنجاس) وللخبز : (حبز) .

قال :

ولغة مالطة ذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وقال آخرون : فينيقية ، غير أنا نراها خليطاً من العربية والايطالية وغيرهما من اللغات التى تتكلم بها

الأمم التى احتلت مالطة ، ولعل العرب هم الذين علموهم الشعر ، لا سواهم لما اشتهر عنهم من الولع ، وذلك لأن أغلب أبياتهم عربىّ ، خلت من أى شىء آخر ، وهم يتعلمون كل لغة ماعدا لغتهم ، وكانت الحكومة الانكليزية قد فكرت أن تضع للغة المالطية طريقة تكتب بها ، وتقرر مبدئيا ان تستعمل الحروف العربية ، غير أن معارضة بعض الأساتذة الايطاليين عرقلت ذلك ، وأهمل هذا الأمر .

قال ابو تراب : أما أنا فمهدوم القوى أمام صحبى الذين لا زالوا يتندّرون بلغتى العربية المقنّنة الفصحى ، وهم يميلون بى الى التيه ، وأسلك بهم الجَدَد الذى يؤمن معه العثار والله ولى الصابرين .

(٨)

قال ابو تراب :

ونريد أن نصل الحديث حيث انقطع ، وكأنما هو حبل (رابعة) يراه (اليشكرى) مبسوطاً ، فلا يرضاه الاّ موصولا .

بسطت رابعة الحبل لنا　　فوصلنا الحبل منها ما انقطع

أو هو الأمل فى الوصل ، والشد فى العقد ، والتمرير فى الفتل ، والابرام فى الغزل ، كى لا يذهب من بعد قوة أنكاثا ، فتداعى معها العهود نقضا ، وكأن المغيرى كان يعنى هذا اذ يقول :

أؤمّن فادع اللّه يجمع بيننا　　بحبل شديد العقد لا يتفصّل

ولكن ما الحلّ ؟ اذا دبّ الرثيث فى الحبل ، والوهن فى القوة ، فلا يقوى المرء

على الوفاء ، وقد أفلت من يديه الحبل ، فلا يكاد يمسك بالزمام ، أفترى المعّرى يتبّرم بالحياة اذ ينعت ذلك :

ومـــازال البقـــاء يُرِثُّ حبلى الى أن حان لِلْمَـــرسِ انقطاع

اللهم اختلط الخاثر بالزباد ، والحابل بالنابل ، ثم انْشَعَبْناَ كل مَشْعَـب ، لاندرى ماذا نكتب ، ونحمدك على أن كلا منا يَنْثنى وهو جذلان مستبشر بهواطل النعمى ، وجداول الجدوى ، تتدفق بفوائد الخير وعميم البرّ.

وما الكتابة بعد ذلك الاّ زكاة الفكر ، وسُهْمة القلم ، وضريبـة العقـل ، وكفارة العلم ، لاتُعفى منها وعورة المسالك ، وإن تعلّلنا بها كسلوة الحريف ، وربما أجهدت منا النفس وفى القول نُماء ، وَكلٌ منا سعى وفى القدح صُبابة ، وقديماً قالوا : كثرة المقول ، تُفْرغ العقول .

ويذكرنى هذا طرفة علقت بالذاكرة ، ونَقَّبْتُ عنها فى كتاب (ألف با) لأبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى قال :

كنت أقرأ على الحافظ بالاسكندرية رحمه اللّه وحرسها جزءاً من تآليفه ، فمررت فيه بحديث يرويه عن أشياخه عن الامام الشافعى رحمه اللّه قال : الفول يزيد فى الدماغ ، والدماغ يزيد فى العقل . قال : وأهل تلك البلاد ينقطون الفاء بواحدة من فوق ، والقاف باثنتين من فوق ايضاً ، وهم المشارقة ، لأن المغاربة ينقطون الفاء بواحدة من تحت ، والقاف بواحدة من فوق . قال : فلم ألق بالى وحسبت الفاء قافاً فقرأت : « القـول يزيد فى الدمـاغ » فضحـك الحافظ ، وكان حلوا ظريفاً رحمه اللّه وقال لى : القول يفرغ الدماغ ، أو نحو هذه الكلمة فقلت له : القول ، عندى فى الكتاب فقال : انما هو الفول ، فأعلمنى بمذهبهم فى النقط ، قال : قلت له : كيف يزيد الفول فى العقول ؟ ونحن نقول فى بلادنا بخلاف ذلك ، فضحك وقال : سألت عن هذه المسألة شيخى فلاناً فقلت

له : كيف هذا وطبرستان أكثر بلاد الله فولا ، وأهلها أخف الناس عقولاً ؟ فقال لى : لولا الفول لطاروا .

(ذيل) قال ابو تراب : ولعل منشأ القول القائل : من أكل الفول أربعين يوماً استثور هو هذا الحسبان الباطل ، والظن الفاسد ، وهذا يخالف ما ينقل عن الدكتور عباس حلمى رحمه الله وكان طبيب الأزهر وهو يقول : « لولا الفول لجنّ الأزهريون من طول النظر فى كتبهم المعقدة »

وهو يريد بذلك العاكفين على الحواشى والخرجات ، وتعاليق المغاليق ، وحفظ المتون ، كلاميّة الأفعال وأبواب الصرف ، ولعمرى انها لتحتاج الى رأس (مندى) كل يوم ليستعين به المرء على ضربان الدماغ ، بتعويضه وقُوّته ، والله معينه حتى موته على فوته ،

أمّا عبد الوهاب عزام رحمه الله فكان يقول : لما رأيت فول معّرة النعمان أعذرت المعرىّ أبا العلاء فى تركه اللحم ، لأن فولها يغنى عن أغنى اللحم بالفيتامينِهِ ، والبروتينِهِ ، والله فى عونه وصونه .

(٩)

قال ابو تراب :

ويقتضى حديث الفول والعقل الذى قدمناه وما بينهما من لفّ القماط ، وصلة الارتباط ، استطراد ذكر « المعصوب » والعصيدة ، ومدارج اللذة بينهما دون الهلكة ، اذا سيم بهما الافطار ، وصب عليهما العسل الحضرمى ، ومُرس لهما موز جازان ، انها إذن بغية الطوى ، وشملة المقرور ، ودفء من ترتعد له البوادر ، وتصطك له اللحيان بردا .

أما العقل فلابد من أن يستأذن ساعة الأكل ، ليحق المثل القائل : رب

أكلة هاضت الآكل ، وحرمته مآكل ،

وكم من أكلة منعت أخاها ... بلذة ساعة أكلات دهر

وفى شرح أدب الكتاب للجواليقى : عن محمد بن المرزبان عن شيخ له قال : قال الأصمعى : كانت العرب تقول : من كانت فيه خصلة أحمد من عقله فبالحرى ان تكون سبب هلاكه ، فحفظت الحديث ، فحدثت به المدائنى فقال : هذا حديث حسن ، وعندى آخر يشبهه كانت العرب تقول : من لم يكن عقله من أكمل ما فيه ، كان هلاكه من أيسر ما فيه ، فحفظت الحديثين فحدثت بهما أحمد بن يوسف فقال ، هذان حديثان حسنان ، وعندى آخر يشبههما ، كانت العرب تقول : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان سريعاً الى حتفه ، فحفظت الأحاديث فحدثت بها أبا دلف فقال : هذه أحاديث حسان ، وعندى حديث أحسن منها غير أنه لا يشبهها ، كانت العرب تقول : كل شىء اذا كثر رخص ، الاّ العقل فانه اذا كثر غلا ، فحفظت الأحاديث فحدثت بها الحسين بن على الكوكبى فقال : كان الحسن يقول : ما تم دين رجل حتى يتم عقله . وبعد فقد قال ابن السماك : من لم يتحرز من عقله بعقله هلك من قبل عقله .

وهذه العبارة تذكرنى بمقولة الرافعى فى وحى القلم إذ يحكى على لسان أعرابى أُدخل على أبى جعفر ، وقد غضب عليه فقال الأعرابى :

كيف حالكم ، وكيف حال عيالكم ، وكيف حال حميركم ، فظنه ابو جعفر مخبولاً اذ لا علاقة بين العيال والحمير . ولا أدب لهذا المقال مع مقام الأمير فأطلق سراحه .. قال الرافعى : فانظر إلى عقل البدوى كيف تصرف فى عقل الخليفة ليخرج بعقله من عقلِ أبى جعفر .

وأما الأكل فهاك فيه أبياتا كاد بها ابن أبى زيد يجتلب اجتلاباً ، ويحتلب

الكلام احتلاباً .

يا سادة في المعالي لهم مبان مَشيدةْ
ومن اذا ناب خَطْبٌ قاموا بدفع المكيدةْ
ومن يهون عليهم بذل الكنوز العتيدةْ
أريد منكم شواء وجردقاً وعصيدةْ
فان غلا فرقاق به توارى الشهيدة
أولم يكن ذا ولاذا فشبعةٌ من ثريدة
فان تعذّرن طرّا فعجوة ونهيدة
فأحضروا ما تَسَنَّى ولو شظًى من قديدة
وروّحوه فنفسى لما يروج مريدة
والزاد لابد منه لرحلة لى بعيدة
وأنتمو خير رهطٍ تدعون عند الشديدة
أيديكمو كل يوم لها أياد جديدة
وراحكم واصلات شمل الصلات المفيدة
وبغيتي فى مطاوى ما ترفدون زهيدة
وفىّ أجر وعُقْبى تنفيس كربى حميدة
ولى نتائج فكر يفضحن كل قصيدة

والجردق فى الأبيات هو الرغيف والشهيدة هى الهريسة .

قال أبوتراب :

ومن أدب هذه « الفَطْرة » الجازانية ، والهريسة الخولنجانية ، أن تستجيب النفس بعدها لداعى القهوة القشرية ، لتسامح مع المعدة ، وتخفف عنها ما أثقلها مع تهيؤ القدرة ، وادعاء الدربة ، على تناولها ، والاّ كانت البطن مخوف التهديد ، بهائل النذير ، فاسألوا إن شئتم عن أسرار رعود الأبطن اذا حنّت ، من كان على خبرة واسعة ، لاتوخم مسارحه ، ولا تعزب مراعيه ، وماهو بوقيذ الخماصة ، ولاجريض المسغبة ، وانما هو مهدم (الريجيم) مؤثر المشى فى الليالى الدُّهْم من أجل تحريك الغدد ، لتمتص سموم الجسم ، وذلك من طبعه حسن التقدير ، تصح معه تزكيته لا عن طريق العيافة والقيافة ، وانما بالتجربة وحق الحسبان .

ولئن ناسب المقام ان نورد هنا قصة الكوكبانى فهو من باب المفاكهة الخلاّنية ، والمذكور مترجم عنه فى « نشر العرف » لنبلاء اليمن بعد الألف ، لشيخنا محمد بن زبارة الصنعانى ، وترجم عنه صاحب « طيب السمر » فقال : سماء معارف ، ويَمُّ عوارف ، طاهر الذيل ، لايعرف الكميت الاّ من الخيل ، نجب فى مهده ، قبل أن يركب على نهده .

هذا الكوكبانى هو محمد بن عبدالقادر الحسنى ، كتب إلى أخيه الحسين يستدعيه الى داره :

إمـــام النـــاس فى العصر ورب النظـــم والنثر
لقـــد أعـــددت مطبوخاً لكم من قهـــوة القشر
فبـــادركى تدار بنا ففيهـــا الشرح للصدر

وقـد أخليـت مجلسنا عن الثقـلاء بالعصر
فصـار اليـوم مبتسما بلا زيـد ولا عمرو

فأجابه صِنْوه بقوله :

نفيس الـدر والشذر على اللّبـات فى النحر
بل الشعـر القويـم أتى الينـا غالى السعر
من العـزّى عزّ الآل سامـى المجدوالفخر
حبانـا قهـوة فى الصبح فاقـت قهـوة العصر
فسحقـا عندهـا سحقاً لأنـواع من الخمر
حلاوة سكّر فيها فخـلّ مرارة السكر
ومـا أشبههـا بالمسـ ـك فى لون وفى عطر

وهذه الطرائف مما عرى منه كتاب الشيخ محمد طاهر كردى الموسوم بأدبيات القهوة والشاى .

فاللهم بارك لنا فى أرزاقنا ، وعافنا فى أبداننا ، ومامن أكلة شهية نستمرئها الاّ وسألناك خيراً عنها بفضلك عملاً بالسنة الواردة فى ذلك الاّ اللبن فزدنا منه كما قال نبيك :

محا المشيبُ مراحى حين خطّ على رأسى فَأَبْغِضْ به من كاتب ماحى
ولاح يَلْحَى على جَرْى العنانَ الى مَلْهىً فسُحْقاً له من لائحٍ لاحى
ولـو لهـوتُ وَفـوْدى شائـب لخَبَا بين المصابيح من غسَّانَ مصباحى
قوم سجاياهمـو توقـير ضيفهمو والشيب ضيف له التوقير ياصاح

المراح فى الأبيات الطرب واللهو ، ومعنى (يَلْحَى) يلوم ، وهو من باب سعى

يسعى ، تقول لحاه الله أى قبّحه ولعنه ، فهو مَلْحيٌ ، ويَلْحَى فلاناً أى يلومه ، وفى اللغة : لحا يلحو أيضاً بمعنى شتم يشتم ، ومن المادة الأولى اللَّحْى وهو منبت اللحية ، والله تعالى أعلم ..

(١١)

قال أبوتراب :

وقفت على كلام طائش فائش ، ورأى عَجول جهول ، وتعليق أهوج أهوك للدكتـــور محمـــود على مكى نشره فى عدد جمادى الأولى ٨٢ هـ من مجلة الهلال ، هدم فيه بابا عظيما من صنائع الكتاب والشعراء وهو باب الاستعارات ، وقوّض فيه صرحاً شامخاً من صروح الانشاء وهو صرح التشبيهات ، لم يَعْرَ منهما كتاب الاسلام ، ولا جَفَا عنهما كلام سيد الأنام ، ولم تزل التشبيهات مطمح أنظار البلغاء ، وحَلَبة أفكار الشعراء ، الى أن جاء عصر العجز عن لحوق شأْوِ المُجلّين ، فوَهَتْ العزائم ، وجَفَّ المعين ، وقلق الوَضين ، وشَنُجَ الوتين ، فظهر لنا هذا الرأى الفائل السفيه ، والقول الركيك الفهيه الذى رَمَى عمل الكتاب والشعراء القُدامَى بالسُّخف ، ونَعَتَه بالتكلف ، ووَصَفه بالزُخرف الأجوف ، حتى المتنبى حمل عليه بأنه خاض هذه اللُّعبةِ السخيفة فى نظره ، ولم يسلم من هذا التطاوُلِ الامام ابن حزم فقد تناوله برأيه الأنوك وقِحَتِه البادى عارها ، ولا يدرى هذا الدكتور بأن عقله لو وُزن بشِسْع نَعْلِه لطار ، وإنْ أوقره بزُبر الحديد ، فأين لسانك من لسان مَنْ ضارع لسانُه سيفَ الحجاج فَرْياً ، ولكن البليّـة بليّـة الجهل ، وقلة العرفان .

كناطــح صخــرة يومــاً لِيُوهنَها فلم يَضرِْهـا وأوهـى قَرْنَـه الوَعِلُ

وحقا كان محمود على مكى سيّىء الأدب مع الأكابر ، قد فارق الحياء ، وحالف البذاء ، ونصر الباطل ، وشتم أصحاب الرموس أطّتْ لهم المنابر ، وصرّتْ بأناملهم الأقلام ، وأثْنَى عليهم أعلام الدهر ، عبر القرون ، فما يضيرهم أن انبعث لئيم ذميم ، ضيّق الجَنان ، حَرِج اللَّبان ، لَزُّ المَهَزَّة مَصْفودُ اليدين ، قصير الباع ، لايُطْمع منه فى النّزْر القليل ليقول عن المتنبى : « انه خاض هذه اللعبة السخيفة وليقول عن الوأواء الدمشقى إنه ثقيل سخيف ، وليرمى الثعالبى بفساد الذوق ، وركوب أقبح ضروب التكلف ، لِتَصِمَ الحريرى بتهمة التمارين الأدبية المثقلة بألوانٍ من الزخرف الأجوف ، ولتنتفخ أوداجُه اغتياظاً من الامام ابن حزم فينعته بأنه فاق فى السخف والتكلف والبعد عن المضمون الشعرى الحقيقى ، ولم يرتفع عن امثال هذه « البهلوانيات »حتى أدّت الى افساد الشعر والجناية على البلاغة ، ونسى أنّه يعيب بذلك الشعر الأندلسى ، أتدرون لماذا يَتَندّى الدكتور محمود مكى بكل هذه القِحَة والبذاءة ؟

لأن الوأواء قال :

فأمطرت لؤلـؤاً من نَرْجسٍ وسَقَتْ وَرْداً وعَضَّتْ على العُنّـاب بالبَرَدِ

ولأن المتنبى قال :

بَدَتْ قمـراً ومَالـتْ خوطَ بانٍ وفَاحَـتْ عنبـراً ورَنَـتْ غزالاَ

فَهَلْ رأيتم أجهلَ مِنْ جَهْلِ هذا الذى نَصَبَ نفسه ناقداً ، وتَصدَّى للفحول وفى عقله أفَن ، وكأن به مسا من الجِنَّة ، أو لَمَاً من الوسواس ، كيف لاَ يأْنَسُ للتشبيهات وهى فى القرآن جواهرُ الابداع قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيْعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » أليس هذا من إخراج مالا تقع عليه الحاسّة الى ماتقع عليه الحاسّة بهذا التشبيه البليغ الصحيح

الدلالة العذب اللفظ ، أليس يقول الله تعالى : « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » ويقول : « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » ويقول : « مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح » ياهذا أنت اذا لم تَأْلَفْ هذا النوع من الكلام ، فأنت لن تَفْقَه من أساليب العرب ولا البلغاء

مثل قول امرىء القيس :

له أيطَلاَ ظبْـيٍ وساقـا نعامةٍ ... وإرخـاء سِرْحـانٍ وتقريـبُ تتفل

أو قول البحترى :

كأنّمـا يبسـم عن لؤلؤٍ ... مُنَضَّـدٍ أو بَرَدٍ أو أقَاحْ

ذلك لأن الآفة آفةُ السمادير فى النظر ، والأَفَـن فى الحِجَـى ونسـأل الله السلامة .

(١٢)

قال أبوتراب :

التشبيه هو التمثيل لغة ، وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى من المعانى اصطلاحاً ، وأركان هذا الباب من علم البيان : المشبه والمشبَه به ، ووجه التشبيه واداته ، والحسى منه كتشبيه الخد بالورد أو رائحة بعض الأزاهر بالمسك كما قال :

ما الدهر الاّ الربيـع المستنـير اذا ... أتى الربيـع أتـاك النُـور والنَّور
فالأرض ياقوتـة والجـو لؤلؤة ... والنبـت فـيروزج والماء بلّور

والعقلى منه كتشبيه العلم بالحياة ولأجل ذلك قال :

أخو العلم حى خالد بعد موته — وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى — يظن من الأحياء وهو عديم

وكتشبيه مايتخلف من الفوائد بعد انعدام الشىء بالوجود كما قال :

رب حيّ كميت ليس فيه — أمل يرتجى لنفع وضر
وعظام تحت التراب وفوق الأ — رض منها آثار حمد وشكر

ومن الحسى مثل قول الشاعر :

وكأن محمرَّ الشقيق اذا — تصوب او تصعد
أعلام ياقوت نشر — ن على رماح من زبرجد

ومن العقلى قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشر فى مضاجعى — ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقد جمع الشاعر بين وجه التشبيه التحقيقى والتخيلى فى مصراعى بيته فقال :

وكأن النجوم بين دجاها — سنن لاح بينهن ابتداع

وأغراض التشبيه كثيرة يتضح منها فى قول ابن الرومى بيان الامكان :

وكم أب قد علا بابن ذُرا شرف — كما علا برسول الله عدنان

ومثله فى قول المتنبى فى تصحيح الدعوى :

فان تَفُـقِ الأنـام وأنـت منهم　　　فان المسـك بعض دم الغزال

وفى مقدار حال المشبه فى القوة والضعف قول الشاعر :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض　　　على الماء خانتـه فروج الأصابع

وتتفاوت مراتب القول فى هذا المجال باعتبار المحسوس والتوهم كقوله :

فى طول ليل تناهى العرض والطـول　　　كأنما ليلـه بالليـل موصول

وهذا على بلاغته لايبعث فى النفس من الأنس كما يبعث قوله :

ويـوم كظـل الرمـح قصر طوله　　　دم الزق عنـا واصطفاق المزاهر

لأنه محسوس وان كان طول الرمح متناهيا ، وهذا كقول الآخر :

ظللنـا عنـد دار أبـى أنيس　　　بيـوم مثـل سالفـة الذباب

وقوله :

ويـوم كابهـام القطـاة مزين　　　الىّ ضيـاه غالـب لى باطل

وقد يتوصل الى الغرض بعكس التشبيه كأن تجعل المشبه به مشبها وهو باب من البلاغة كقوله :

وبـدا الصبـاح كأن غرته　　　وجـه الخليفـة حـين يمتدح

وقد يكون غريبا يحتاج الى دقة نظر فى إدراكه كقول ابن المعتز : (والشمس كالمرآة فى كف الأشل)

ويقرب منه قول الآخر :

كأن شعاع الشمس فى كل غدوة　　　على ورق الأشجـار أول طالع
دنانـير فى كف الأشـل يضمها　　　لقبض وتهوى من فروج الأصابع

وكقول الوزير المهلبى :

الشـــمس من شرقهـــا قد بدت   مشرقـــة ليس لهـــا حاجب
كأنهـــا بَوْدَقَـــة أُحميت   يجـــول فيهـــا ذهـــب ذاهب

ومن لطيف ماجاء فى هذا النـوع من التشبيـه قول الأخطـل فى صفـة مصلوب :

كأنـــه عاشـــق قد مد صفحته   يوم الـــوداع الى توديـــع مرتحل
أو قائـم من نعـاس فيـــه لوثته   مواصـــل لتمطيـــه من الكسل

(١٣)

قال ابو تراب :

ومن فساد التشبيه ان يجيء منكوساً كقول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشبـــاب كأنه   ليل يصيح بجـــانبيه نهار

فذكر بدّو الشيب فى الشباب ثم ذهب الى وصف الشباب تاركاً الشيب ولم يصحح المقابلة فلم يقل كما ينهض نهار بجانبى ليل .

وأقسام التشبيه : مفرد بمفرد ، ومفرد بمركب ، ومركب بمركب كما فى قول بشار بن برد :

كأن مثـــار النقـــع فوق رؤسنا   وأسيافنـــا ليل تهـــاوى كواكبه

ومركب بمفرد كما فى قول الشاعر :

يا صاحبـــىَ تقصّيا نظريكما   تريا وجـــوه الأرض كيف تصور
تريا نهـــارا مشمســـا قد شابه   زهـــر الربـــا فكأنـــه هو مقمر

وباعتبار تعدد طرفى التشبيه ملفوف ومفروق وتسوية وجمع فالملفوف كقول امرىء القيس :

كأن قلـوب الطـير رطبـاً ويابساً لدى وكرها العنـاب والحشف البال

وكقول الآخر فى ثلاثة بثلاثة :

ليل وبـدر وغصن شعـر ووجـه وقد
خمـر ودرّ وورد ريق وثغـر وخد

وكقول الشاعر فى أربعة بأربعة :

ثغـر وخـد ونهـد واحمـرار يد كالطلـع والـورد والرمـان والبلح

وكقول أبى نواس :

يبـكى فيذرى الـدرّ من نرجس ويلطـم الـورد بعناب

وكقول أبى الفرج الوأواء الدمشقى :

كأن الـدرارى والهـلال ودارة حوتـه وقـد زان الثـريا التئامها
حباب طفا من حول زورق فضة بكف فتـاة طاف بالـراح جامها

وله فى خمسة بخمسة :

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها امـاً غداً زعمـوا أولا فبعـد غد
فأمطـرت لؤلـؤا من نرجس وسقت ورداً وعَضّتْ على العنـاب بالبرد

وهذا هو الذى طعن فيه الدكتور مكى فى مجلة « الهلال » الذى رددنا عليه فى ما مضى ، ونحن نكتب هذا البحث المقتضب لبيان جهله بعلم البيان والبلاغة فلو علم هذه الصنائع لأدهشه من برز فيها من الشعـراء ، ولما رماهـا بالسـخف وألاعيب الصبيان ، .

وفى ستة بستة قول ابن جابر :

ان شئت ظبيا أو هــلالاً أو دجى ‏ ‏ أو زهر غصــن فى الـكثيب الأملد
فللحظهــا ولوجههــا فلشعرها ‏ ‏ فلخدهــا والقــد والــردف اقصد

وقول النجم فى سبعة بسبعة أنشده له بدر الدين الحموى النحوى :

يقطـع بالســكين بطيخــة ضحى ‏ ‏ على طبــق فى مجلس لأصاحبه
كشــمس ببــرق قد بدا وأهلّة ‏ ‏ لدى هالـة فى الأفـق بـين كواكبه

وفى ثمانية بثمانية :

خدود وأصــداغ وقــد ومقلة ‏ ‏ وثغــر وأرياق ولحــن ومعرب
وورد وسوســان وبــان ونرجس ‏ ‏ وكاس وجــريال وجنــك ومطرب

وقول الآخر فى عشرة بعشرة :

فرع جبــين محيّا معــطف كفل ‏ ‏ صدغ فم وجنــان ناظــر ثغر
ليل هلال صبــاح بانــة كثب ‏ ‏ آس أقــاح شقيق نرجسٌ

ومن هنا تظهر براعة الحافظ ابى محمد ابن حزم الذى استطاع جمع خمسة بخمسة فى بيت واحد وهذا لم يسبقه اليه أحد ولا لحقه لأن الوزن الشعرى يعجز عنه ولا يحتمله ، وقد أتوا بأكثر منه ولكن فى بيتين لا واحد ، وهذا قطع به نقاد الشعر ولكن الدكتور يجهل ذلك ومن جهل شيئا عاداه ، وقول ابن حزم هو :

كأنى وهى والكأس والخمر والدجى ‏ ‏ ثرى وحيا والــدر والتبــر والثبج

فهذه خمسة بخمسة فى بيت واحد والمشبهات والمشبه بهن كلهن فيه .. وليس كذلك بيت الوأواء فانه لم يذكر فيه المشبهات .

وأما المفروق فكقول الشاعر :

(النشر مســك والوجــوه دنا ‏ ‏ نــير وأطــراف الأكف عنم)

والتسوية كقوله :

(صـــدغ الحبيب وحـــالى كلاهمـــا كالليـــالى)

والجمع كقول ابن المعتز :

(كأنمــا يبســم عن لؤلؤ منضــد أو بــرد أو أقاح)

ومن قبيل ما وجد تشبيه شيء باثنين قول امرىء القيس من المعلّقة المشهورة :

وتعطـو برَخْصٍ غـير شَثْـنٍ كأنه أساريع رمل أو مساويك إسْحِلِ

وللأعجام تقسيمات أخر فى هذا الباب سنعرض لها فيما بعد ان شَاء اللّه .

قال ابو تراب :

ولا أدرى بماذا ينعت الدكتور محمود مكى صنيع زين الدين المقّرى قال بيتا من الشعر يتولد منه عشرون وثلاثمئة وأربعون ألف ألف بيت ، أهـى لعبـة صبيانية عنده كما تصورها فى تشبيهات المتنبى وابن حزم والوأواء ، لا ريب فى أنه متخيل ذلك ، إذْ هى أعقد من عمل التشبيهات ، ونحن نصكّ فاه ولا نبالى أبَاءَ باثمه أم احر نجم ، أم كاسع بالصدر ، أم ناظر وهج الشمس مناظرة حُلكة الدجى ، وقد ذكر العلاّمة ابن قيم الجوزية فى بدائع الفوائد : أن بيت المقّرى يشتمل على أربعين ألف بيت وثلاثمئة وعشرين بيتا وهو قوله :

لقلبـــى حبيب مليح ظريف بديع جميل رشيق لطيف

وبيان ذلك أن هذا البيت ثمانية اجزاء ، يمكن أن ينطق بكل جزء من اجزائه مع الجزء الآخر ، فتنتقل كل كلمة ثمانية انتقالات ، فالجزءان الأولان : (لقلبى حبيب) يتصور منهما صورتان بالتقديم والتأخير ، ثم خذ الجزء الثالث ، فيحدث منه مع الجزأين الأولين ست صور ، لأن له ثلاثة أحوال ، تقديمه عليهما وتأخيره ،

وتوسطه ، وهما حالان ، فاضرب أحواله فى الحالين ، يكنْ ستةً ، ثم خذ الجزء الرابع وله أربعة أحوال ، فاضربها فى الصور المتقدمة وهى الأحوال الستة التى لما قبله ، تكنْ أربعة وعشرين ، ثم خذ الخامس تجد له خمسة أحوال ، فاضربها فى الأحوال المتقدمة وهى أربعة وعشرون تكنْ مئة وعشرين ، ثم خذ السادس تجد له ستة أحوال فاضربها فى مئة وعشرين تكنْ سبعمئة وعشرين ، ثم خذ السابع تجد له سبعة أحوال فاضربها فى سبعمئة وعشرين تكنْ خمسة آلاف وأربعين ، ثم خذ الثامن تجد أحواله ثمانية فاضربها فى خمسة آلاف وأربعين تكنْ أربعين ألفاً وثلاثمئة وعشرين بيتا ، فامتحنها تجدها كذلك . قال العلاّمة ابن القيم ومثله لى قلته فى القدس :

أمحــب صبــور غريب فقير وحيد ضعيف كتــوم حمول

(١٤)

قال ابو تراب

ورأيت فى مختارات العلاّمة احمد تيمور باشا قال : ولا يتيسر هذا العدد مع الوزن الاّ فى بحر المتقارب ، والمتدارك ، وهاك بيتين يخرج من كل منهما أربعون ألفاً وثلاثمئة وعشرون صورة وهما :

علىٌّ رضًى زكىٌّ وفىٌّ سرىٌّ سخــىٌّ حيــىٌّ حَفىٌّ

إلىٌ وَطِــىٌّ حِمَــىٌّ كفىٌّ تقــىٌّ نقــىٌّ ولىٌ صَفِىٌّ

وذكر العلاّمة شهاب الدين القرافى بيتا من بحر المتقارب وهو :

حبيب بقلبــى مليح جميل بديع ظريف رشيق عزيز

وذكر انه يتفرع عنه بتقديم ألفاظه وتأخيرها أربعون ألفا وثلاثمئة وعشرون صورة ولم يذكر الكيفية ، فلما ورد القاهرة ذو الفضائل الباهرة شمس الدين ابن ساعدة الأنصارى سئل عما يحاكى ذلك ، فحلّ ما أشكل وبَينَ ما أعضل ، ثم ذكر مقدمة يقرب بها القاصى ، ويسمح بها المتعاصى ، قال العلاّمة أحمد تيمور وانما ذكرنا هذه المسألة وان كانت قليلة الجدوى لأن الشاعر الظالع فضلاً عن البارع يتيسر له نظم نظير ذلك لعدم عسره ، لينتبه المطالع لسر اللغات ، وأنها مع كثرتها وكثرة موادّها بحيث تعيى الحساب قد تركبت من أحرف الهجاء ، وليتمرّن على تقليب الكلمات فان فى ذلك فائدة عظيمة الجدوى لذوى الأدب ، منهم التاريخ الجمّلى ، وفى كتاب سفينة الراغب نكتة بديعة وقعت للبوصيرى فى تقليب الأحرف فلتراجع .

(١٥)

قال ابو تراب :

وذكر العلاّمة أحمد تيمور باشا فى مختاراته أن شمس الدين ابن ساعدة الأنصارى لما سئل عند وروده القاهرة عن حلّ تولُّدِ الأبيات الألوف من بيت واحد أجاب : بأن اللفظ اذا كان على حرف واحد لم يمكن قلبه مثل : (ك) فاذا كان على حرفين مثل : (كل) حصل منه بالقلب صورتان وذلك بأن تجعل الأول ثانيا والثانى أولاً وهما هنا : (١ ـ كل ٢ ـ لك) واذا كان على ثلاثة أحرف مثل : (كلم) حصل منه بالقلب ست صور لأن كل حرف منها يمكن أن تجعله ابتداء تلك الكلمة ، وعلى كل من الأحوال الثلاثة فانه يمكن وقوع الحرفين الباقيين على وجهين ، فاذا ضربت الاثنين فى الثلاثة حصل ستة ، وها هى :

(١ ـ كلم ، ٢ ـ كمل ، ٣ لكم ، ٤ لمك ، ٥ مكل ، ٦ ملك) واذا كان على أربعة أحرف مثل : (كلمة) حصل منه بالقلب أربع وعشرون صورة لأن كل واحد من الأحرف الأربعة يمكن جعله ابتداء لتلك الكلمة ، وعلى كل من الأحوال الأربعة فانه يمكن وقوع الحروف الثلاثة الباقية على ست صور فاذا ضربت الأربعة فى الستة يحصل أربعة وعشرون وها هى : ستة بِجَعْل الكاف ابتداء : (١ ـ كلمة ٢ ـ كملة ، ٣ ـ كلتم ، ٤ ـ كمتل ، ٥ ـ كتمل ، ٦ ـ كتلم ،) وستة بجعل اللام ابتداء : (١ ـ لكمة ، ٢ ـ لمكة ، ٣ ـ لكتم ، ٤ ـ لتكم ، ٥ ـ لمتك ، ٦ ـ لتمك) وستة بجعل الميم ابتداء ، (١ ـ مكلة ، ٢ ـ ملكة ، ٣ ـ مكتل ، ٤ ـ ملتك ، ٥ ـ متكل ، ٦ ـ متلك) وستة بجعل التاء ابتداء(١ ـ تكلم ، ٢ ـ تكمل ، ٣ ـ تلكم ، ٤ ـ تلمك ، ٥ ـ تمكل ، ٦ ـ تملك) واذا كان على خمسة أحرف مثل : (كلمته) حصل منه بالقلب مئة وعشرون صورة ، والقاعدة فى هذا الباب أن تضرب عدد أحرف اللفظ الذى تريده فى عدد التقلباتِ التى تحصل فى اللفظ الذى تحته أى أقل منه بحرف يحصل عدد تقلبات ذلك اللفظ ، ولما كان اللفظ المذكور وهو (كلمته) مركبا من خمسة أحرف وعدد التقلبات فيما قبله وهو الرباعى أربعة وعشرون كان عدد تقلباته هو مئة وعشرين حاصلة من ضرب خمسة فى أربعة وعشرين . وبهذا الضابط يظهر لك أن تقلبات اللفظ السداسى مثل : (كلمتهما) سبعمئة وعشرون وهى حاصلة من ضرب ستة وهى عدد الأحرف فى مئة وعشرين وهى عدد التقلبات فى الخماسى ، وان عدد التقلبات فى اللفظ السباعى مثل : (كلمتها) خمسة آلاف وأربعون وهى حاصلة من ضرب سبعة وهو عدد الأحرف فى سبعمئة وعشرين وهى عدد التقلبات فى السداسى ، وان عدد التقلبات فى اللفظ الثُمانِى أربعون ألفاً وثلاثمئة وعشرون وهى حاصلة من ضرب الثمانية وهى عدد الأحرف فى خمسة آلاف وأربعين وهى عدد التقلبات فى السباعى .

اذا عرفت هذا تبين لك سر ما ذكره العلامة القرافى لأن البيت المذكور مركب من ثمانية أجزاء فافرض البيت بمنزلة الكلمة ، وافرض اجزاءه بمنزلة أحرفها ، وحيث ان الكلمة التى يفرض تركبها من ثمانية أحرف يخرج من تقليبها بالتقديم والتأخير أربعون ألفاً وثلاثمئة وعشرون صورة يخرج من تقليب اجزاء البيت المذكور صور بذلك المقدار ـ وهى كلها موزونة غير أن معناها متحد ، وهاك بيتين يخرج من كل منهما ذلك العدد وهما

(علـى رضى زكـى وفى سـرىّ سـخـى حـيى وفى)

قال أحمد تيمور :

أَلىٌ وَطِـىّ حمـىّ كفىّ تقـى نقـى ولىّ صـفىّ

ويمكن ايصال عدد الصور التى تخرج منهـا الى سبعمئـة ألف وخمسـة وعشرين ألف صورة وسبعمئة وستين ، وبيان ذلك أنّ كل واحد منهما يخرج منه (٢٠ × ٤٠) فاذا رفعت كلمة من أحدهما ووضعتها فى البيت الآخر وأخذت منه كلمة ووضعتها فى الأول حصل من كل من البيتين مثل ذلك العدد ، فاذا فعلـت ذلك الى أن تتـم الـكلمات الثمان من كل بيت حصـل من كل بيت (٢٠ × ٤٠) ثمانى مرات فاذا جمعت الجميع حصل عندك (١٦٠ ، ٧٢٥) وهو مجموع ما ينشأ من البيتين من الصور ، هذا اذا فُعل ما ذكرنا وأمّا اذا أُخذ من أحدهما كلمتان فأكثر الى السبع ووضعت فى الآخر ، وفعل ذلك فى البيت الآخر حصل أكثر من ذلك .

قال ابو تراب :

ومن عيوب المعانى أن ينسب الشيء الى ما ليس منه ، ومما أخذ النقاد على الشعراء من هذا القبيل قول خالد بن صفوان :

فانْ صورة راقتــك فأخْبُر فربّما   أمـرَّ مذاقُ العــود والعــود أخضر

قال قدامة والمرزبانى : « كأنه يومىء أن سبيل العود الأخضر فى الأكثر أن يكون عذباً أو غير مرّ ، وهذا ليس بواجب ، لأنه ليس العود الأخضر بطعم من الطعم أولى منه بالآخر .

ومن عيوب المعانى قول الحكم الخضرى نقله فى أوهام الشعراء :

كانــت بنــو غالــب لأمّتها   كالغيــث فى كل ساعــة يكف

وليس فى المعهود أن يكون الغيث واكفاً فى كل ساعة ، ومنها قول الحطيئة :

ومــن يطلــب مساعــى آل لأى   تصعّــده الأمــور الى علاها

قال ابو هلال العسكرى : « كان ينبغى أن يقول : من طلب مساعيهم عجز عنها وقصرّ دونها ، فأما إذا تناهى الى علاها فأىُّ فخر لهم ، فأن قيل : انه أراد به أنه يلقى صعوبة ، كما يلقى الصاعد من أسفل الى علو ، فالعيب ايضاً لازم له ، لأنه لم يعبر عنه تعبيراً مبينا » ونحوه فى الموشح للمرزبانى .

قال فى أوهام الشعراء .

البيت على القول الأول أشبه بالهجاء منه بالمدح لأنه أراد أن يعظم شأنهم فصغّره وحقّره ، وقد وقع الأخطل فى ما يشبهه فانه أراد مدح سماك الأسدى ،

وكان قومه يلقبون بالقيون ويعيرّون بذلك فقال :

قد كنـــت أحسبــه قينـــاً وأُنْبَؤُهُ   فاليـــوم طَـيرَ عن أثوابــه الشَرَرُ

أى فاليم نفى ذلك عن نفسه ، وذهب عنه هذ اللقب ، فنبّه فى مدحه له على شيء يعيرّ به ، وكان له فى ضروب المادح متسع ، ويروى أنه لمّا أنشده سماكاً قال له : أردت ان تمدحنى فهجوتنى ، كان الناس يقولون قولاً فحققته .

وأراد الأخطل ان يهجو سويد بن منجوف فأتى بما يدل على مدحه فى قوله :

وما جذع سوء خرب السوس أصله   لما حمّلتــه وائــل بمطيق

فجعله لا يطيق ما حمّلته وائل من أمورها ، فأثبت له نباهة وسؤدداً وجعله ممن تعصب به الحاجات .

وفى الأغانى : أنه لما هجا سويداً بهذا الشعر قال له : يا أبا مالك ، ما تحسن تهجو ولا تمدح ، لقد أردت مدح الأسدى فهجوته ، يعنى قوله : (قد كنت أحسبه قينا وأُنْبَؤُه) وأردت هجائى فمدحتنى ، جعلت وائلاً حمّلتنى أمورها ، وما طمعت فى بنى تغلب فضلاً عن بكر .

قال احمد تيمور : وقد سبقه زهير الى المدح بما يشبه الهجاء فى بيت لم نر من تنبّه لما فيه غير ابن شرف القيروانى فقال عنه ما نصه : « وقال زهير وهو من أطيب شعره ، وأملحه عند العامّة ، وكثير من الخاصة ، فهاهنا تحفظ وتأمل ، ولا يَهُلْكَ ذلك منهم الحق أبلج » قال :

تراه اذا ما جئتــه متهللاً   كأنـك تعطيـه الـذى أنـت سائله

(حاشية)

وفى طبقات الشعراء لابن قتيبة : ان عبد الملك بن مروان سأل قوماً من الشعراء عن أى بيت امدح فاتفقوا على بيت زهير هذا .

ونقده ابن شرف القيرواني فقال : « مدح به شريفاً ، أى شريف فجعل سروره بقاصده كسروره بمن يدفع شيئا من عرض الدنيا اليه ، وليس من صفات النفوس العازفة السامية ، والهمم الشريفة العالية إظهار السرور الى أن تتهلل وجوههم ، وتسر نفوسهم بهبة الواهب ، ولاشدة الابتهاج بعطية المعطى ، بل ذلك عندهم سقوط همة ، وصغر نفس » الى أن قال : « هذا نقض البناء ، ومحض الهجاء ، والفضلاء يفخرون بضدّ هذا » .

وعابوا على النابغة الذبياني قوله :

ماضي الجنان أخي صبر اذا نزلت   حرب يوائل منها كل تنبال

(يوائل) يطلب الموئل وهو الملجأ ، و (التنبال) القصير أو الجبان . وذكره هنا مفسد لمعنى البيت .

قال ابو هلال العسكرى : ليس القصير بأولى بطلب الموئل من الطويل ، وان جعل التنبال الجبان فهو أبعد من الصواب لأن الجبان خائف وجل اشتدت الحرب أم سكنت .

ومثله فى الموشح للمرزباني باختلاف فى العبارة .

وقال النابغة ايضاً يصف ناقته ، وقال بعضهم انه وصف ثور ورواه (يحيد) :

تحيد عن أستَنٍ سود أسافله   مشى الاماء الغوادى تحمل الحُزَمَا

(الأستن) بوزن أحمر شجر اذا نظر الناظر اليه من بعد شبهه بشخوص الناس ، كذا فى اللسان .

وقال الأعلم الشنتمرى فى شرح الديوان : « شبه الأستن فى سواد أسافله وطوله باماء سود يحملن الحزم ، وأوقع التشبيه فى اللفظ على المشى لأنه السبب فى ظهور أسافلهن ، وتبين سوادهن ، وانما خص اللواتى تحمل الحزم لأنهن اذا كانت

عليهن الحزم مددن ايديهن ، فكان أطول لهن ،

وفى شرح الوزير أبى بكر البطليوسى : « شبه سواد أسافل هذا الشجر وما فوق ذلك من فروعه اليابسة باماء سود على رؤسهن حطب ، لأن لون هذا الشجر اذا كان اسفله أسود وأعلاه يابس الأغصان فكأنه حطب على رؤس اماء سود ».

والذى عيب عليه فى هذا البيت من فساد المعنى قوله (الغوادى) لأن الاماء تحمل الحطب ، بعشى وهن روائح ، وأمّا اذا غدون الى الصحراء فانهن مُخَفَّفات ، قالوا ، والجيد قول التغلبىّ :

تظلّ بها رُبْدُ النعام كأنها　　اماء تزجَّى بالعشى حواطب

وقد شبه النعام بالاماء الحواطب ، لأن النعامة اذا خفضت عنقها ، ومشت كانت أشبه شىء بماشٍ وعلى ظهره حمل ،

وقال ابو هلال العسكرى ، فى بيت النابغة : وقد روى « مثل الاماء » واذا صحت الرواية سلم المعنى » .

قال احمد تيمور : لم يظهر لنا وجه سلامة المعنى على هذه الرواية لأن أبا هلال لم يعب عليه قوله : (مشى الاماء) بل عاب عليه كغيره قوله : (الغوادى) وتغيير (مشى) (بمثل) لا يجعل تلك الاماء روائح حتى يسلم المعنى به ، وانما الذى ينتصر للنابغة يقول : أراد أن الاماء تغدو لتحمل الحطب رواحاً .

وقال على بن حمزة البصرى فى التنبيهات ، « كان ابو عبيدة يقول : لم يقله النابغة الاّ « (عشاء) تحمل الحُزَما » .

وعلى هذه الرواية ينتفى الاعتراض عليه .

وقال النابغة أيضاً يصف ثوراً :

من وحش وجــرة موشّى أكارعه   طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

قال ابو هلال : « أراد بالفرد انه مسلول من غمده ، فلم يبن بقوله (الفرد) عن سلّه بيانا واضحاً . والجيد من قول الطرماح وقد أخذه منه :

يبدو وتضمره البــلاد كأنه   سيف على شرف يُسَــلُّ ويُغمد

وهذا غاية فى حسن الوصف ، ومثله فى طبقات الشعراء لابن قتيبة ، ومما خطأوا فيه النابغة ايضاً قوله :

ألكنــى ياعُيَــين اليــك قولاً   ستحملــه الــرواة اليــك عنّى

(ألكنى) أى كن رسولى وبلغ أُلُوكتي أى رسالتــى ، وفسره ابــو هلال بـ « أرسلنى » فقال منتقداً البيت : « وليس من الصواب أن يقال : أرسلنى الى نفسك ثم قال : ستحمله الرواة اليك عنى ، وقال الآمدى : قالوا : (ألكنى) أى كن لى رسولاً فكيف يكون ألكنى اليك عنى ، فاعتذر له الأصمعى وقال : « أهذا مما حملته الرواة عن النابغة ، كأنه يدفع ان يكون قاله »

ولاحمد تيمور تعليق على هذا الكلام فى أوهام الشعراء فليراجع .

ومما أدرك على أبى نواس فى وصف الأسد قوله :

كأنمــا عينــه اذا التفتت   بارزة الجفــن غــير مخنوق

(حاشية) رواية (العقد الفريد » و« الصناعتين » و« سر الفصاحة » : « نظرت » بدل « التفتت » وفى « الحيوان » للجاحظ : « تهبّت »

والانتقاد أن عين المخنوق تكون جاحظة ، والأسد لا يـوصف بجحـوظ العين ، بل يوصف بغؤورها ، كما قال ابو زبيد :

كأن عينَيْــه فى وَقْبَــينْ من حجر   قيضا اقتياضــاً بأطــراف المناقير

(حاشـــية)

« الوقب » النقرة فى الحجرة ، و« قيضا » نُقرا ، و« المناقير » جمع منقار وهى حديدة ينقر بها .

ومن أوهام أبى نواس ما رواه المرزبانى فى الموشح قال : « حدثنى المظفر بن يحيى قال : غلط ابو نواس فى قوله يصف الكلب .

كأنما الأظفـور من قنابه موسى صنـاع ردّ فى نصابه

(حاشية)

« القِنـاب » بكسر الأول ما يدخـل فيـه الأسـد مخالبـه من يده ، و« الصناع » بفتح أوله الحاذق فى الصنعة ، أى كأن ظفر هذا الكلب اذا أدخله فى قنابه موسى رجل صناع طوى فى نصابه .

والانتقاد الوارد أنه ظن أن مخلب الكلب كمخلب الأسد والسنور الذى يستتر اذا أرادا حتى لايتبين ، وعند حاجتهما تخرج المخالب حُجُناً محدّدة يفترسان بها ، والكلب مبسوط اليد أبداً غير منقبض .

ومما ادرك على أبى نواس ايضاً قوله يصف الديار :

كأنها اذا خرست جارم بـين يدى تفنيـده مطرق

قال الجاحظ فى « الحيوان » : « عابوه بذلك وقالوا : لا يقول أحد : لقد سكت هذا الحجر ، كأنه إنسان ساكت ، وانما يوصف خرس الانسان بخرس الدار ، ويشبه صممه بصمم الصخر ،

قال احمد تيمور : الذى عندنا فى البيت انه من التشبيه المقلوب ، والتخيل فيه بديع ـ فلا وجه لما ذكروه من التنقيد والاستدراك .

ومما وهم فيه ابو تمام قوله :

ألـذ من الماء الـزلال على الظما وأطـرف من مرّ الشمال ببغداد

قال القاضى الجرجانى فى « الوساطة » : جعل الشمال طرفة ببغداد وهى أكثر الرياح بها هبوباً ، وقد رواه بعض الرواة « أظرف » ولا أعرف معنى الظرف فى الريح » انتهى كلام الجرجانى .

وعابوا عليه قوله :

ورحب صدر لو ان الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد

قال فى الوساطة : « وهذا المعنى فاسد لأنه جعل البلاد انما تضيق بأهلها لضيق الأرض ، وانها لو اتسعت اتساع صدره لم تضق البلاد ونحن نعلم أن البلاد لم تخطط فى الأصل على قدر سعتها للأرض وضيقها ، وأن الأرض تتسع لبلاد كثيرة ، ولاتساع ما فيها من المدن ايضاً ، وهى على حالها وانما تؤسس وتبدأ على قدر الحاجة اليها ، فاذا استمر بها الزمان وكثرت العمارة وظهر فيها ما يستدعى الناس اليها ضاقت ، فان جاورتها فسح وعراص وسعت والاّ احتمل لها بعض الضيق فلو اتسعت الأرض حتى امتدت الى غير نهاية وأمكن ذلك لم تزد البلاد التى تنشأ فيها على مقاديرها » .

وقد خطّأه ابو هلال ايضاً فقال فى الصناعتين : « وذلك ان البلدان التى تضيق بأهلها لم تضق بأهلها لضيق الأرض ، ومن اختط البلدان لم يختطها على قدر ضيق الأرض وسعتها ، وانما اختطت على حسب الاتفاق ، ولعلّ المسكون منها يكون جزءاً من ألف جزء فلأىّ معنى تصييره ضيق البلدان الضيقة من أجل ضيق الأرض والصواب أن يقول : ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يسعها الفلك أو لضاقت عنها السماء ، أو يقول : لو ان سعة كل بلد كسعة صدره لم يضق عن أهله بلدُ والجيد فى هذا المعنى قول البحترى :

مفازة صدر لو تطرّق لم يكن ليسلكها فرداً سُليك المقانب

أى لم يسلكها الأ بدليل لسعتها على ان قوله « مفازة صدر » استعارة بعيدة انتهى قلت : سليك المقانب من العدّائين المشاهير ،

(١٧)

قال أبوتراب :

ويقتضينا الاستطراد أن نذكر أن ابن قتيبة قسم الشعر أربعة أضرب وكان عنده قول القائل :

يُغضِى حياء ويُغْضَى من مهابته فما يُكَلَّم الاّ حين يبتسم

من الضرب الأول وهو الذى حسن لفظه وجاد معناه ، اذ لم يقل فى الهيبة شيء أحسن منه ، ومما يذكر فى هذا الباب قول ذى الرمّة فى بلال ابن أبى بردة ابن ابى موسى الأشعرى

فما يعرفون الضحك الاّ تبسماً ولا ينبسون القول الاّ تناجيا
وما الفحش منه يرهبون ولا الخنا عليه ولكن هيبة هى ماهيا
فتى السن كهل الحلم يسمع قوله يوازن أدناه الجبال الرواسيا

وأورد ابن قتيبة قول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا

اذ لم يبتدىء احد مرثية أحسن من هذا . وذكرها القالى فى ذيل الأمالى والنوادر

وبعد البيت المذكور قوله :

ان الذى جمّع السماحة والنجدة والحزم والقُوى جُمَعا
الألمعىّ الذى يظن بك الظنّ كأن قد رأى وقد سمعا

وكقول أبى ذؤيب الهذلى :

والنفس راغبــة اذا رغبتها وإذا ترد الى قليــل تقنع

وهو من قصيدة له فى الذروة العليا من الشعر، وهـذا البيـت قال فيـه الأصمعى : انه أبرع بيت قالته العرب .

وكقول حميد بن ثور فى الكبر اذ لم يقل فيه أحسن منه :

أرى بصرى قد رابنى بعـد صحة وحسبـــك داء أن تصـــحّ وتسلما

قال ابن قتيبة : وضرب من الشعر حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى كقول القائل :

ولّما قضينـــا من منًـــى كل حاجة ومســـح بالأركان من هو ماسح

أخذنـا بأطـراف الأحاديــث بيننا وسالـت بأعنــاق المطــىّ الأباطح

قال : هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع واذا نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته : ولّما قطعنا أيام منى واستلمنا أركان البيت العتيق ومضى الناس ابتدأنا فى الحديث وسارت المطىّ فى الأبطح ، وهذا الصنف كثير فى الشعر .

وهذه الأبيات نسبها غير واحد لكثير عزة ، ونسبهـا الشريـف المرتضى للمضرّب فى الأمالى (ج ٢ ص ١١٠) وذكرها عبدالقاهر الجرجانى مثالا للشعر الذى سما به المعنى فى أسرار البلاغة (ص ١٥) وذكرها ابن جنى فى الخصائص (ج ١ ص ٢٢٥) مثالا للشعر الرائق لفظه البسيط معناه .

قال ابن قتيبة : ومنه ضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه كقول لبيد بن ربيعة

ماعاتــب المرء الكريــم كنفسه والمرء يصلحــه الجليس الصالح

هذا وان كان جيد المعنى والسبك فانه قليل الماء والرونق ، وكقول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

قال : وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الأعشى :

(إنّ محلاً وإنّ مرتحلاً وانّ فى السفر مامضى مَهَلا)

يعنى أن لنا محلا فى الدنيا ومرتحلا عنها الى الآخرة ، وأراد بالسفر من رحل من الدنيا ، يقول : فى رحيل من رحل ومضى مهل اى لا يرجع ، وهذا البيت من شواهد سيبويه لحذف خبر (انّ) لعلم السامع ، وبعده :

(والأرض حمّالة لما حمّل اللهّ وما إن تردّ ما فعلا)

وليس فيه شىء يستحسن الاقوله بعده :

(ياخير من يركب المطىّ ولا يشرب كأساً بكفّ من بخلا)

يريد أن كل شارب يشرب بكفه وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل ، وهو معنى لطيف

وكقول الخليل العروضى :

(ان الخليط تصدّع فطِرْ بدائك أو قَعْ)

وهو بينّ التكلف ، ردىء الصنعة ، كشعر الأصمعى وابن المقفع ، خلا خلف الأحمر فانه كان أجودهم طبعا ، وأكثرهم شعرا .

وقال الرشيد للمفضل الضبىّ : اذكر لى بيتا جيد المعنى يحتاج الى مقارعة الفكر فى استخراج خبيئه ، ثم دعنى وايّاه ؟ فقال له المفضل : أتعرف بيتا أوله أعرابىّ فى شملته ، هابّ من نومته ، كأنما صدر عن ركب جرى فى أجفانهم الوسن فركد ، يستفزّهم بعُنجهية البدو . وتعجرف الشدو ، وآخره مدنى رقيق ، قد غُذى

بماء العقيق ؟ قال : لا أعرفه ، قال : هو بيت جميل بن معمر :

(ألاَ أيها الركب النيام ألاَ هُبُّو) ثم أدركته رقة المشوق فقال : (أسائلكم هل يقتل الرجل الحبّ) قال : صدقت ، فهل تعرف أنت الآن بيتاً أوله أكثم بن صيفى فى أصالة الرأى ، ونبل العظة ، وآخره إبُقْراطُ فى معرفة الداء والدواء قال المفضل : قد هوّلت علىّ ، فليت شعرى بأىّ مهر تفترع العروس فى هذا الخدر قال : باصغائك وانصافك ، وهو قول الحسن بن هانىء :

(دع عنك لومى فان اللـوم إغراء وداونـى بالتـى كانـت هى الداء)

(١٨)

قال أبوتراب :

كنا بصدد الحديث عن صنائع الكتاب وأهل القلم ، وبدائع الشُعراء وأرباب القريض ، فى مستملح نظم هؤلاء ، وفى مستجاد نثر أولئك ومايحوى كل ذلك من جنىّ الثمر ، وفائح الزهر ، ومضى بنا القول الى ذكر مانَدَّ من أمثلة ذلك ، وشَرَد عن متناول أكثر أهل عصرنا من الطلاّب ، لعزوفهم عن استدرار هذه اللقاح ، وصدودهم عن تجشم المشاق ، فاذا ما أطعموا الثُدِىَّ إرضاعاً ، آثروا النوم على قَلْقَلَة الحصا ولعاب المحابر ، ولو كان المضاء طبيعتهم ، والرُجْلَة شأنَهم ، ورَفْض التنجيع دأبهم ، وهَجْر التوانى مذهبهم ، وإبعاد الكسل ديدنهم ، ومنافاة التَثَبُّط عزمهم ، ومباينة التَرْبيثِ اختيارهم ، لكان منهم اليوم فرسان اليراعة ، وأرباب البراعة والمبتدعون والمفلقون من الكتاب ، والمتمكنون من أزمّة البيان ، يَبْهرون بعباراتهم المهذبة ، واستعاراتهم المستعذبة ، ورسائلهم الموشحـة ، وأساجيعهـم المستمحلة ، لكنهم كالبُغاث وأنى له أن يستنسر ، وإنى لأرميهم بهذه الأوابد أستنهض هممهم ، وأجدّد لهم بتراث آبائهم الأولين عهداً ، وأستمطر لهم من

نوادره أسكوبا عسى أن يكون منهم ناشد واجد ، وملتمس على بغيته واقع ، وهذه رسالة عذراء لمنشئها الحريرى ، لا إخال أن أحدا من ابنائنا الميامين جرّب حظه لكى ينشىء مثلها ، أو ينسج على منوالها ، والبدعة فيها أن حروف إحدى كلمتيها يعمّها النقط ، وحروف الأخرى لم يُعْجمن قط ، فكلمة معجمة ، وكلمة مهملة ، وهكذا الى ان تتم الرسالة فهاكها حالية عاطلة :

« الكرمُ ـ ثَبَّتَ الله جيشَ سعودك ـ يزينُ ، واللؤمُ ـ غَضَّ الدهر جَفْنَ حسودك يشين ، والأرْوَعُ يُثيبُ ، والمُعْور يخيب ، والحُلاَ حل يُضيف ، والماحل يُخيف ، والسَّمْحُ يُغْذى ، والمَحِك يُقْذِى ، والعطاء يُنجى ، والمِطال يُشجى ، والوعاء يَسْقى ، والمدح يُنقى ، والحُرُّ يجزى ، والالْطَاطُ يخزى ، واطَّراح ذى الحُرمة غيٌّ ، ومَحْرَمة بنى الآمال بَغْيٌ ، وما ضَنَّ الاّ غَبين ، ولا غُبن الاّ ضنين ، ولا خَزَن الاّ شقى ، ولا قبض راحه تقى ، ومافتىء وعدك يفى ، وآراؤك تشفى ، وهلالك يضىء ، وحلمك يُغْضى ، وآلاؤك تغنى ، وأعداؤك تُثْنِى ، وحُسامك يُفْنى ، وسؤددك يُقْنى ، ومواصلك يَجْتنى ، ومادحك يَقْتنى ، وسماحك يُغيث ، وسماؤك تَغيث ، ودَرُّك يَفيض ، وردُّك يَغيض ، ومؤملك شيخ حكاه فَىْء ، ولم يبق له شىء ، أمَّك بظنٍّ حرصُه يَثِبُ ، ومَدَحك بِنُخَبٍ مهورُها تجِب ، ومرامه يَخِفُّ ، وأواصره تَشِفُّ ، وإطراؤه يُجتَذبُ ، وملامه يُجتَنبُ ، ووراءه ضَفَفٌ ، مَسَّهم شظف ، وحَصَّهم جنف ، وعمّهم قشف ، وهو فى دمع يجيب ، ووَلهٍ يذيب ، وهم تَضَيُّفَ ، وكمد نَيَّف ، لمأمول خَيَّب ، وإهمال شيَّب ، وعدوّ نَيَّبْ ، وهدوّ تغيَّب ، ولم يَزِغْ ودّه فيغضب ، ولا خَبُثَ عوده فيُقضب ، ولا نَفَث صدرُه فيُنفض ، ولا نَشَرَ وصلُه فيُبْغَضَ ، ومايقتضى كرمك نَبْذَ حُرَمه ، فَبيِّضْ أمَلَه بتخفيف ألمه ، يَنُثُّ حَمْدَك بين عالَمِه ، بقيتَ لاماطة شَجَبْ ، وإعطاء نَشَبْ ، ومداواة شَجَنْ ، ومراعاة يَفَنْ ، موصولاً بخَفْضٍ ، وسرور غَضٌّ ، ماغُشِّى مَعْهَدُ غَنِى ، أو خُشِّى وَهَم غَبِى » والسلام .

وليس فى هذه الرسالة مايستدعى التفسير اللهم الاّ كلمات وهانحن أولاء نفسرها : الأروع الماجد ، المعور القبيح ، الحلاحل السيد ، الماحل المكار ، المَحِك البخيل ، الالطاط كتمان الحق ، الضفف كثرة العيال ، ويقذى : يكدر ، ويُنقى : يطهر ، ويُغْضى : يتغافل ، وحَصَّهم : أذهبهم ، ونَيَّف : زاد ، ونَيَّبَ : حدَّد أنيابه ، وينثّ : ينشر ، هذا .

(١٩)

قال أبوتراب :

ومن صنائع الحريرى فى استنتاج الفكر ، واستثارة الخاطر انشاء كلام لايستحيل بالانعكاس ، فتقرأ عباراته طردا وردّاً ، دون أن يغيرها عكس حروفها ، كقولك : (ساكب كاس) ضرب هو مثلا به ، ويضرب الناس له مثلا بقولهم : (بلح تعلق بقلعة حلب) وكلاهما يُقرآن كما هما عكسا ، ولايحُدثان خللاً ، ومما قال فى ذلك مرة ثلاث كلمات ، وكأنها فى عقده جمانات : (لُمْ أخاً مَلَّ) ، ومن أربع ، (كبر رجاء أجر ربك) ، ومن خمس : (مَنْ يَرْبُ اذا بَرَّ يَنْمُ) ، ومِنْ ست : (سَكّتْ كلَّ من نَمَّ لك تكِسْ) أى تكن كيّساً ، وقال فى ذلك من سبع كلمات متتابعات : (لُذْ بكل مؤمَّل اذا لَمَّ ومَلَك بَذَل) ولَمَّ بمعنى جمع . ومن نظمه فى ذلك يقرأ كل بيت طرداً وعكسا ولايتغير مبنى ولامعنى قوله :

أُسْ أرملاً اذا عَرَا وارْعَ اذا المرء أسَا
أسْنِدْ أخَا نباهة أبِنْ إخاءً دَنَّسَا
أُسْلُ جنابَ غاشم مُشاغبٍ إن جَلَسَا
إسرِْ اذا هَبَّ مِراً وارْمِ به اذا رَسَا

أسْــكُنْ   تَقَــوَّ   فعَسَى   يُسْــعِفُ   وقــتُ   نَكَسَا

وأُسْ ، أى أعط ، وعَرَا ، أى أتَى وأسْلُ ، أى اترك ، والمِرَا هى الجَدَل قُصرت همزتُه للضرورة والأصل مراء ، وليس فى النظم شىء من الغريب ، وله رسالة فريدة ، وأُملوحة مفيدة ، تسمى القهقرية ، تقرأ من أولها الى آخرها بوجه ، ومن آخرها الى أولها بوجه آخر ، قال : هى رسالة أرضها سماؤها ، وصبحها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلّت فى لونين ، وصلّتْ الى جهتين ، وبَدَتْ ذاتَ وجهين ، إن بزغت من مشرقها فناهيك برونقها ، وان طلعت من مغربها فيالعجبها ، فيها مئتا لفظة تحتوى على أدب وعظة ، ونصها :

« الانسان صنيعة الاحسان ، وربّ الجميل فعل النَّدب ، وشيمة الحر ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر استثهار السعادة ، وعنوان الكرم تباشير البشر ، واستعمال المداراة ، يوجب المصافاة ، وعقد المحبة يقتضى النصح ، وصدق الحديث حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الألباب وشَرَك الهوى آفة النفوس ، ومَلَل الخلائق شين الخلائق ، وسوء الطمع يباين الورع ، والتزام الحزامة زمام السلامة ، وتطلب المثالب شر المعايب ، وتتبع العثرات يدحض المودّات ، وخلوص النية خلاصة العطية ، وتهيئة النوال ثَمَن السؤال ، وتكلّف الكُلَف يسهّل الخَلَف ، وتَيَقُّن المعونة يُسَنِّى المؤونة ، وفضل الصدر سعة الصدر ، وزينة الرعاة مَقْت السُّعاة ، وجزاء المدائح بَثُّ المنائح ، ومَهْر الوسائل تشفيع المسائل ، ومَجْلَبة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحدّ يُكِلُّ الحدّ ، وتعدّى الأدب يحُبط القُرَب ، وتناسى الحقوق ينشىء العقوق ، وتحاشى الرِيَب يرفع الرُتب ، وارتفاع الأخطار باقتحام الأخطار ، وتَنَوُّه الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال فى تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة تنقيح الحكمة ، ورأس الرياسة تهذُّب السياسة ، ومع اللجاجة تُلْغَى الحاجة ، وعند الأوجال تتفاضل الرجال ، وبتفاضل الهمم تتفاوت القيم ، وبتزيُّد السفير

يهِنُ التدبير ، وبخلل الأحوال تتبين الأهوال ، وبموجب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاق الاحماد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة كفاء المحافظة ، وصفاء الموالى بتعهّد الموالى ، وتحلىّ المُروآت بحفظ الأمانات ، واختبار الاخوان بتخفيف الأحزان ، ودفع الأعداء بكفّ الأودّاء ، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتبصرُ العواقب يُؤمِنُ المعاطب ، والقاء الشُنْعة ينشر السمعة وقبح الجفاء ينافى الوفاء وجوهر الأحرار عند الأسرار» انتهت الرسالة فاذا أردت أن تقرأها عكسا قلت : « الأسرار عند الأحرار وجوهر الوفاء ينافى الجفاء الى آخرها » .

(٢٠)

قال أبوتراب :

والعواطل هى العريّة عن النقط ، يقال : جيد عاطل أى خلىّ عن الحلى ، فالكلمات اذا لم يكن فيها حرف معجم ، وجميع تركيبها من الحروف المهملة فهى عواطل بهذا المعنى ، وفى المقامات منها أبيات هى :

أعْـدِدْ لحسّـادك حَدَّ السلاح ... وأورد الأمس ورد السماح
وصـادم اللهـو ووصـل المها ... وأعْمِـل الـكُوم وسُمْـر الرماح

ـ الكوم جمع الكوماء وهى الناقة العظيمة السنام ـ

واسـع لادراك محـل سما ... عمادُه ، لا لأدراع الرماح
والله ما السـؤدد حَسْـو الطِلا ... ولا مراد الحمـد رؤد رداح

ـ المراد المحل ، والرؤد الشابة الناعمة مستعار من الرؤد وهو الغصن الناعم الرطب ـ

واهـا لحـرّ واسـع صدره وهمُّـه ماسَرَّ أهـل الصلاح
مورده حلـو لسؤّاله ومالـه ماسألـوه مطاح
ما أسمـع العامـلَ ردّاً ولا ماطلـه والمطـل لؤم صراح
ولا أطـاع اللهـو لّما دعا ولا كساراحـاً له كأسَ راح
سؤدده إصلاحـه سرّه وردعـه أهـواءه والطماح
وحصّـل المدح له علمُه مامهـر العـور مهـور الصحاح

أما الكلمات المنقوطة وهى التى تتركب من الحروف المعجمة فيقـال لهـا العرائس على وجه التشبيه ، ونظم منها فى المقامات الأبيات التالية ليس فيها حرف مهمل :

فَتَنَتْنـى فجَنَّنَتْنـى تجنّى بتجـن يَفْتـن غِبَّ تجَنِ

(تجنى) فى المصراع الأول اسم امرأة ، وفى المصراع الثانى بمعنى الجناية

شَغَفَتْنـى بجَفـن ظبـىٍ غضيض غَنِـج يقتضى تَغَيُّض جفنى
غَشيَتْنـى بزينتين فشفَّتْـ ـنـى بزىّ يشفّ بـين تَثنىّ
فتَظَنَّيْـتُ تجتبينـى فتَجْزِينى بنفـث يشقـى فخيّـب ظنّى
ثَبَتَـتْ فى غش حبيـب بتزيين خبيـث يبغـى تَشَفِّـى ضِغْنٍ
فنـزَتْ فى تجَنُّبـى فتنثنى بنشيـج يُشجـى بفـنٍّ ففنٍّ

وأما الأخياف فهم فى الأصل الاخوة من أم وآباؤهم شتى ، والمراد بالكلمة عند أهل الصناعة ذوات الكلمتين إحداهما منقوطة والأخرى بغير نقط .

ومن نظمها فى المقامات قول صاحبها :

اسمـح فبـثُّ السماح زين ولا تخُـبْ أمـلاً تضيّفْ

ولا تجُـزْ ردَ ذى سؤال فَنَــنَ أم فى الســؤال خَفَفْ
ولا تظـنَّ الدهـور تُبقى مال ضنــين ولـو تقشّف
واحلـم فجفــن الــكرام يغضى وصدرهــم فى العطــاء نَفْنَفْ
ولا تخــن عهــد ذى وداد ثَبْــتٍ ولا تَبْــغِ ما تَزَيَّفْ

ولابد للمشتغل بصناعتى النظم والنثر من إجالة الذهن فى مثل هذه التركيبات التى نوردها شحذا له واعتصارا لعزاليه ثم تفكهاً بها مع سمار الأدب وأعضاد أنديته .

قال أبو تراب : وهاته المقدمات السالفة ان لم تكن ممّهدات ففيها لمح باصر من التوطئة ، وبصيص رامق من الأمور الثمانية التى تشتمل عليها التقدمة عادة عند القدامى بموجب أحكام إيسا غوجى ، حتى ان بعضهم أوصلها الى عشرة ، وكأنهم يتمون بها ميقات موسى .

(٢١)

قال أبوتراب :

ولا أدرى هل أحد من هؤلاء المشتغلين بالأدب قرع ظُنبوبه ، وألهب ألهوبه ، فى خلوة أو جلوة ، ليمتحن نفسه ، ويجرّب قلمه ، ويَشْحَذَ ذهنه ، ويؤلّل فكره فينشىء لنا رقشاء تضارع رقطاء الحريرى ، فَيَبْلُوَ شأوه أين يقع ، ويعلم دُرَّةَ ذاك كيف غاص عليها ، فكتب منذ نحو تسعمئة سنة رسالة أحد حروفها منقـوط والآخر بغير نقط ، قال فيها :

« أخلاقُ سيدنا تُحَبُّ ، وبِعَقْوَته يُلَبُّ ، وقربُه تحُف ، ونأيـهُ تَلَف ، وخُلّتـه نَسَب ، وقطيعته نَصَب ، وغَرْبُه ذَلِق ، وشُهبه تأتلق ، وظَلْفُه زان ، وقويم نهجه

بان ، وذهنه قلب وجَرَّبَ ، ونعته شرّق وغرّب .

سيـدٌ قُلَّبٌ سبـوقٌ مُبِرٌ فطـن مغـرب عزوف عيوف
مخلف متلف أغـر فر يد نابـه فاضـل ذكيّ أنوف
مُغلـق إن أبـان طب اذانا ب هيـاج وجـل خطـب مخوف

معاظم شرفه تأتلف ، وشؤبوب حبائه يكف ، ونائل يديه فاض ، وشح قلبه غاض ، وخِلْف سخائه يحْتلب ، وذهب عيابه يحْترب ، من لفَّ لَفَّه فلج وغلب ، وتاجر بابه جَلَب وخَلَب ، كفّ عن هضم برى ، وبرىء من دنس غوى ، وقرن ليانه بعز ، ونكّب عن مذهب كزّ ، ليس بوثاب عند نهزة شر ، بل يعفّ عفّة بّر .

فلـذا يحُـبّ ويُسْتَحَـقُّ عفافه شغفـا به فلُبابـه خلاّب
أخلاقـه غُرّ تَرِفّ وفُوقه فُوقٌ اذا ناضلتـه غلاّب
سُجُـحٌ يهش وذو تَلافٍ ان هفا خلّ فليس بحقـه يُرتاب
لا باخـلٌ بل باذلٌ خِرْقٌ اذا يُعْتَـرُ بَرْزٌ لايليـه باب
إنْ عَضَّ أَثْلٌ فَلَّ غَرْبَ عِضاضِه بمنابـه فَانْحَـتَّ منـه ناب

وجدير بمن لَبَّ وفطن ، وقرب وشطن ، أن أذعن لقريع زمن ، وجابر زَمَن ، مذ رضع ثدى لبانه ، خص بافاضة تهتانة ، نَعَشَ وفَرَّج ، وضافر فأبهج ، ونافر فأزعج ، وفاءً بحق أبلج ، أتعب من سَيَلى ِ ، وقَرَّظ إذْهُزَّ وبُلِى ِ ، وتَوَّج صفاتِه ، بحب عُفَاتِه .

فلا خلا ذا بهجة

يمتـد ظل خِصْبِه

فانـه بَرٌّ بمـن

آنس ضوء شُهبه

زان مزايـــا ظرفه

بلبس خوف ربّه

فليهن سيدنا فوزه بمفاخر تأثّلَتْ وجلَّتْ ، وفوْته بصنائع نَمتْ ونمَّتْ ، ويلائم قرب حضرته ، غوث رقّه ، بحظٍّ من حُظوته ، فانه تليد نَدْب وشريد جَدْب ، وجريح نُوَب أثّرت ، وناظم قلائد تسيرّت ، اذا جاش لخطبة فلا يوجد قائل ، ثُمَّ قس ثَمَّ باقل ، فان حَبَّر قلت حِبَرٌ نُمنِمَتْ ، وخلت رياضاً قد نَمتْ ، هذا ثم شربه بَرْضٌ ، وقوته قرض ، وفلقه غسق ، وجلبابه خَلَق ، وقد قلق لتوغر غريم غاشم ، يستحثه بحق لازم ، فان مَنَّ سيدنا بكفّه ، بهباتِ كفّه ، توشح بمجد فاق ، وباء بأجر فكّى من وثاق ، لا خَلَتْ سجايا خلقه ، ترفد شائم بَرْقه ، بمنّ ربّ أزلى ، حيّ أبدىّ »

وهذا تفسير مخزونه : بعقوته أى بفنائه ، يُلَبُّ أى يقام ، غربه أى حد سيفه ، ظَلْفه أى عفافه ، شؤبوب حبائه يكف أى مطر عطائه يقطر ، وخِلْف سخائه أى ضَرْع عطائه ، والعياب جمع عيبة وهى الوعاء ، يحترب أى يستلب ، الكز الانقباض ، الفوق ، فرجة فى رأس السهم وهى موضع الوتر ، سجح أى سهل الخلق ، خرق أى سخى ، يُعتر بَرْز أى يؤتى ظاهر ، أزلى أى جدب ، غرب عضاضه أى حده ، لَبَّ أى عقل ، شطن أى بعد ، قريع زمن أى سيد مختار ، جابر زمن أى جابر كسير ، التهتان الهطول ، تأثلت أى تأصلت ، فوته أى سبقه ، تليد ندب أى وليد كريم ، باقل يضرب به المثل فى العىّ ، حبر نمنمت أى ثياب نفيسة نقشت ، برض ، أى قليل ، شائم برقه أى راجى كرمه .

وكل كلمة من كلمات هذه الرسالة أحد حروفها معجم والآخر مهمل ، ولايتأتى ذلك الاّ بأعمال الفكر وإدامة النظر .

قال أبوتراب :

وفى السمرقندية خطبة عريّة من الاعجام وليست هى التى رواها الشيخ على المتقى فى كنز العمّال لعلى بن أبى طالب ، بل هى من انشاء الحريرى أوردها هنا للتدليل على الصنائع التى كانوا يصقلون بها مواهبهم ، وينمّون به ملكاتهم قال :

« الحمد لله الممدوح الأسماء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطاء ، المدعوّ لحسم اللأواء ، مالك الأمم ، ومصوّر الرِمم ، ومكرم أهل السماح والكرم ، ومُهلك عادٍ وإرَمْ ، أدرك كلَّ سرٍّ علمُه ، ووسع كل مُصِرٍّ حلمه ، وعَمَّ كل عالم طَوْلُه ، وهَدَّ كل مارد حوله ، أحمده حمد موحّد مُسْلم ، وأدعوه دعاء مؤمّل مُسَلّم ، وهو الله لا اله الا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا رِدْءَ معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للاسلام ممهّدا ، وللملّة موطّدا ، ولأدلّة الرسل مؤكّدا ، وللأسود والأحمر مسدّدا ، وصل الأرحام ، وعلّم الأحكام ، ووَسَم الحلال والحرام ، ورَسَم الاحلال والاحرام ، كرّم الله محلّه ، وكمّل الصلاة والسلام له ، ورحم آله الكرماء ، وأهله الرحماء ، ماهَمَر ركام ، وهَدَرَ حمام ، وسَرَح سوام ، وسطا حسام ، اعملوا رحمكم الله عمل الصلحاء ، واكدحوا لمعادكم كَدْح الأصحّاء ، واردعوا أهواءكم رَدْع الأعداء ، وأعِدُّوا للرحلة اعداد السعداء ، وادَّرِعُوا حُلَل الورع ، وداووا عِلل الطمع ، وسَوُّوا أَوَدَ العمل ، وعَاصُوا وساوس الأمل ، وصوّروا لأوهامكم حُوول الأحوال ، وحلول الأهوال ، ومساورة الأعلال ، ومصارمة المال والآل ، وادَّكروا الحِمام وسكرة مصرعه ، والرَّمْسَ وهول مُطَّلَعه ، واللحد ووحدة مُوْدَعِهِ ، والملك وروعة سؤاله ومطلعه ، والْمحُوا الدهر ولؤم كرّه ، وسوء محاله

ومكره ، كم طمس مَعْلَماً ، وأمَرَّ مَطْعما ، وطَحْطَح عَرَمْرَماً ، ودمر ملكا مكرما ، همه سَكُّ المسامع ، وسَحُّ المدامع ، وإكداء المطامع ، وإرداء المُسْمَعِ والسامع ، عَمَّ حكمه الملوك والرعاع ، والمسود والمطاع ، والمحسود والحساد ، والأساود والآساد . ما مَوَّل الآمال ، وعكس الآمال ، وماوصل الاّ وصال ، وكَلَم الأوصال ، ولا سَرَّ الأوساء ، ولَؤم وأساء ، ولا أصَحَّ الاّ ولَدَّ الداء ، ورَوَّع الأودّاء ، الله الله ، رعاكم الله ، إلام مداومة اللهو ، ومواصلة السهو ، وطول الاصرار ، وحمل الآصار ، واطراح كلام الحكماء ، ومعاصاة اله السماء ، أمَا الهرم حصادكم ، والمَدَر مهادكم ، أمَا الحِمام مُدرككم ، والصراط مسلككم ، أمَا الساعة موعدكم ، والساهرة موردكم ، أمَا أهوال الطامّة لكم مرصدة ، أما دار العُصاة الحطمة المؤصدة ، حارسهم مالك ، ورُوَاؤُهم حالك ، وطعامهم السموم ، وهواؤهم السَّموم ، لا مال أسعدهم ولا ولد ، ولا عَدد حماهم ولا عُدد ، ألا رحم اللهِ امرأ ملك هواه ، وأمَّ مسالك هداه ، وأحكم طاعة مولاه ، وكدّ وكدح لروح مأواه ، وعمل مادام العمر مطاوعا ، والدهر موادعاً ، والصحة كاملة ، والسلامة حاصلة ، وإلاّ دَهَمه عدم المرام ، وحصر الكلام ، وإلمام الآلام ، وحُموم الحمام ، وهدوّ الحواس ، ومراس الأرماس ، آهاً لها حسرةً ألمها مؤكد ، وأمدها سَرْمَد ، ومُمارسها مُكْمد ، مالوهه حاسم ، ولا لندمه راحم ، ولا له ممّا عراه عاصم ، ألهمكم الله أحمد الالهام ، ورَدَّاكم رداء الاكرام ، وأحلّكم دار السلام ، وأسأله الرحمة لكم ولأهل ملّة الاسلام ، وهو أسمح الكرام والمُسَلِّم والسلام »

وليس فى هذه الخطبة حروف منقوطة الاّ ماجاء من تاءات التأنيث التى تكون فى حالة الوقف هاءات ، وجاز ذلك عند المنشىء لأنها طوارىء على الكلمة ، وأصل الكلمة ليس فيه اعجام ، وهى عليها داخلة فلا تعطى حكم الأصالة .

قال أبوتراب : ومن الصنائع الشعرية التضمين وهو أنواع . وبينها فروق ومن أمثلة التضمين والايداع ، المسبوكة فى قوالب الابداع قول مجيرالدين ابن تميم مضمّنا مصراع بيت المتنبى المشهور :

وكذا الكريـم اذا أقـام ببلدة	**سال النضـار بهـا وقـام الماء**

فقال يصف نافورة وبركة :

لو كنـت مذ أبصرتهـا فوارة	**للشـمس فى أفواههـا لألاء**
لرأيـت أعجَـب مايـرى من بركة	**سال النضـار بهـا وقـام الماء**

ولصفى الدين الحلىّ مضمّنا مصاريع أبيات من معلّقة امرىء القيس :

رأى فرسى اصطبل عيسى فقال لى	**قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل**
به لم أذق طعـم الشعـير كأننى	**بسقط اللوى بين الدخول فحومل**
تقعقـع من برد الشتـاء أضالعى	**لما نسجتهـا من جنـوب وشمأل**
اذا سمع السواس صوت تحمحمى	**يقولـون لا تهلك أسًى وتجمّل**

أعـول فى وقـت العليق عليهمو وهل عنـد رسـم دارس من معوّل

وقال عبد القاهر التميمى :

اذا ضاق صدرى وخفـت العدا تمثلـت بيتـا بحـالى يليق
فباللّــه أبلــغ ما أرتجى وباللّــه أدفــع مالا أطيق

وقال ابن العميد :

كأنــه كان مطــويا على إحن ولـم يكن فى قديم الدهـر انشدنى
ان الــكرام اذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهـم فى المنـزل الخشن

ولبعضهم :

كنّــا معــاً أمس فى بؤس نكابده والعين والقلـب منّـا فى قذىً وأذى
والآن أقبلــت الــدنيا عليك بما تهـوى فلاتَنْسَنـى ِ انّ الـكرام اذا

وقال الشيخ اسماعيل الكبير جد الشيخ عبد الغنى النابلسى من قصيدة أرسلها الى شيخ الاسلام خوجه أفندى فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٩١ هـ يمدحه بها ويشكو بعض حال دمشق الشام :

تعـدّى علينـا واستطـال فلـم يدع فؤاد امـرىء الاّ من الخـوف يخفق
وأنشدتــه فى حالــة الأسر والبلا وشـدة ما ألقــاه ممــا يضيق
سلـوا أم عمـرو كيف بات أسيرها تُفَـكُ الأسـارى دونـه وهـو موثق
فلا هو مقتـول ففـى القتـل راحة ولا هـو ممنــون عليه فيُعتق

وهى قصيدة طويلة ومطلعها قوله :

ترفّـق بقلـب من تجنّيك يخفق وإنسـان عـين كاد بالدمـع يغرق

أما قول الصفى الحلىّ :

اذا رآه الأعــادى قال حازمهم   حتام نحن نسارى النجم فى الظُلَم

فقد ضمّنه المصراع الأول من قصيدة لأبى الطيب المتنبى وهو :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم   ومــا سراه على خف ولا قدم

وأمّا بيت الشيخ عز الدين الموصلى :

إيداعه الفضل فى الأصحاب شرفهــم   بين الرجـال وان كانوا ذوى رحم

فقد أودع بيته شطر بيت من قصيدة للمتنبى وهو :

ولـم تزل قلــة الانصــاف قاطعة   بـين الرجـال وان كانـوا ذوى رحم

وأما بيت ابن حَجة الحموى :

وُأودعـوا للثـرى أجسادهـم فشكت   شكوى الجريح الى العقبان والرخم

فقد ضمّنِه شطر بيت للمتنبى وهو :

ولاَ تَشــكَ الى خلــق فتُشمتَه   شكوى الجريح الى العقبان والرخم

وبعد البيت :

وكن على حذر للنــاس تستره   ولا يغــرك منهــم ثغــر مبتسم

غاض الوفــاء فما تلقــاه فى عدة   وأعوز الصدق فى الاخبـار والقسم

ويروى « الغربان » بدل « العقبان » ومعنى البيت : لا تشك الى أحد ما ينزل بساحتك من ضر وشدة فتشمته بشكواك فتكون شكواك شكوى الجريح الى الطير التى ترقب ان يموت فتأكله .

قال التبريزى : بعضهم اعداء بعض فمن شكا حاله اليهم فهو كمثـل جريح اجتمعت عليه الطير لتأكل لحمه ، فهو يشكو الى من ليس عنده رحمة ، لأن الغربان جمع غراب والرخم جمع رخمة طائر وهو من الجوارح الخسيسة انما يجتمعان حول الجريح لتأكل لحمه .

قال ابو تراب :

وقرأت فى سلك الدرر فى ترجمة عبدالفتاح بن مغيزل الدمشقى قول الشيخ مصطفى الحموى نزيل دمشق مضمنّا :

يؤمنننى العـذول على تلاقى — بمـن من لحظـه لى را ش سهما
رويدك كيف اسمع منـك عذلا — (ولى أذن عن الفحشـاء صما)

وقد ترجم عنه شيخنا الراوية المؤرخ محمد زبارة فى نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف ، لأن الشيخ مصطفى الحموى الشامى نزل باليمن واصله من حماة ، وهو أديب بارع ، وأبوه الشيخ فتح الله الشامى ، وقد رحل الى مكة فاستوطنها ومن مشائخه ابراهيم الكورانى ، وشاهين الأرمناوى ، والبابلى والنخلى ، والشهاب البشيشى ، والعجمى والثعالبى ، والبصرى والشبراملسى والمزاحى والشلبى من أكابر علماء عصره بالحجاز والشام .

وترجمه السيد ابراهيم الحوثى فى نفحات العنبر وكان عالماً مؤرخا وقد تفنن الشعراء فى تضمين قوله : (ولى أذن عن الفحشاء صماّ) فمن تلك التضامين قول الشيخ سعيد السماّن :

دعونى والغـرام ولا تطيلوا — ملامـاً يقصـم الحجـر الأصماّ
فلى قلـب عليه مستقيم — (ولى أذن عن الفحشـاء صماّ)

وتضمين الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المنينى بقوله :

لحانى العاذلـون وعنّفونى — فولّـت عنهـم الأسماع صُماً
ولـم أسمـع مقالتهـم بلوم — (ولى أذن عن الفحشـاء صَماّ)

وقول الشيخ عبد الفتاح بن مغيزل الدمشقى :

لقد زار الخليل بجنح ليل فأوسعت المعاطف منه ضَماً
ولام العاذلون فقلت كفّوا (فلى أذن عن الفحشاء صَمًا)

وقال الشيخ أحمد العمرى :

وشمس فى يَدَىْ قمر تبدّت يطوف بها كبدر اليّم ألْمَى

الى ان قال :

وأستمع المثانى لا أبالى بواشٍ أوسع الأسماع سقما
وانى والهوى والشطح قسمى (ولى أذن عن الفحشاء صَماً)

وقال حامد العمادى المفتى :

اذا زار الحبيب بغير وعد وأطفأ جمرة الأشواق لثما
يذكرنى جفاه حين وافى (ولى أذن عن الفحشاء صَماً)

وقال السيد حسين بن عبد الرحمن السرمينى :

وأحدب يسترق القول عنى ويقصدنى لكى يزداد إثما
ولى عين تكف الطرف عنه (ولى أذن عن الفحشاء صَماً)

وقال الغزى العامرى :

حبيبى قد حبانى ضِدَّ صَدّ وضيم البين ابدلنيه ضَماً
عصيت بحبه قول اللواحى (ولى أذن عن الفحشاء صَماً)

وقد تفننوا ايضاً فى تضمين قوله : (من عادة الكافور إمساك الدم) فمن ذلك قول صادق الخراط :

ودعته وبكيت عند فراقه بمدامع تحكى عصارة عَنْدَم

وأتــت بشائــر قربـــه فى رقعة بيضـــاء ذات تلــطف وتكرم
فوضعتهـــا فوق العيون فأمسكت من عادة الكافــور إمســاك الدم

والعندم نبت عصارته حمراء كالتوت ، يقال له : دم الأخوين ويعرف بالبَقّم ، والتضامين فى هذا الشطر كثيرة ، وقد ألّف فيها الكمال الغزّى العامرى رسالة سماها : « لمعة النور ، بتضمين (من عادة الكافور) » أكثر فيها من التضامين لهذا المصراع ، ومن ذلك قول الشيخ عبد الغنى النابلسى ، والشيخ عبد الرحمن بن عبد الرزاق ، وعبد الحى الخال ، وقد أجاد فى ذلك ، وسنعرض لبعض هذا ان شاء الله تعالى .

(٢٤)

الفقى وكلمة « النبط »

قال ابو تراب :

ذكر لى أن بعضهم استحسن تسمية شعر أهل البادية الذى يدخله اللحن وهو موزون مقفى بالشعر البدوى ، وزعم ان تسميته بالشعر النبطى لا أصل لها . وسألنى ماذا تعنى كلمة (النَّبطَ) ؟ وكان فى المجلس الشاعر المُفْلـق المُبـدع البارع المؤّرج الاستاذ محمد حسن فقى فقال : الظاهر أنهم عرب البادية والأنباط منهم ، قلت : نعم ، هم أخلاط من العرب ، عملهم الفلاحة ، ومساكنهم مضارب البدو لا ينتمون الى قبيلة معينة ، فكل شعر جاء على غير نهج الفصحى نسب الى هذه اللفظة لأنها تعنى الظهور بعد الخفاء فى أصل الاشتقاق ، ثم أطلقت على ما لا يدرك غوره وقدره وعلمه ، وكذلك الشعر الذى لا يتقيد بالقواعد مختلط لا يكتنه كنهه فالظاهر عندى ان الكلمة أطلقـت على هذا المسمـى من هذه الجهة ، ثم أردت أن أكتب مادار بيننا للقراء فراجعت فاذا « معجم الوسيط »

الذى أخرجه مجمع اللغة العربية يقول ما قلنا ، ويدور حول ما درنا ، قال :

الأنباط قوم من الساميين يرجعون الى أصلين : احدهما آرامى والآخر عربى . كانت لهم دولة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وسقطت فى اوائل القرن الثانى بعد الميلاد ، وامتدت أملاكهم من الجزء الجنوبى الشرقى من فلسطين الى رأس خليج العقبة ، وكانت عاصمتهم سَلْع أى الصخرة ، وهى التى سماها اليونان (بطرة) وسموا البلاد كلها (أريبابطرا) أى بلاد العرب الصخرية .

قال : والأنباط ايضاً : المشتغلون بالزراعة .

ثم قال : واستعمل الأنباط أخيراً فى أخلاط الناس من غير العرب ، قال : وكلمة نبطية أى عامية ، قلت : فالرأى الذى ذهبنا اليه هو هذا ، فالنبط يطلق على الأخلاط والعامة من الناس وأهل البادية هم عوام الناس المختلطون ، فالشعر النبطى يعنى الشعر العامى المختلط بين التقيد بالوزن الشعرى ، والقافية ، وبين التفلت من الاعراب وتصريف الصيغ ،

وقال الشيخ احمد رضا فى « معجم متن اللغة » ومنه قيل : تَنَبَّط الرجل أى تَشَبَّه بالنَّبَط فى سكنى البلاد واتخاذ العقار والملك فيها ، وتَنَبَّط الرجل أى انتمى وانتسب الى النَّبَط . وكذلك استَنْبَط الرجل أى صار نبطيا ، وتَشَبَّه بالنبط ، والنَّبَط جيل من الناس كانوا ينزلون القطائعَ بين العراقين أو سواد العراق وهم الأنباط ، واحدهم نَبَطى ونَباطى (مثلثة) وإنباطى ونَبَاطٍ (كيمنى ويمانى ويمانٍ) وكان لهم فى قديم الزمن دولة ومدنية .

قال : ثم استعمل هذا اللفظ فى أخلاط الناس وعوامهم ، قلت : وهذا هو الذى عنيناه واليه رمينا وبه قلنا ، فالشعر النبطى شعر عامى مختلط جاءت تسميته بذلك من هذا الوجه من الاطلاق .

وفى « محيط المحيط » للبستانى : النَّبطَ جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقين ، قيل : سموا بذلك لكثرة النَّبط عندهم وهو الماء وانما سمى أولاد شيث

أنباطاً لأنهم نزلوا هناك ، قال : هذا أصله ثم استعمل هذا اللفظ فى أخلاط الناس وعوامهم ، ومنه قيل : كلمة نبطية أى عامية ، ويقال لهم أيضاً : نبيط .

وفى كلام أيوب بن القرّية قال : أهل عمان عرب استنبطوا وأهل البحرين نَبَط استعربوا .

وقلت : ومادة هذه الكلمة قرآنية فصيحة ، وليس هذا موضع ذكر معانيها بالاستيعاب ، وانما أشرنا الى اشتقاقها وأصلها آنفاً .

وفى « أساس البلاغة » للزمخشرى : قال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بُقَيْلَةَ أعرب أنتم أم نبيط ؟ فقال : عرب استنبطنا ، ونبيط استعربنا ، ومنه قول أبى العلاء المعّرى :

أين امرؤ القيس والعذارى إذْ مال من تحته الغبيطُ
استنبط العُرْب فى المَوامى بعدك واستعرب النَّبيطُ

(٢٥)

قال ابو تراب :

نسب صاحب تذكرة الكاتب الى الفرزدق فى الحسين بن على بن أبى طالب

(يكاد يمسكه عرفانَ راحته ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

والمشهور أنه من قصيدة للفرزدق قالها فى مدح زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وليس كذلك ، ففى الشعر والشعراء لابن قتيبة (ج ١ ص ٩) : ذكر من الشعر الذى حسن لفظه ، وجاد معناه من قول القائل فى بعض بنى أمية :

(فى كفـه خيزران ريحـه عبق　　من كف أروع فى عرنينـه شمم
(يغضى حياء ويغضى من مهابته　　فما يكلـم الاّ حـين يبتسم)

قال : ولم يقل فى الهيبة شيء أحسن منه . وذكر الشيخ احمد محمد شاكر فى شرحه : أنهما للحزين الكنانى من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان وزعم ابو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى ج ٤ ص ١٦٧) أنهما له فى مدح زين العابدين ، وزعم غـيره أنهما من أبيات للفـرزدق فى مدح زين العابدين قال أبو الفرج فى الأغانى (ج ١٤ ص ٧٤) وهو غلط ممن رواه فيها ، وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل على بن الحسين . وله من الفضل المتعالم ماليس لأحد ، والصحيح أنهما للحزين فى عبد الله بن عبد الملك ، وقد غلط ابن عائشة فى إدخاله البيتين فى تلك الأبيات وأبيات الحزين مؤتلفة منتظمة المعانى ، متشابهة تنبىء عن نفسها ، ثم ساق أبيات الحزين ، والبيتان ايضاً ضمن أبياته فى المؤتلف (ص ٨٨) .

قلت : وفى شرح الحماسة للمرزوقى (ج ٤ ص ٧٠٨) : أنها للفرزدق فى على بن الحسين ، فالتبريزى شارحها نسبها الى الحزين الليثـى ، والمرزوقـى نسبها الى الفرزدق . وقال التبريزى : يقال : انها للفرزدق قالها حين قال الشامى لهشام بن عبد الملك من هذا الذى أعظمه الناس ؟ وفرجوا له عن استلام الحجر الأسود فقال : لا أدرى ، فقال الفرزدق : لكننى أعرفه فقال الشامى : من هذا يا أبا فراس ؟ فقال :

(هذا الذى تعرف البطحـاء وطأته　　والبيت يعرفـه والحـل والحرم
(اذا رأتـه قريش قال قائلها　　الى مكارم هذا ينتهـى الكرم)
(أى القبائـل ليسـت فى رقابهمو　　لأولية هذا أولـه نعم)

الى آخر الأبيات السابقة . وبعدها نحو أربعة وعشرين بيتاً فى زهر الآداب

للحصرى (ج ١ ص ٦٥) . ونسبت الأبيات الى الفرزدق فى على بن الحسين فى كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى ، وأمالى المرتضى ، ونسبت للمنقرى فى العمدة ايضاً . ولكثير بن كثير السهمى فى محمد بن على بن الحسين كما فى المؤتلف (ص ١٦٩) ونسبت ايضا فى قثم بن العباس الى داوود بن سلم عند ابن رشيق ، وسكت الجاحظ فى الحيوان (ج ٣ ص ١٣٣) والبيان والتبين (ج ١ ص ٣٧٠ وج ٣ ص ٤) وابن قتيبة فى عيون الأخبار (ج ١ ص ٢٩٤) عن نسبتها . وهذا مثل ظاهر لكثرة الاختلاف فى الشعر . وفى زهر الآداب قال : حج هشام بن عبد الملك أو الوليد أخوه فطاف بالبيت وأراد استلام الحجر فلم يقدر فنصب له منبر فجلس عليه . فبينا هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين بن على بن أبى طالب فى إزار ورداء وكان أحسن الناس وجهاً ، وأعطرهم رائحة وأكثرهم خشوعا ، وبين عينيه سجادة كأنها ركبة عنز . فطاف بالبيت وأتى ليستلم الحجر فتنحى له الناس هيبة وإجلالاً . فغاظ ذلك هشاما فقال رجل من أهل الشام : من الذى أكرمه الناس هذا الاكرام ؟ وأعظموه هذا الاعظام فقال هشام : لا أعرفه ـ لئلاً يعظم فى صدور أهل الشام ـ فقال الفرزدق وكان حاضراً قصيدته المذكورة . وفيها :

ينجاب نور الهدى عن نور غُرّته	**كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم**
(هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	**بجده انبياء الله قد خُتموا)**
(سهل الخليقة لا تخشى بوادره	**تزينه الاثنتان الحلم والكرم)**

قلت : ويظهر أن أبيات الحزين الكنانى فى عبد الله بن عبد الملك وهو أمير على مصر اختلطت بغيرها فنسبت الى هذا وذاك . وفى أخبار مكة للفاكهى أنها للفرزدق فى على بن عبد الله بن جعفر وقيل : فى محمد بن على بن الحسين قال ابن عبد البر فى البهجة (ج ١ ص ٥١١) : قول من قال هذا أصح عندى

من قول من قال إنها فى على بن الحسين لأنه توفى سنة ثلاث أو أربع وتسعين وهشام ولى الخلافة سنة خمس ومئة ، وجائز ان يكون الشعر للحزين فى محمد بن على بن الحسين وللفرزدق فيه وان كان له فى أبيه فلم يكن هشام يومئذ خليفة وأما قول الزبير انه فى قثم فليس بشىء وانما قيل فيه على قافيته وليس هو هذا .

(٢٦)

قال ابو تراب :

أنشد الامام الجوهرى فى مادة (سلع) قول الشاعر :

أجاعــل أنــت بيقــوراً مُسَلَّعَةً ذريعــةً لك بــين اللــه والمطر

وقال المجد : ان فى البيت تسعة أغلاَط ، ولم يبينها لا هـو ولا شارحـه وتعرّض لها أحمد تيمور فى المختارات وأوهم كأنه هو الذى تتبعها وليس كذلك كما سنبينّ واليك بيانها :

(الأول) إدخال الهمزة على غير محل الانكار ، وهو « جاعل » والواجب إدخالها على « مُسَلَّعة » لأنها محل الانكار نحو : « أفغير دين اللـه يبغـون » (الثانى) تقديم المسند وهو « جاعل » على المسند اليه وهو « أنت » وهو خلاف الأصل ، فلا يرتكب الاّ لسبب ، وكان الواجب تقديم « مسلعة » وإدخال الهمزة عليها ، وترك التقديم بأن يقال : « أمسلعة أنت جاعل ذريعة » .

(الثالث) أن ترتيب البيت على ما قبله يقتضى انه قصد الالتفات من الغيبة الى الخطاب قطعاً ، وانه بعد أن حكى حالهم الشائعة التفت الى خطابهم ومواجهتهم بالتوبيخ حتى كأنهم حاضرون يستمعون ، وحينئذ يكون قد أخطأ فى إيراد أحد اللفظين بالجمع والآخر بالافراد ، ولاشك أن شرط الالتفات الاتحاد ،

وقبل البيت المذكور قوله :

لادَرَّ دَرُّ أنـــاس خاب سعيهم ... يستمطرون لدى الأزمـات بالعُشر

وكانت العرب فى الجاهلية الأولى اذا احتبس عنهم المطر يجمعون البقر، ويعقدون فى أذنابها وعراقيبها « السَّلَع والعُشرَ » وهما نباتان ، ويصعدونها فى الجبل الوعر ، ويشعلون فيها النار ، وكانوا يسمونها « نار الاستمطار » وهى من نيران العرب الاثنتى عشرة الشهيرات ، وكانوا يزعمون أن ما يفعلـون من أسبـاب المطر ، وذكرها أمية بن أبى الصلت فى شعره فقال :

سَنَــةَ أزمــة تخيل بالنا ... س ترى للعِضــاه فيهــا صريرا

لا على كوكب ينــوء ولا ... ريح جنــوبِ ولا تــرى طمخرورا

ويسوقــون باقــر السهــل للطَّوْ ... دمهــازيل خشية أن تبورا

عاقــدين النــيران فى ثكن الأذ ... ناب منهــا لكى تهيج البحورا

سلــع ما ومثلــه عشر ما ... عائــل ما وعالــت البيقورا

أى أن السنة المجدبة أثقلت البقر بما حملت من السلع والعشر .

قال الجوهرى : وانما كانوا يفعلون ذلك فى السنة الجدبة ، فيعمدون الى البقر فيعقدون فى أذنابها السلع والعشر ، ثم يضرمون فيها النار وهم يصعدونهـا فى الجبل هذا ورجع الكلام الى تعداد أغلاط البيت الذى كنا بصدده فنقول :

(الرابع) أن الجاعلين الذين حكى عنهم فى البيت الأول هم العرب فى الجاهلية ، فلا وجه لتخصيص واحد منهم بالانكار عليه دون البقية ، ولا يقال هذا الوجه داخل فى الذى قبله ، لأنّا نقول هذا وارد بقطع النظر عن كون الكلام التفاتاً أو غير التفات من حيث انه نسب أمراً الى جماعة ثم خص واحداً منهم بالانكار من غير التفات الى الالتفات أصلاً .

(الخامس) تنكير المسند ، اذ لا وجه له مع تقدم العهد ، اذ قد علم أن مراده بالجاعل هم الأناس المذكورون فى البيت الأول فكان حق الكلام أن يقال : « أمسلعة أنتم الجاعلون » .

(السادس) البيقور اسم جمع كما فى القاموس ، واسم الجمع وان كان يذكر ويؤنث ـ لكن قال الرضى فى بحث العدد ما محصّله : ان اسم الجمع ان كان مختصا بجمع المذكر كالرهط والنفر بمعنى الرجال فيعطى حكم المذكر فى التذكير فيقال : « تسعة رهط » لا « تسع » كما يقال : « تسعة رجال » لا « تسع » وان كان مؤنثا فيعطى حكم جمع الاناث نحو « ثلاث مخاض » لأنها بمعنى حوامل النوق ، وان كان احتملهما كالخيل والابل لأنها تقع على الذكور والاناث فان خصصت على أحد المحتملين فان الاعتبار بذلك النص انتهى ، فقد صرح بأنها اذا استعملت مراداً بها الذكور تعطى حكم الذكور ، وقد نص صاحب القاموس وغيره على أنهم كانوا يعلقون السلع على الثيران فبهذا الاعتبار لايجوز وصف البيقور بالمسلعة .

(السابع) : إيراد « المسلعة » صفة جارية على موصوف مذكر ، والذى يظهر من عبارة صاحب الصحاح : انها اسم للبقرة المعلّق عليها السلع للاستمطار ، لا صفة محضة ، حيث قال : ومنه المسلعة الخ ولم يقل : ومنه البقرة المسلعة . وقال السيوطى فى شرح شواهد المغنى نقلا عن ائمة اللغة : ان المسلعة ثيران وحش علق فيها السلع فحينئذ لا يجرى على موصوف ، كما أن لفظ « الركب » اسم لركبان الابل مشتق من الركوب ، ولم يستعمل جارياً على موصوف فلا يقال : جاءتنى رجال ركب ، بل جاءنى ركب .

(الثامن) أن المنصوص عليه فى كتب اللغة أن الذريعة بمعنى الوسيلة لا غير ، وأن الوسيلة مستعملة فى التعدية « بالى » ، فاستعمال الذريعة فيها بدون « إلى » مع لفظ « بين » مخالف لوضعها واستعمالها المنصوص عليه ، وأما

« اللام » فى « لك » فأنها للاختصاص فلا دخل لها فى التعـدية كما يقـال : أرسلت هذا الكتاب تحفة لك .

(التاسع) قوله : « بين الله والمطر » لا معنى له ، والصواب « بينك وبين الله لأجل المطر » وذلك لأنهم كانوا يشعلون النار فى السَّلَع والعُشَر المُعَلَّقة فى الثيران ليرحمها الله تعالى وينزل المطر. انتهى محصل ما ذكروه من تلك الأغلاط . قال احمد تيمور وظاهر أنها أو معظمها ليس من الغلط فى شيء .

قال ابو تراب : ذكر السيوطى فى شرح شَواهد المغنى أن البيت لأمية ابن أبى الصلت ، وكذا أورده ابو على القمى فى كتاب الأمثال ، وقال : السلع نبت مرّ كان أهل الجاهلية اذا أسنتوا علقوه مع العشر بثيران الوحش وحدروها من الجبال ، وأشعلوا فى ذلك السلع والعشر ناراً يستمطرون بذلك . وفى استسقائهم فى هذا الفعل قال شاعر العرب ذلك .

قال ابو تراب : وفى شرح الزبيدى أن البيتين لو داك الطائى ، وقيل : كانوا يوقرون ظهورها من حطبها ثم يلقحون النار فيها يستمطرون بلهب النار المشبه بسنا البرق ، ثم رأيت العلاّمة الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادى قد تكلم على البيت الذى أنشده الجوهرى فى شرح شواهد المغنى . وقال صاحب القاموس : وفى البيت الذى استشهد به ـ وهو قول وداك الطائى ـ تسعة أغلاط قال الزبيدى : قال شيخنا : هو بيت مشهور استدل به أعلام اللغة والنحو وغيرهم ، ونبهوا على أغلاطه كما فى شروح المغنى ، وشروح شواهده .

وشرح أبيات مغنى اللبيب الذى صنفه عبد القادر بن عمر البغدادى طبع بدمشق بتحقيق عبد العزيز رباح واحمد يوسف دقاق ، وله ثلاث نسخ احداها فى أيا صوفيا بالقسطنطينة وثانيتها فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة وثالثتها فى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وهو يشتمل على ستة وأربعين وتسعمئة بيت نحوى مشروح مما استشهد به ابن هشام الأنصارى فى المغنى والمراجع التى

اعتمد عليها البغدادى فى شرحه هذا هى المصادر المعتمد عليها عنده فى شرح شواهد الكافية ، وشرح شواهد المغنى للسيوطى أقدم منه الاّ أنه أسقط منها سبعة وستين بيتاً ، ومال الى الاختصار . وتوفى البغدادى سنة ١٠٩٣هـ ، وأتم تأليفه قبل موته بسنتين ، واستغرق فى الوقت تسعة عشر شهراً ، وهو معروف بسعة الاطلاع وغزارة المادة واستحضار الأمثال والشواهد .

(٢٧)

قال ابو تراب :

ذكرنا من نيران العرب الاثنتى عشرة نار الاستمطار فاستدعى الاستطراد استيفاءها ، فمنها : (نار القرى) وهى نار كانت توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل ، قالوا : وأول من أوقدها بالمزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة قصى بن كلاب .

ومنها (نار التحالف) كانوا اذا أرادو الحلف أوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم عندها ، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحلّ العقد .

و (نار الطرد) كانوا يوقدونها خلف من يمضى ولا يشتهون رجوعه .

و (نار الأهبة للحرب) كانوا اذا أرادوا حرباً وتوقعوا جيشا أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر فيأتوهم .

و (نار الصيد) وهى نار كانت توقد للظباء لتَعشَى اذا نظرت ، ويطلب بها ايضاً بيض النعام .

و (نار الأسد) وهى نار كانوا يوقدونها اذا خافوه ، وهو اذا رأى النار استهالها فشغلته عن السابلة ، وقال بعضهم : اذا رأى الأسد النار حدث له فكر يصدّه

عن ارادته ، والضفدع اذا رأى النار تحيرّ وترك النقيق .

ومنها (نار السليم) كانت توقد للملدوغ اذا سهِر ، وللمجروح اذا نزف ، وللمضروب بالسياط ، ولمن عضّه الكلب الكَلِب ، لئلا يناموا فيشتد بهم الأمر ، ويؤدّى الى الهلاك .

و (نار الفداء) وذلك أن الأقيال اذا سبوا القبيلة خرجت اليهم السادة للفداء فكرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن وفى الظلمة يخفى قدر ما يَحْبسُون لأنفسهم فيوقدون النار ليُعْرَضْنَ .

و (نار الوَسْم) قرّب بعض العرب اللصوص ابلاً للبيع فقيل : ما نارك ؟ وكان أغار عليها من كل وجه ، وانما سألوه عن ذلك لأنهم يعرفون ميسم كل قوم وكَرمَ إبلهم من لؤمها فقال :

تسألنـى الباعـةُ أين نارها إذ زَعْزَعَتْهـا فسَمَـتْ أبصارها
كل نِجـارِ إبـلٍ نِجـارها وكل نار العَـالمين نـارها

ومنها (نار الحرّتين) كانت فى بلاد عَبْس فاذا كان الليل فهى نار تسطع ، وفى النهار دخان يرتفع ، وربما بدر منها عنق فأحرق من مَرَّ بها ، فحفر لها خالد بن سنان فدفنها ، فكانت معجزة . وهو مترجم عنه فى « الإصابة » .

و (نار السَّعالى) وهى شىء كان يراه المتغرّب والمتقفّر قال ابو المضراب عبيد بن ايوب :

ولله دَر الغـوال أىّ رفيقه لصاحـب دَوٍ خائف متقفّر
أرَنَّتْ بلحـن بعـد لحـن وأوقدت حَوَالَىَّ نيرانـاً تبـوخ وتزهر

وأما (نار الحباحب) فكل نار لا أصل لها مثل ما يقتدح من نعال الدوابّ وغيرها وأما (نار اليراعة) فهى طائر صغير اذا طار فى الليل حسبته شهاباً .

وضَرْبٌ من الفراش اذا طار فى الليل حسبته شراراً ، وأول مرة أورى نارها حباحب بن كلب القضاعى فقالوا نار أبى حباحب وكان بخيلاً لا توقد له نار بليل مخافة ان يقتبس منها ، فان أوقدها ثم ابصرها مستضىء أطفأها فضربت العرب به المثل فى البخل والخلف فقالوا . أخلف من نار أبى حباحب ، وقيل : كان لا ينتفع بماله لبخله ، فنسب إليه كل نار لا ينتفع بها فقيل لما تقدحه حوافر الخيل على الصفا نار الحباحب .

و (نار الغدر) كانوا اذا غدر الرجل بجاره أوقدوا له ناراً بمنى أيام الحج ثم صاحوا هذه غدرة فلان . وكانت لهم نار باليمن لها سدنة فاذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع النزاع وكان اسمها (الهولة والمهولة) وكان سادنها اذا أتى برجل هَيّبه من الحلف بها ، ولها قيّم يطرح فيها الملح والكبريت ، فاذا وقع فيها استشاطت وتنغضت ، فيقول : هذه النار قد تهددتك ، فان كان مريباً نكل ، وان كان برئيا حلف قال أوس :

اذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهّول حالف

وقال الكميت :

همو خوفونا بالعمى هوّة الردى كما شبّ نار الحالفين المهوّل

وكانوا فى نار الأهبة اذا جدوا وأعجلوا أوقدوا نارين قال الفرزدق :

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفتا على النيران

قال ابو تراب :

قال الشيخ أبو عبد الله الأندلسى الهوارى فى تسمية حروف المعجم (وانظر ايضاً بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى) .

(الألف) الواحد فى كل شىء ، والرجل الذى لا زوجة له ، وفعل ماض .

لا تركننّ من الدنيا الى ألف   فمن يصاحب حقيراً هان فى الزمن

(الباء) الشيخ الكثير المباشرة .

واحرص على المجد حرص الباء حين   يرى غدراً تفتته بالمنظر الحسن

(التاء) الآنية التى تحلب فيها الناقة .

وكن جواداً كريم الكف ذاهبة   كالتاء فى النوق يروى القوم باللبن

(الثاء) اللين من كل شىء .

وابحث عن الثاء فى كل الأمور   فمن رأى الحقائق أمسى وهو ذو فطن

(الجيم) الجمل الكبير :

وكن لدى الخطب مثل الجيم جّدبه   طول المسير فلم يتعب ولم يهن

الحاء : المرأة المسنة والحاء قبيلة من مذحج قال الشاعر : (طلبن الثار فى حكم وحاء)

لا تخدعنـــك حاء لا حياء لها فانمـــا هي كالخضراء في الدمن

الخاء : شعر العورة ، وعرف الديك ، وفعل آمر معناه عجل ،كما في شعر الكميت .

لاخـير فيمـن لهـا وجــه يرى سفها كخائهـــا فمتـــى أمّنتهـــا تخن

الدال : المرأة السمينة .

وانمـــا الحســـن في دال منعمة حبيبـــة زانهـــا صمـــت على لسن

الذال : عرف الديك .

لاتخـل نفســـك من مجــد تمـــاز به فالـديك لولا وجـود الـــذال لم يبن

الراء : القراد الصغير يكون مع الذباب ، وجمع راه وهي شجر .

ولا تكن مثــــل راء في الذبـــاب له ضر وإن رمت منه النفـع لم يكن

الزاى : الرجل الكثير الأكل .

واقنع ولاتك مثــل الـزاى من رجل أذا رأى الأكل يسعى سعي مفتتن

السين : الرجل الكثير الشحم واللحم .

وان بصرت بســـين لاذكاءله فلاَ يُغرَّنْـــكَ عِظْـــمُ الخلــق والبدن

والشين : الرجل الذي لا يمل النكاح .

وانهض الى الخير مثل الشين لاح له وجـه وقـد كمثـل البـــدر والغصن

الصاد : الديك اذا تمرغ في التراب ، والفرخ ايضاً ، وقدر النحاس ، قال حسان :

(رأيت قدور الصاد حول بيوتنا) .

وكن مع الدهر مثل الصاد يقنعه عفر التراب ولقط الحب فى الدمن

الضاد : الهدهد والمرأة الكبيرة الثديين .

واطلب لنفسك عذرا فهو أخلص من يدى سليمان ضاد الطير من محن

الطاء : الرجل اذا شاب ولا يشبع من الوقاع ، وسنام البعير ، ومهبط الوادى .

واحذر فؤادك من حب النساء فكم جلبن للطاء ما يخشى من الفتن

الظاء : المرأة العظيمة الثديين ، والابل المقطرة .

ولا تغر بظاء قام ناهده بصدر عذرا تدعَ القلب للشجن

العين : اسم سنام الابل .

وكن من الناس مثل العين فى إبل أعلى وأطيب ما فيها فلاتهن

الغين : الابل والغيم قال الشاعر : (أصاب حمامة فى يوم غين) .

لا تطردن عن الأبواب من طمع كالغين ان شردت يوما ولم تكن

الفاء : زبد الماء ؛

ولا تكونن فى دنياك ذا عمل كالفاء فى البحر لا يبقى لممتحن

القاف : المستغنى عن الناس .

والزم غنى النفس ان القاف شرفه غناه عما بأيدى الناس من منن

الكاف : الرجل المصلح بين الناس .

ماأسعد الكاف بين الناس من رجل يراقب الله فى سر وفى علن

اللام : الشجر اذا قطر ، وقيل اذا تقطر ايام الربيع ، وقيل : الجمل ذو السنامين .

وأيما عمل لله مقصده يكن كلام غضيض النبت والغضن

الميم : ويقال : مِيمَ الرجل اذا أصابه الموم وهو البرسام

فان دنياك مثل الميم تسكن من صبا اليها وإن أمسى أخافطن

النون : الحوت المذكر ، والدواة ، والقلم ، والسيف .

والنون فى البحر نجى عبد خالقه من الملوك ولاة الأمر فى الزمن

الهاء : أثر اللطمة فى خد الصبىّ .

وأدب النفس لولا اللطم فى أدب لم يزه بالهاء خد الشادن الحسن

الواو : الجمل اذا كان ذا سنامين ، وعمود الخيمة ، قال الشاعر :

(نبنى البيوت على واو ونهدمها وأكثر الناس لا يدرون ما الواو)

ولا تكونن مثل الواو ذا كبر بغير عقل وحسب كل ممتهن

اللام ألف : شراك النعل وهو الشسع .

واصبر على الجهد صبر اللاّ يصلب ان وطيته ومتى جاذبته يلن

الياء : اسم لما فضل من اللبن فى ضرع الشاة (ويا) كلمة نداء ، وتلهف ، وتعجب) .

لا تركنن بياء لا أمان به واطلب جناب كريم النفس مؤتمن

قال ابو تراب :

ويغلط الناس فى جمع اسماء الشهور العربية والأيام فقل من يعرف منهم أن جمع رجب مثلا : أرجاب ، وجمع شوال : شواويل وجمع الخميس : أخمساء . وقد ورد علينا سؤال فى هذا المعنى وجوابنا ـ وبالله التوفيق ـ أن المحرّم يجمع على المحرّمات ، وصفر يجمع على أصفار ، والربيعان يجمعان على أربعة واربعاء ، والجماديان على جماديات ، وكذلك رمضانات ، وشعبانات ، وشوالات ، أو شواويل ، وذوات القعدة ، وذوات الحجة .

وقد قرأت للفقيه الأصولى المفتى الشيخ علاء الدين محمد بن على الحصفكى الدمشقى النحوى المتوفى سنة ١٠٨٨ هـ وهو صاحب « إفاضة الأنوار على أصول المنار» فى الفقة ، و« شرح قطر الندى » فى النحو ـ أبياتاً فى هذا المطلب ، ونقلها محمد العنانى فى « الروضة الأدبية » (ص ٢٢١) حيث قال رحمه الله :

ومستفيد أتانى كى أعرّفه جمع الشهور مع الأيام فانتفعا
وسامنى ذكرها نثراً فقلت له خذ ذاك نظماً فان الحق قد نصعا
محرّمات وأصفار وأربعة وأربعاء تجوز اللفظتان معا

قال ابو تراب : الفصيح استعمال المحرّم بالألف واللام ، وصفر هو بعد المحرّم ، وقد يمنع من الصرف باعتبار وزن الفعل مع العلمية ، وهو ضعيف ، والربيع عند العرب ربيعان : ربيع شهور وربيع زمان ، فربيع الشهور اثنان قالوا : لا يقال فيهما الآشهر ربيع الاول ، وشهر ربيع الآخر على الوصف ، وقد

يضاف شهر الى ربيع ، والتزمت العرب لفظ شهر قبل ربيع تمييزا له عن ربيع الفصل . ثم قال الحصفكى فى ابياته :

وقـل شهـور ربيع إن أردت فما أثبـت من ذَاك ما أثبـت مبتدعا
واجمع جمادى أذا ما شئت أو رجباً جمـاديات وأرجابـا كما سمعا

قال ابو تراب : جمادى اسم شهرين من شهور السنة العربية معرفة مؤنث ، فان ورد مذكرا فى شعر فانما يذهب به الى معنى الشهر ، وكان يقال جمادى خمسة الأولى ، وجمادى ستة الآخرة ، ومنه قول لبيد :

حتى اذا سلخـا جمـادى ستة جزءاً فطـال صيامـه وصيامها

ورجب يقال له : رجب مضر ، لأنهم كانوا أشد تعظيماً له ، ويقال له : رجب الفرد ، لأن الأشهر الحرم ثلاثة سرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم وواحد فرد وهو رجب ، ويقال : رجبان على التغليب لرجب وشعبان . كالقمرين للشمس والقمر ، والجمع أرجاب ورجوب ورجاب ورجبات على صيغة جمع المؤنث باعتبار الليالى التى هو موضوع لها يقال : أجلتك الى سبعة أرجاب .
ثم قال الحصفكى فى ابياته :

وجمـع شعبـان شعبانـات نعرفها ومثلهـا رمضانـات لمن جمعا

قال ابو تراب : ويجمع على شعابين ايضا ، ويجمع رماضين على رمضانين ايضاً ، وأرمضاء وأرمضة ، وأرمض عن بعض اللغويين ، وليس بثبت .
ثم قال الحصفكى فى ابياته :

وقـل شواويل ياهـذا وربتما وعى اخو العلم شوالات حين وعى

قال ابو تراب : وشوال ربما دخلته الألف واللام للمح الصفة ، فقيل : الشوال والشواويل ، ثم قال الحصفكى :)

واعلم بأن ذوات القعدة اشتبهت   فحيرت وذوات الحجة اللكعا

قال ابو تراب : نص اللغويون على ذوات الحجة ، وذوات القعدة ، لأنهم كانوا يقعدون فيه عن الأسفار ، وقالوا : ذوات القعدات والتثنية ذُوَا القعدة ، وذُوَا القعدتين ، فثنوا الاسم وجمعوه ، وهو عزيز لأن الكلمتين بمنزلة كلمة واحدة ، وذو القعدة - بكسر القاف - لغة كذى الحجة - بكسر الحاء -

قال ابو تراب :

وقال الفقيه الحصفكى فى جمع الأيام فى ابياته :

وقل سُبُوتٌ وآحاد وبعدهما   هى الأثانين واجمع جمعة جُمَعَا

أولا فقل أسْبُتٌ فيما تقلله   ومثلها جُمُعات واتل ما شرعا

وقبلهن الثلاثاوات يعرفها   والأربعاوات من نحو الصواب سعى

واجمع خميسا اذا ماشئت أخمسة   وأخمساء وكن للعلم متبعا

قال ابو تراب : الثلاثاء بالمّد وفتح الثاء وقد تضم ، وأشار الى إبدال الهمزة واوًا بأنه هو الصواب لأن صاحب القاموس ذكر (الأربعاءآت) وذكر اللغويون أن يوم الاثنين لايثنّى ولا يجمع لأنه مثنى ، فان أحببت أن تجمعه كأنه صفة للواحد قلت : أثانين ، وقد نصوا على أخمساء وأخمسة فى جمع خميس ، وجُمَع وجُمُعات فى جمع جمعة وسكون ميم جمعات سماع وأسبت وسبوت فى جمع سبت ، ويوم الأحد يذكر فى مادة : (الواحد) لأن الهمزة مبدلة . وفى اشتقاق كل هذه الاسماء كلام طويل ربما ألممنابه فيما يأتى . وقرأت فى كتاب لقطة العجلان للنواب محمد صديق حسن القنوجى (ص ١٩) قال : أما تاريخ العرب فأنه لم يزل فى الجاهلية والاسلام يعمل بشهور الأهلة ، وعدة شهور السنة عندهم اثنا عشر

شهراً ، الاّ أنهم اختلفوا فى اسمائها فكانت العرب العاربة تسميها : ناتق ، نقيل وفى نسخة : (ثقيل) طليق وفى نسخة : (ناجر) أسَخ وفى نسخة : (أسُخ) و (سماح) و (أسلخ) أمنح وفى نسخة : (أنخ) و (أميح) أحلك ، كسع وفى نسخة : (كسح) زاهر ، برط ، وفى نسخة : (ثوط) و (برك) حرف ، نعس ، فناتق هو المحرّم ونقيل هو صفر وهكذا ما بعده على سرد الشهور .

وكانت ثمود تسميها : موجب ، موجر ، مورد ، ملزم ، مصدر ، هوبر ، هوبل ، موها ، ديمر ، دابر ، حيقل ، مسبل ، فموجب هو المحرم وموجر صفر الاّ أنهم كانوا يبدأون بالشهور من ديمر وهو رمضان فيكون أول شهور السنة عندهم .

ثم كانت العرب تسميها باسماء أخر وهى : مؤتمر ، ناجر ، خوان ، صوان وفى نسخة : (يصان) و (بصان) حنتم وفى نسخة (خنتم) زبا وفى نسخة : (ربى) الأصمّ ، عادل وفى نسخة : (عاذل) بايق وفى نسخة : (نافق) واغل ، هواع ، برك .

ومعنى المؤتمر أنه يأتمر بكل شىء مما تأتى به السنة من أقضيتها ، وناجر من النجر وهو شدة الحر ، وخوان على وزن فعال ـ بكسر الفاء ـ من الخيانة ، وصوان بكسر الصاد وضمها من الصيانة ، والزبا الداهية العظيمة المتكاثفة ، سمى بذلك لكثرة القتال فيه ، ومنهم من يقول بعد صوان الزبا وبعد الزبا البائدة ، وبعد البائدة الأصمّ ، ثم واغل وباطل وعادل ورنة وبرك ، فالبائد من القتال اذ كان فيه يبيد كثير من الناس ، وجرى المثل بذلك فقيل : « العجب كل العجب بين جمادى ورجب » وكانوا يستعجلون فيه ، ويتوخون بلوغ الثأر والغارات قبل رجب فانه شهر حرام ، ويقولون له : الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال ، فلا يسمع فيه صوت سلاح ، والواغل الداخل على شرب ولم يدعوه ، ذلك لأنه يهجم على شهر رمضان ، وكان يكثر فى رمضان شربهم الخمر لأن الذى حيوه شهور الحج ، وباطل هو مكيال الخمر لكثرة استعمالهم ذلك فيه سمى به لافراطهم

فى الشرب ، والعادل من العدل لأنه من أشهر الحج وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل ، وأما الزبا فلان الأنعام كانت تزب فيه لقرب النحر وأما برك فلبروك الابل اذا حضرت المنحر أيام النحر فى الحج

قال ابو تراب :

وقد روى أنهم كانوا يسمون المحرم مؤتمراً وصفر ناجراً وربيع الأول نصاراً ، وربيع الآخر خوانا ، وجمادى الأولى حمتناً وجمادى الأخرى الرنة ، ورجب الأصم ، وشعبان عادلاً ، ورمضان ناتقاً ، وشوالاً واغلاً وذا القعدة هواعاً وذا الحجة بركاً ، ويقال فيه ايضاً أبروك ، وكانوا يسمونه الميمون . ثم سمت العرب أشهرها بالاسماء الحاضرة ، واشتقوا اسماءها من أمور اتفق وقوعها عند تسميتها ، وأنت اذا تأملت اشتقاق اسماء شهور الجاهلية أولاً ، ثم اشتقاقها ثانيا تبين لك أن بين التسميتين زمانا طويلاً ، فان صفر فى احدهما هو صميم الحروب ، وفى الآخر رمضان ، ولا يمكن ذلك فى وقت واحد أو وقتين متقاربين .

قال ابو تراب : اختلف الرواة كثيراً فى اسماء شهور عاد ، أشار الى هذا الاختلاف البيرونى فى كتاب الآثار الباقية (ص ٦٠) وساقهاباختلاف ابن سيدة فى المخصص (ج ٩ ص ٤٣) والمسعودى فى مروج الذهب (ج ١ ص ٢٤٨) والنويرى فى نهاية الأرب (ج ١ ص ١٥٧) وروايات فى بعض الاسماء فى لسان العرب ، ومقاييس اللغة (ج ٢ ص ٢٣١ و ج ٣ ص ٢٧٩) وصحاح الجوهرى ، وكتاب الوشاح لابن دريد ، ونقل فى ذلك عن ابن الكلبى ، وقد شك بعضهم فى صحتها ، ولا نفعل ذلك لمجرّد التصحيف أو تعدد الاسماء

واختلافها فان لذلك مسوغات وان كانت الرواية فى الأشهر الثمودية مضطربة جدا ، وقد بحث فى ذلك الدكتور أنيس فريحة لكنه أخطأ فى تعليل بعض التسميات ، وكأنه لم يطلع على كلام القنوجى ، وفوق كل ذى علم عليم .

أما اشتقاق الأشهر العربية التى تلت الأسماء الجاهلية فالمحرم سمته العرب بهذا الاسم لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال ، وأضيف الى لفظ الجلالة إعظاماً له كما قيل للكعبة بيت الله . وقيل سمى بذلك لأنه من الأشهر الحرام ، هكذا ذكره صاحب اللسان . وينعت هذا الشهر بالحرام فيقال : المحرم الحرام ، وكان يعرف فى الجاهلية بصفر الأول ، لأنه كان لهم صفران .

وحكى الجوهرى عن ابن دريد قال : الصفران شهران من السنة سمى أحدهما فى الاسلام المحرم .

قال ابو تراب : ويرى بعض المعاصرين ان التحريم لم يكن تحريم غزو ، انما هو لأسباب زراعية ، ويعلل هذا بأن اسمه السابق صفر ، وهو لاصفرار السنابل ، وهذا عندى بعيد جداً ، والظاهر ما قاله النويرى : انهم أغاروا فيه فلم ينجحوا فحرموا فيه القتال .

وأما صفر فينعت بالخير ، والمظفر ، لأنه شهر نحوسة عندهم ، واختلفوا فى وجه التسمية فقال البيرونى : فى الآثار الباقية (ص ٦٠) انهم سموه بذلك لامتيارهم فى فرقة تسمى (صفرية) .

وقال ايضاً فى الآثار الباقية (ص ٣٢٥) : وسمى صفر لوباء كان يعتريهم ، فيمرضون ، وتصفر ألوانهم .

وقال المسعودى فى تاريخه (ج ٣ ص ٣١٧) : وسمى صفر لاسواق كانت باليمن تسمى الصفرية ، وكانوا يمتارون فيها ، ومن تخلف عنها هلك جوعاً .

وفى لسان العرب : عن رؤبة انه قال : سموا صفرا لأنهم كانوا يغزون القبائل فيتركون من أغاروا عليه صفراً من المتاع .

وقال النويرى : سمى بذلك لصِفْر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم للقتال ، أولأنهم كانوا يغيرون على الصفرية ، وهى بلاد .

قال ابو تراب :

وأما ربيعا الأول والآخر فينعت الأول بالشريف وفى الناس من يسميه الربيع الأول ، وقد ذكرنا من قبل أن للعرب ربيعين : ربيع شهور ، وربيع أزمنة ، ولا علاقة بينهما .

قال ابو الغوث : ان العرب تجعل السنة ستة أزمنة ، شهران منها الربيع الأول ، وشهران صيف ، وشهران قيظ ، وشهران الربيع الثانى ، وشهران خريف وشهران شتاء .

قال ابو تراب : انما سميا بالربيع لسقوط بعض الأمطار ، وظهور بعض العشب .

قال البيرونى : سميا بذلك للزهر ، والأنوار ـ جمع نور بفتح النون وهو الزهر ـ

قال : وسميا بذلك لتواتر الأندية والأمطار ، وهو نسبة الى طبع الفصل الذى نسميه نحن الخريف .

وقال النويرى فى علة تسميته الربيعين : لأنهم كانوا يخصبون فى الربيع بما أصابوا فى صفر ، والربيع الخصب .

قال ابو تراب : وأما جُمُادياَ الأولى والآخرة فكانوا يقولون : جمادى خمسة وجمادى ستة ، لأن الأولى هى الخامسة والآخرة تلم ستة أشهر من أول السنة .

ويقال فيها : جُمْدى ـ على وزن حُبْلى ـ والظاهر أن التسمية من جمود الماء ، لأنهما شهران كانا يقعان فى معظم البرد ، ومدار الفلك مختلف ، لا يتنازع فيه متناطح لذلك قلنا فى بحث لنا مضى يتعلق بالميزان أول السنة : ان الحمل الذى هو ابتداء الأبراج قد كان ويكون بمدار الفلك غير مبتدأ به ، وهذا واقع ، فخريطة بطليموس لاشىء وانما العمدة على الرصد المتجدد ، وبعض وقائع التاريخ من أيام رسول الله ﷺ يختلف عندى ميزان تاريخها لأجل هذا الاعتبار .

وقال ابو حنيفة : جمادى عند العرب الشتاء كله فى جمادى كان الشتاء أو فى غيرها . وهذا تحليل التسمية بالجمود .

وأما رجب فينعت بالمرجب ـ أى المهذب ـ وينعت بالفرد ، والوسط ، لأن الأشهر الحرم متتابعة إلاّه ، فهو منفرد بين جمادى وشعبان .

قال البيرونى : ورجب سمى بذلك لاعتمادهم الحركة فيه لامن جهة القتال ، والرجبة العماد ، ومنه قيل : « عذق مُرَجَّبٌ » . قال ايضاً : سمى به لأنه قيل فيه : « أرجبوا » أى كفوا عن القتال ، والغارات ، لأنه شهر حرام . وقيل : بل لاستعجالهم قبله كانوا يخافونه ، ويقال : رجبت الشىء أى خفته . وفى صحاح الجوهرى : رجبته أى هبته فهو مرجوب ، ومنه سمى شهر رجب . ويقول آخرون : انه من الرواجب وهى أصول الأنامل وخطوط مفاصلها ، وقيل : ان العود رجب النبات فيه أى اخرجه . ورجبان مثنى تغليب . وأما شعبان فينعت بالمعظم والشريف ، وسمى به لتشعب القبائل الى المناهل والغارات ـ وقال ثعلب : لأنه شَعَب أى ظهر بين رمضان ورجب ، ويقال : لتشعب العود . وأما رمضان فينعت بالمبارك والأصم لعدم صوت السلاح فيه كرجب ، وهو لقب ألصق به ، وسمى رمضان للحجارة ترمض فيه ، لأنه وافق أيام شدة الحر .

وأما شوال فينعت بالمكرم ، سُمى به لارتفاع الحر وادباره . قال البيرونى :

لأنه قيل فيه شولوا ، أى ارتحلوا ، وقيل : لأن الابل كانت تشوّل فيه أذنابها . وفى لسان العرب يسمى بتشويل ألبان الإبل وهى وهو إدبارها . وقال الفراء : لشولان الناقة فيه بذنبها .

أما ذو القعدة فسمى للزومهم منازلهم ، أو لما قيل فيه : أقعدوا ، أوكفوا عن القتال ، وقال فى اللسان : لقعودهم فى رحالهم عن الغزو والمسيرة ، وطلب الكلأ. وفى المصباح (ص ١٤٨) : ذو القعدة لما ذللوا القعدان (أى الابل القلاص)

قال ابو تراب : لعلّه لاستعدادهم للحج ، وتسمية ذى الحجة واضحة ، وقال النويرى فى النهاية (ج ا ص ١٥٨) انما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت فى كل شهر ، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع .

قال أبو تراب :

جاء فى شرح أدب الكاتب لأبى منصور الجواليقى (ص ١٣٢): عن عفيف بن معديكرب قال : قدم على رسول الله ﷺ ناس من اهل اليمن فقالوا : يا رسول الله أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس ، خرجنا نريدك فلما كنا ببعض الطريق ضللناه ، فبتنا على غير ماء ، فلم نزل ثلاثا على ذلك حتى استذرينا بالطلح والسمر ـ قلت : الطلح شجر من شجر العضاه ذات الشوك ، والسمر كذلك ، وهو اصغر منها جيد خشبه ومعنى استذرينا استظللنا ـ قالوا : فبينا كنا كذلك اذ اقبل راكب على بعير متلثم بعمامة ، فتمثل رجل منا بقول امرىء القيس :

فلما رأت ان الشريعة همُّها وأن البياض من فرائصها دامي
تَيَمَّمَتِ العين التى عند ضارج يفىء عليها الظل عرمَضُها طامي

ـ قلت يعنى أن ناقته شربت من عين ضارج . قالوا : فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قلنا : امرؤ القيس قال : فو الله ما كذب ، هذا ضارج عندكم ، قالوا : فحبونا اليه على الركب ـ قلت : ذلك من شدة الاعياء والعطش الذى أشرفوا معه على الموت ـ قالوا : فوجدنا الماء قد علاه العرمض .. قلت : هو الطحلب ـ قال : فشربنا منه حتى روينا وحملنا ما كفانا حتى وقفنا على الطريق . قلت : تفسير البيتين ان الشريعة بمعنى مورد الشاربة ، والفرائص جمع فريصة وهى اللحمة فى ناغض الكتف على الجنب وهى اول ما يرعد من الدابة

اذا فزعت ، وانما جعل البياض من فرائصها داميا ليدل على ما لحقها من الكُلال والتعب فى طول السير . وقال أبو اسحاق الحربى : الصواب : (وان البياض من فراسنها دامى) والفراسن جمع فرسن وهو يد الناقة ، والسُلاميات عظام الفِرْسِنِ ، وتيممت بمعنى قصدت ، وضارج اسم جبل ، والعرمض الخضرة التى تعلو الماء والطامى المرتفع ، والشاهد فى البيت هو قوله : « يفىء عليها الظل » قال ابن قتيبة : أى يرجع ، ومنه قوله تعالى : « حتى تفىء الى أمر الله ، » والمعنى ان ناقته لّما رأت ان المورد همها ، وقد صار بياض فرائصها أو فراسنها داميا من الاعياء والتعب قصدت العين التى هى بضارج يفىء عليها الظل وقد علاها الطحلب ، وكان هؤلاء اليانون الذين ضلوا الطريق واشرفوا على الهلاك من العطش عند ضارج ، وهم لا يدرون انهم على ماء حتى جاء هذا الراكب فأنشد رجل منهم هذا البيت فدلّهم على تلك العين ، وأنهم على ذلك الماء ، فأنقذهم الله بشعر امرىء القيس ، وفى آخر هذه الرواية أنهم لما أخبروا رسول الله ﷺ بهذه القصة قال لهم حين سمع شعر امرىء القيس : ذاك رجل شريف فى الدنيا مذكور فيها .. منسى فى الآخرة خامل فيما يجىء يوم القيامة معه لواء الشعراء يقودهم الى النار ، وذكرها ياقوت فى معجم البلدان ، وهذا اللفظ الأخير مروى فى مسند الامام أحمد وهو من زيادات القطيعى ، ولا يصح ، وقد تكلم فى زياداته شيخ الاسلام ابن تيمية فى منهاج السنة . والفرسن الذى صححه ابو اسحاق الحربى فى بيت امرىء القيس هو طرف خف البعير ، وقد يستعار للشاة فيقال : فرسن شاة ، والنون فيه زائدة ، وهو للبعير كالحافر للفرس ، وكون فراسن ، الناقة دامية اولى عندى من فرائصها لأن الفرائص لا تدمى مهما اضطربت من الفزع والسير ، واذا صح فيكون ذلك على المجاز ، وأما الفراسن فيصيبها الشوك والحصا فهى التى تتعرض لذلك ألا ترى أن المتنبى يقول وهو يصف ناقته :

أنساعهـــا ممغوطـــة وخفافها منكوحـــة وطريقهـــا عذراء

والانساع جمع نسع وهو سير كهيأة العنان يشد به الرحل والمغط المد وخفافها منكوحة أى مثقوبة بالحصا واستعار النكاح لوطئها الأرض وادماء الحصا إياها ، وطريقها .. عذراء أى لم تسلك قبلها . وابو اسحاق الحربى الذى استدرك هذا الخطأ هو من كبار ائمة المحدثين وقد لازم ثعلبا فى اللغة والنحو خمسين سنة ، وقد توسع صديقنا الشيخ حمد الجاسر فى ترجمته الاّ انه فاتـه الاشـارة الى نقـل الجواليقى الذى ذكرناه عنه فى شرح أدب الكاتب مع انه اشار الى نقوله عنه فى المعرّب ، وترجم للحربى ابن الجوزى فى المنتظم والذهبى فى تاريـخ الاسـلام والخطيب فى تاريخ بغداد وأغفله المزّى فى تهذيب الكمال .

قال أبو تراب :

ذكر ابن الأثير فى الكامل (ج ٤ ص ١٠٠) : عن الهيثم قال : كان سُراقة البارقى من أظرف الناس ، وكان من أهل الكوفة ، فأسره رجل من أصحاب المختار الثقفى الذى ادّعى النبوة ، واتى به اليه فقال : أأسرك هذا ؟ قال سراقة : قد كذب والله ما أسرنى الاّ فارس عليه ثياب بيض فوق أبلق ، فقال المختا، انك عاينت المَلَك ، وأطلقه ، فلما أفلت قال :

ألا أبلغ أبا اسحاق انى رأيت البُلْق دُهْماً مصمِتات
أرى عينىّ ما لم تَرأيَاهُ كلانا عالم بالترّهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى الممات

قال ابو تراب : أراد هذا الخبيث أن يطبق على ادعائه النبوة ما قال عليه الصلاة والسلام لأبى اليسر حين أسر العباس : أعانك عليه ملك ، ذلك لأنه رأى فارساً عليه ثياب بيض وهو على فرس ابلق ، والملائكة نزلت ببدر للنصرة ، وهذا مما لا شك فيه ، فتوهم هذا المتبنى توهماً اشعبياً ، أو انّه اراد أن يوهم الناس بما كان من أمور النبوة والمعجزة وأين التنبؤ الباطل من النبوة الحقة ، وكيف يتشبه بها وهو فى الثرى وتلك عند الثريا .

وسراقة البارقى شاعر غير مشهور ، وله ديوان مطبوع ليس فيه كل شعره .

حققه حسين نصار ونشر لأول مرة بالقاهرة سنة ١٣٦٦هـ وقدم له مصطفى السقا وهو سراقة بن مرداس البارقى الأزدى ذكره ابو الفرج ومحمد بن حبيب

وابن عبد ربه .

وفى كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ : كان الأحوص بن جعفر المخزومى يتغدى فى دير اللُّجّ فى يوم شديد البرد ومعه حمزة بن البيض وسراقة البارقى ، فلما كان على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما الأطمار قال حمزة لسراقة : أين يذهب بنا فى البرد ونحن فى أطمار ؟ قال : سأكفيكه . فبينما هو يسير إذ دنا منهم راكب مقبل فحرك سراقة دابته نحوه ، وواقفه ساعة ، ولحق بالأحوص فقال له : ما خبرك الراكب ؟ قال : زعم ان الخوارج خرجت بالقطقطانة ، قال : بعيد قال : ان الخوارج تسير فى ليلة ثلاثين فرسخا وأكثر ، وكان الأحوص أحد الجبناء فثنى رأس دابته ، وقال : ردّوا طعامنا نتغدى فى المنزل ، فلما حاذى منزله قال لأصحابه : ادخلوا ، ومضى الى خالد بن عبد الله القسرى فقال : خرجت خارجة بالقطقطانة ، فنادى خالد فى العسكر فجمعهم ووجّه خيلاً تركض نحو اللُّجّ لتعرف الخبر ، فأعلموه انه لا أصل للخبر فقال للأحوص : من أعلمك بهذا ؟ قال : سراقة قال : وأين هو ؟ قال : فى منزلى ، فأرسل اليه من أتاه به ، قال : أنت أخبرته عن الخارجة ؟ قال : ما فعلت اصلح الله الأمير ، قال له الأحوص : أتكذبنى بين يدى الأمير ؟ قال خالد : ويحك ، اصدقنى ؟ قال : نعم ، اخرجنا فى هذا البرد ، وقد ظاهر الخز والوبر ، ونحن فى أطمارنا هذه ، فأحببت أن اردّه . فقال له خالد : ويحك ، وهذا مما يتلاعب به ؟!

قال ابن كثير فى البداية والنهاية : انه هجا الحجاج ، وهرب منه الى عبد الملك واقام بالشام حتى توفى عام ٧٩هـ وذكره الزجاجى فى الأمالى .

ومن شعره :

ذللاً حمولتها بين عاجل   خضعا سوالفها تعوم وتعتلى
يمشى ويوجف خدرها بغمامة   صيفية فى عارض متهلل

راب روادفهـا ينـوء بخصرها كفـل لهـا مثـل النقـا المتهيّل
أيـام تبسـم عن نقـى لونه صاف يزينـه سواك الإسحل
ذهبت بقلبـك فى الأنـام ومثلها شعف الفـؤاد وسرّ عـين المجتلى

وهو يفضل الفرزدق على جرير فيقول :

ان الفـرزدق برزت حلباته عفـوا وغـودر فى الغبـار جرير
ما كان أول مُحْمَـر عثـرت به أنسابـه ان اللئيـم عثور

ويصف كثيرا بالكذب والرشوة وأخذ العطاء فيقول :

لعمـرى لقـد جاء العـراق كثير بأحدوثـة من وحيـه المتكذب
فان كنـت حرا او تخـاف معرة فخذ ما اخـذت من امـيرك واذهب

قال أبو تراب :

أبى خليلنا الوديد ، الفاضل اللوذعى ، ابو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهرى الاّ أن يجدّد بنا العهد ، ويَصِل لنا الحبل ، ويتحف القراء وهو فى تَنُوفة نائية من أعماله ، بسبائك اللُّجين من أحاديثه وأقواله ، أوهى أسجاع الحمائم وهديل الوُرْق على غصون الأيك ، ولئن أنذرنا ما وَخَطَ فودْيه وعارضيه من الشيب ، فاننا نتعلل بأبيات قالها إمام أهل الحديث الذابُّ عن سُنّة سيد الخلق ، خنّاق كل مقلّد على وجه الأرض ابن حزم الأندلسى :

وسائلٍ عما بدا لى من العُمر	**وقد رأى الشيب فى الفودين والعُذُر**
أجبتُه ساعةٌ لا شىء أحسبه	**عمرى سواها بحكم العقل والنظر**
فقال لى : كيف ذا ؟ فلقد	**أنبأتنى أشنع الأنباء والخبر**
فقلت : ان التى قلبى بها علق	**قبلتها قُبلةً يوماً على خَطَر**
فما أعَد ولو طالت سِنِىَّ سوى	**تلك السويعة بالتحقيق من عمرى**

وهنيئا لأبى عبد الرحمن الحميم بشعيرات بيضٍ أرسلن خيوط الصبح المنير اسفر عن جهاده فى سبيل المعرفة ، وانشَقّ عن ثمرات أينعت له وهو يهدبها ، وحنينى اليه دائم متواصل ، وشوقى نحوه مرسل ومسلسل ، فلا يخشين منى ما يكدّر هذه الألفة ، وقد استقرّت بين الجوانح ، وعَمِرَتْ بها حُماطة الجلجلان ، على بُعد المزار ، وتنائى الديار ، فان انتابت منه جفوة ، فعذيره الانغماس فى لُجج

البلديات ، وسلوتنا الذكرى الحسنة احلولت لنا ، والتمنّى العارم لو يزور ساعة ويهجر عاما ، وها هو ذا يعود فيطالبنا بما طالب به وامق قبله اذ قال :

فقارضيني اذا ما اعتادني طرب وجداً بوجد وسلواناً بسلوان

أماّ ثناؤه على فهو به أولى وأجدر ، وأحرى وأزهر ، وما مثلى الاّ كما قال الحافظ العسقلانى :

فأنا المسكين الذى أيامه ولّت بأوزار غدْت متواترة

وأين أنا من التحقيقات التى يشير اليها صاحبى ، ليكون ذوو نُشدانِ المعرفة عليها عيالا ، وقد كَلَّ عزمى ، وفلّت همتى ، وركد ذهنى ، وبتّ ضجيع الأحزان حين فرّ منى كل طير ربّيته مقفوصاً ، وكأنى أنا المعنّى بقول الشاعر قبل ان أبلغ السنّ التى نعتها الزمخشرى فى مقدمة « الكشاف » بدكّاكة الظهر :

وَهَت عزماتك عند المشيب وما كان من حقها أن تَهى
وأنكرت نفسك لمّا كبرت فلا هى أنت ولا أنت هِى
وإن ذُكرْت شهوات النفوس فما تشتهى غير أن تشتهى

وأماّ ذهاب وهله الى أنى ربما ارتجلت عدم تسويغ لفظة « التحرير » دالاً على الكتابة ذاتها ، فلعمرى انه لترجُّمٌ اخطأ فيه صاحبى الاصابة ، فراح ينتضى الحجج لجداله ، ولم يحاذر أن تُفرك وتُعرك ، ولكن لكل اكولةٍ مَرعى ، فاذا انبلج الحق ، ووضح البرهان ركب هو ناقته وانشعب ، وعلم ان دعواه كاذبة والعياذ بالله .

فان فطنتم للحن القول بان لكم صدقى ودلّكم طَلعى على رُطبى

وإن شُدهتم فان العار فيه على   مَن لا يميّز بين العود والخشب

ذلك لأن .. تحرير الدعوى .. عند الفقهاء معناه أيضاً تخليصها من الشوائب الباطلة و« المحرَّر» ايضاً من الكتب هو الذى خلّصه صاحبه من الزيادات مقتصراً على اللُب وكذلك تحرير المسائل » وكل ذلك لا يعنى الكتابة أصلاً وانما يعنى التقويم والتحسين والتخليص والتجويد والعوام هم الذين يستعملون التحرير بمعنى الكتابة وليس ذلك فى شىء من كلام العرب وقد سبق أن كتبنا فى حلقة ماضية (نشرت بتاريخ ٩٨/٥/٥هـ بجريدة المدينة) جواب هذه المسألة قبل أن نطلّع على ما عارضنا به الصديق الحميم ، وانّى إيّاه أدعو للرجوع اليها للاقتناع ، فهو ليس ممن يسارعون الى الأخذ بقولى حُجَّةً دون برهان ، وهذه خَلَّة حميدة ، وصبغة مجيدة ، حُرم منها المقلدون ، ثم هذا مانع قوى ان كان أخى يأخذ بالدلالة اللفظية والمجازات التى استعملها العرب ، امّا اذا ساغ فى مذهبه التوسع فمعنى الاقتضاء قائم عنده يندرج تحته كل استعمال حديث للفظ عربى قديم للمعنى الجديد بعلاقة تربطه بأصل الاشتقاق ، فافتح باب الجواز إن شئت لترى للمتوسعين فى ولوجه ركضاً ورحضا ، وكرًّا وفراً ، ولزّاً وهزّا والله فى عونك يا أخى ...

بين عبد الحليم وأبي الوفاء

قال أبو تراب :

صديقان لى أحدهما له وقار وحلم ، وفهم وعلم ، وشيم مرضية ، وسجايا جميلة ، ومواهب متعددة ، ووتائر منقادة ، وهو دكتور أزهرى يدعى عبد الحليم محمد عبد الحليم والآخر ما أحَرَّ طينتَه ، وما أكرم كريمته ، وما أحسن سكونه ، وما أرصن وَضينه ، وكأنّما تَزَيَّحَ عنه المزاج البلغمى ، فأقام على محمود شاكلته ، وليس فى وفائه لَفَاء ، ولا لعطائه جزاء ، وهو مذيع قاهرى يقال له : « محمد أبو الوفا » وبكليهما ابتلانى الله وهما لى زميلان ، ومعى قرينان ، يعملان بوزارة الاعلام ، أوقات الفراغ وساعات الدوام ، أمّا عبد الحليم فمراقب لغوى ، وأمّا أبو الوفا فمذيع عبقرى ، ويجدهما عندى كل وارد وصادر عن اليمين وعن الشمال قعيدين ، وبجميل أحاديثهما جاهرين ومتمتمين ، وبعذب محاورتهما لاهجين ومتهامسين ، تناظرا أمس واحتكما الىَّ ، فى مسألة نحوية ، بِطَيّها أحكام المبتدأ والخبر مَحْوِيَّةِ ، فلِلّه دَرُّهما لا يتناكفون الاّ فى استدرار الفوائد ، ولا يتصاقبون الاّ فى استمرار العوائد ، ويعلم الله أن « أبا الوفا » عظيم العناية بتقويم اللسان ، اشتكاراً لما وهب الله له من نعمة الحنجرة . تقع الفائدة عنده موقع الاعجاب فيهتز لها طرباً ، وهو يحسن التّلقى لأن أذنه الموسقية مُؤَهَّلَة للالتقاف ، ويلذّ له قيد الأوابد ، ومرنّمات الشعر ، ومهزهزات النكت لأن يراعه كما قال الشاعر :

اذا أخذ القرطاس خلتَ يمينه تنظّم دُرًّا أو تفتّح جوهرا

والجملة المتنازع عليها هى قول بعضهم : « وهل غير الشعر يكون

الرفيق » أعربها عبد الحليم بنصب (غير) على أنه خبر مقدم لـ « يكون » و «الرفيق» اسمه . وارتاحت له أذن الصديق أبى الوفا ، وعلى هذا الغرار قام بعمل مقدمة إذاعية لبرنامج يقدمه بعنوان : « نبضات شاعر » وعلى دَيْدَنِهِ أسمعنى المقدمة فقلت : لا غبار على طابعها ، وانما العار على تابعها ، لأن نصب (غير) خطأ ، وكأن معربه نسى النحو ، فاحر نجم وهو مترشح لنهاية أمره ، سامٍ الى ذروة شرفه ، وانما لباب الصواب عندى ، وحثحاث المقول معى فهلموا ، فلان صديقنا المذيع ، وعارض صديقنا المراقب ، وأدلى بحجج جواز تقديم خبر « كان » وأخواتها ، وظنّ انه لم يرتكب شططا ، ولم يأت من الأمر إدّا ، فقلت : يا أخا العلم ان المرمى لصعب ، ولا ننكر جواز تقدم الأخبار ، ولكن فاتك انّ المبتدأ الذى دخل عليه الناسخ هنا عمدة فى الكلام ، وحقه التقديم ، والعمدوية لا تبيح عند النحاة تأخير المبتدأ الذى صار بعد اسماً لِـ «كان» ، وعندئذ أدرك صاحبنا أن الفلاة غَطْشَى السهوب ، وأن المهامه بعيدة النضوب ، فنقلوا القول الى حديث غيره ، وخاضوا فيما يجلب للمعدة ويقوّيها من اللحوم والمفاريم ، على أن أبا الوفا أعاد المقدمة الإذاعية ، وكأنه هاب مقام العلم ، وراعى جانب الأدب ، وأحببت أنا أن لا أخلى المجلس من قيد شاردة ، لأن فيه فائدة لغوية اذا نقلتها أفادت المذيعين والقراء معاً فأقول وبالله التوفيق : لا يجوز البتة انتصاب (غير) فى العبارة المذكورة لكون الجزء الأول عمدة فى الكلام وهو اسم ، والأصل فى الابتداء الاسمية ، ولكون الجزء الثانى متأخرا فى الرتبة وهو وصف ، والأصل فى الأخبار الوصفية ، ولو جاز جعل الوصف مبتدأ والاسم خبراً كان ذلك عند انتفاء ما يعرض لأحوال الابتداء من أمور تستوجب تقديمه ، وهذا أحدها ، وهو أن يكون المبتدأ له صدر الكلام ، فالاستفهام الداخل على هذه العبارة يجعله فى مقام الصدارة ، فلا يمكن تأخيره ، فهو إذْ كان مبتدأ فى الأصل كان اسماً بعد لدخول الناسخ ، فلا يجوز أن يكون خبراً له ، لأنه عمدة ، وله

الصدارة ، يا ذوى الأدب والمهارة ، فخذوها منى وأرووها عنى ، وأنشدكم لأبى محمد قوله :

سِمْ سِمَــةً تحســـن آثارها　　واشــكر لمن أعطــى ولــو سِمْسِمَةْ

تصحيح نسبة بيت

قال أبو تراب :

ألا نضر الله خاطر الأخ الفاضل عبد الله الشمرانى أفضل علىّ بالاتصال بى يتعقب ويصححُ ويستدرك ويصوّب ، فارتاح اليه البال ، وسُرّ القلب ، بأن فى الصَّحْب من يُعنى بما نكتب ، ويقرأ ما نسطّر ، ويرى الخطأ منا أوحش من الورم النافر فى الأوداج ، أو الغُدّة الخارجة فى الحلق كأنها غدة بعير ، وعذيرى أنى أكتب من الذاكرة ، والذاكرة قد تخون ، فنسبت فيما سبق لى من القول بيتا لجرير بن الخَطَفى الى حسان بن ثابت الخزرجى وهماً ، حتى انه حين ذكر لى ذلك قلت له : هو لحسان ، ولا أدرى كيف عَلِق هكذا بذهنى ، فقال لى : بل هو لجرير كما حفظنا منذ زمن الدراسة ، فقلت له : أحسنت قعقعة شِنّتى ، وأكبرتك اذ رددتنى الى الصواب ، ونَخَرْت نِخْرة المعجب بروحك ، وانى كاتب هذا الكلام ليقرأه الناس ويعلموا أنا لا نضرب فى ربع غير مأنوس ولا نُغَطُّ مُسْتنعسين نوماً إذا هم نفروا ، وأن فى القوم أيقاظاً لا يبقون فى القوس مِنْزَع ظفر ، فواهاً لهم اذا تحلّوا بحلية أهل التحقيق ، وشربوا من حياضه عَلاً ونهلاً ، أمّا البيت الذى أخطأت فى نسبته فهو :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وهو أمدح بيت قالته العرب ، حتى قال عبد الملك بن مروان حين أنشد هذا البيت : من أراد أن يمدح فبمثل هذا البيت ، أو ليسكت ، وهو من قصيدة لجرير

بن عطية بن الخَطَفى يمدح بها عبد الملك أولها :

أتصحو بل فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح
يقول العاذلات علاك شيب ... أهذا الشيب يمنعني مراحى

وسببها أن جريراً لمّا مدح الحجاج بن يوسف الثقفى بشعره الذى يقول فيه

من سد مضطلع النفاق عليكم ... أم من يصول كصولة الحجاج

والذى يقول فيه :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح ... فأسمع ذا المعارج فاستجابا

قال الحجاج : ان الطاقة تعجز عن المكافأة ، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك ، فسرْ اليه بكتابى هذا فسار اليه ، ثم استأذنه فى الانشاد ، فأذن له فقال : (أتصحو بل فؤادك غير صاح) فقال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن الفاعلة ، ثم استمر جرير ينشد حتى بلغ :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فارتاح عبد الملك ، وكان متكئا ، فاستوى جالساً ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا ، أو ليسكت ، قالوا : فلما أكملها جرير قال عبد الملك : يا جرير اترى أم حزرة ترويها مئة ناقة من نَعَم كلب ؟ قال : اذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله ، فأمر له بمئة ناقة من نعم كلب كلها سود الحدقة فقال :

يا أمير المؤمنين انها آباق ونحن مشايخ ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته فلو أمرت بالرعاء فأمر بثمانية ، وكانت بين يدى عبد الملك صحاف من فضه يقرعها بقضيب فى يده فقال له جرير : والمِحْلَب يا أمير المؤمنين وأشار الى صفحة منها

فنبذها اليه بالقضيب ، وقال له : خذها لانفعتك ففى ذلك يقول جرير :

أعطــوا هنيــدة يحدوهــا ثمانية ما فى عطائهمــو منّ ولا سرف

وأم حَزْرة المذكورة فى هذه الرواية هى امرأة جرير وهو يكنّى بأبى حزرة بابن له سماه حزرة ، وهنيدة المذكور فى البيت السابق اسم للمئة من الابل أو لما دونها أو لما فوقها ، ويطلق على المئتين منها ، ويقال لها هند ايضاً ، وكلب اسم قبيلة ، وبنو كلبة وبنو كلاب وبنو أكلب كلها قبائل عربية .

هذا واجلالى وإكبارى وتحيتى للأخ الفاضل عبد الله الشمرانى الذى كان السبب فى تزبير هذه الكليمة ولولاه لكان الغلط منشوراً ، والباطل مستورا .

قال أبو تراب :

ذكر الحافظ ابو نُعيم فى الحلية (ج ا ص ١٤٧) عن عوف بن ابى جميلة الأعرابى قال : كان الحسن البصرى ابنا لجارية أم سلمة زوج النبى ﷺ فبعثت أم سلمة جاريتها فى حاجتها فبكى الحسن بكاء شديداً فرقت عليه أم سلمة رضى الله عنها فأخذته فوضعته فى حجرها فألقمته ثديها ، فدرّ عليه فشرب منه ، فكان يقال : ان المبلغ الذى بلغه الحسن من الحكمة من ذلك اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج النبى ﷺ . وقال الأعمش : مازال الحسن البصرى يعى الحكمة حتى نطق بها ، وكان اذا ذكر عند ابى جعفر محمد بن على بن الحسين قال : ذاك الذى يشبه كلامه كلام الانبياء .

وهو ابو سعيد الحسن بن ابى الحسن الفقيه الزاهد ، المتشمر العابد حليف الخوف والحزن ، أليف الهم والشجن ، عديم النوم والوسن ، قال الحافظ ابو نعيم : كان لفضول الدنيا وزينتها نابذاً ، ولشهوة النفس وتخوتها واقذاً ، وكان يقول : ذهبت المعارف ، وبقيت المناكر ، وان المؤمن يصبح حزيناً ويمسى حزيناً ، وينقلب باليقين فى الحزن ، ويكفيه ما يكفى العنيزة : الكف من التمر والشربة من الماء ، وهو بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب من المهالك . والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن فى الدنيا حزنك ، وليشتدن فى الدنيا خوفك ، وليكثرن فى الدنيا بكاؤك ، نضحك ولا ندرى لعل الله اطلع على بعض اعمالنا فقال : لا أقبل منكم

شيئا ، ويحك يا ابن آدم هل لك بمحاربة الله طاقة ، انه من عصى الله فقد حاربه ، والله لقد ادركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب ، ولقد رأيت اقواما كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت اقواماً يمسى أحدهم وما يجد عنده الاقوتاً فيقول : لا أجعل هذا كله فى بطنى ، لأجعلن بعضه لله عز وجل فيتصدق به ، وان كان هو أحوج ممن يتصدق به عليه ، رحم الله رجلا لبس خلقا ، وأكل كسرة ، ولصق بالأرض ، وبكى على الخطيئة ، ودأب فى العبادة ، اما والله لئن تدقدقت بهم الهماليج ، ووطئت الرجال اعقابهم ان ذل المعاصى لفى قلوبهم ، ولقد أبى الله أن يعصيه عبد الاّ أذله ، فضح الموت الدنيا فلم يترك فيها لذى لب فرحا ، يا ابن آدم السكين تحذ ، والكبش يُعتَلَفُ ، والتنور يسجر ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فانها عن قليل قبرك ، انك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك ، خصلتان من العبد اذا صلحتا صلح ما سواهما : الركود الى الظلمة والطغيان فى النعمة قال تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » وقال عز وجل : « ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى »

هذه بعض كلمات الحسن البصرى رحمه الله ، وقد ذكر ابن الجوزى فى صفوة الصفوة منها جملة ، وأورد ابو نعيم كتابه الى عمر بن عبد العزيز وهو طويل ، وحديث الحسن البصرى فى الكتب الستة وغيرها وابوه أبو الحسن سيار وامه خيرة مولاة أم سلمة وهو ايضاً مولى أم سلمة والربيع بنت النضر ، أو زيد بن ثابت ، وكنيته أبو سعيد الإمام أحد أئمة الهدى والسنة ، قال ابن سعد : وكان عالماً جامعا ، رفيعا ثقة مأمونا عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلا وسيماً وكان شجاعاً من أشجع أهل زمانه ، وكان عرض زنده شبراً . ولد سنة احدى وعشرين لسنتين بقيتا من خلافة عمر ومات سنة عشر ومئة .

لا روّعك الله يازيدان ! ؟

قال أبو تراب :

وقعت واقعة ما أدهاها على من به مرت ، وما أمرها فى فؤاد من ادكر .. فجيعة كأن بها النجوم هوت .. وغصة بها صفو هذه الحياة تكدر .. فقد تهدمت الملذات مذ نزعت الأرواح فلا ترى العيون الاّ وهى تبكى دما وتكف منه عَنْدماً .. كانت رزيئة هاض لها جناح الجلد فطارت قلوب أسفا واضطربت أكباد وهى حرى ، وعيون وهى شاخصة عبرى :

وإذا المنية انشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

والتعزى بعد ذلك فى الاحتساب وقدفت فى العضد وما عند الله خير وأبقى وأنا لله وأنا اليه راجعون وان له ما أودع وأن له ما أخذ سبحان مقدر الأمر ومدبره من فوق السماوات السبع لا يسأل عما يفعل وهم يسألون عما يفعلون ولكل شئ عنده أجل مسمى .

ولا أخالنى آتيا باكثر من تصوير القلم الزيدانى فى هذا الحادث المروع وهو من هو علما وحكمة وأسلوبا وأدبا رزقه الله يراعا بارعا ولسانا فالقا وكلمة حكيمة وجملة متينة تهز المشاعر وهى ذات ازدواج وتسر الخواطر وهى بنت مزاج فربما رحت بالمقولة الواحدة وهى درس فى مبحث كتاب ..

اذا قال لم يترك مقالا لقائل بملتقطات لا ترى بينها فصلا

ولكنى أقول وقد كتب الصديق الصدوق زيدان العلم والقلم وروى القصة كما وقعت وذكرنى ممن ذكر :

لا روع الله خاطر الاستاذ الجليل وقد تسببت فى اذاقته فجعا وحرسه من

طوارق الحدثان فقد كنت باعث كدر له فى ساعة نعمةو وكانت فلتة رمانى اليها هول المصيبة والجزع على الضحايا ثم الهلع على تسقط الخبر وتلمس العبر : ولم اتبصر عاقبة الأمر عن غفلة ، ولا ما يحدث النبأ من أثر غب هفوة فى قلب أب تذوب حشاشته على فلذته ، وتئط أضلاعه على ثمرة فؤاده وحبة قلبه .

وخرج من الفم ما خرج وقيل للكلم أسقط فى حماطة جلجلان الوالد دون أذنه فطاش عقل هذا الجلد الكبير الذى لا يتضعضع عند الأهوال والنوائب فكأنما أطار لى لبا وأوقفنى على العظيم الذى أثبت وما شعرت بماذا أفعل فى الأولى فشعرت بماذا وقع منى فى الأخرى فاعترانى ما يشبه الذهول وجمد الكلام فى فكى وأدركت ان اللسان صغير الجرم كبير الجرم :

حتف الفتى لسانه فى جده ولعبه
بين اللهاة مسكنه ركب فى مركبه

وسقطت مسمعة الأرزير (التليفون) من يد الأستاذ بقوله : (الله أكبر) يا أبا تراب فبهت أبو تراب فما يدرى ما يقول وغشينى من الهم ما غشى وما هى الا دقائق ويقبل زيدان وقد فدحه الأمر ومسه الجزع العظيم وأظلمت الدنيا فى وجهه وخانته قواه واعتلت بشرته صفرة تذهب بصبر الحليم وهو ينهج من الاعياء وينشج من البكاء ثم كان ما كان وما أتى به الخؤن من الزمان ، والكاذب من الحوادث والصادق من الحدثان .

أطال الله بعدها مدتك يا (فريد) وكأنما خلقت من جديد وأقر بك أعين والديك وذويك آئبا غانما تملأ دنياهما ودنياهم بهجة وحبورا فما كان أبوك الأحنف بن قيس لئلا يجزع أو يتضعضع عند خبر كهذا ، ولاكانت أمك الرميصاء بنت ملحان زوج أبى طلحة وقد أخفت منية ولدها عن أبيه حتى باشرها وازينت له وهشت ثم أعلمته بما قدر الله عند الصباح فان هذا مقام السالكين لا يصله الا

أولو العزم من العباد .

وجزى الله زيدان عنا خيرا فقد تعلمنا منه كيف تكون شفقة الأبوة على غرسة البنوة ، كما قد تلقنا منه درسا فى التأنى والتروى دون أشباه هذه النظائر وأمثال هذه القوارع والفجائع ولم يكن ما وقع منى الا عن قلة تجربة يصحبها سوء تصرف وبراءة غفلة أعقبتها ندامة وحسرة ومن أجل ذلك كان الرأى الدبرى للشيب الصلع ، والشيوخ ذوى الحنكة القنع :

وللقارح اليعبوب خير علالة   من الجذع المجرى وأبعد منزعا

ولا امتحنك الله يا زيدان فى واحد من أعزتك وأحبتك ولا أقلقك بمثلها ولعل خطيئتى يكفرها عندك صدق طويتى ونيتى وانت بها اخبر فلا تؤاخذ صاحبك على غفلة ولا تلومنه على غرة فانه لم يبلغ بعد شأوك بل هو يحبو دون بعد نظرك وعمق فكرك ولعل الاعتراف يهدم الاقتراف فاقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم :

إنما الهلك ان يساسوا بغر   لم تعره الأيام رأيا وثيقا

ثم نستمطر شآبيب الرحمة على ذلك الجدث الذى ضم جثمان الشاب النضر خالد حوارى الذى لم يقض وطره من هذه الدنيا الفانية فقد كان مصابه جللا ومنيته باخعة على تفطر الفؤاد لا يرقأ بعدها دمع ولا يزايل حين تذكرها كمد وحزن يتجدد معه الألم الدفين والشجى اللاعج ألهم الله ذويه السلوان وأعظم مثوبتهم فى الآخرة ولقد نالنا ما نال أولياءه من المتفجع العميق والغم الغارق فانما هو معقل ثل وأنس سلب وأمل تداعى وشباب ولى ..
فلا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

قال أبو تراب :

وسأل سائل الفاضل الدكتور المناع والبوح باسمه غير محظور وشخصه لنا صديق ـ عن الاسم واللقب وما الفرق بينهما وكأنما أراد ان يسبر له غورا بعد أن وجده هناك تارة وهاهنا طورا فهو جواب أكثر من واد وهيهات يضيق فتر عن مسير ؟

بيد أن السائل وقد ذهب عنى اسمه كما لا أتميز رسمه ارتد على الدكتور المناع وهو حسير فما ظفر منه بالجواب وانما قطع شسعه فى الاياب فكأنـى به يقول :

وأعـرف رشـدى ولا أهتدى وأعلـم لكننـى أجهـل

ولست أعلم ان كان السائل قصد من سؤاله الدكتور المناع نفسه أهو اسم سمى به أو تسمى أم لقب لقب به أو تلقب أما ان كان السائل غير عابث بل هو مسترشد جاد فى طلبته فلا بأس فى أن يلقى اسعافه من الجـواب وهـديه الى الصواب فى سطور تتلو هذه المقدمة وقد دفع الى دفعا على رغم ما أعانيه رتقا أو رقعا وسوف أكون موجزا له ذلك ايما ايجاز لتكون الكلمات آخذة بحجز بعضها دون الاسهاب الممل أو الاختصار المخل ..

ولا يجأرن بعد ذلك بالشكوى اذ أستأنس معه فى المفتتح بأطروحة تشبه التساؤل عن أى اسم يسأل هذا السائل أأسم الفاعل يريد أم اسم المفعول أم اسم الفعل يقصد أم اسم الاشارة أم اسم العدد يروم أم اسم التفضيل ولابد من أن نأتى ها هنا بهاء السكت لئلا نسترسل فانها أولى من سين الكسكسة وشين

الكشكشة وان كنا لا نحجر واسعا .

أما بعد فلعل السائل يستفسر عن الاسم العلم وذلك ما تدل عليه القرائن والعلامات وها نحن أولاء ندله على تعريفه فهو ما وضع لشىء بعينه غير متناول غيره بوضع واحد وقلنا هذا لأن الاعلام المشتركة بوضع ثان أى بتسمية أخرى كما اذا سمى شخص بابن الشاطىء ثم سمى به آخر ايضا فالاسم الواحد هنا وان كان متناولا شخصين ولكنه بوضعين مختلفين فالمعين الأول بوضع والمعين الثانى بوضع آخر ..

والاعلام ثلاثة أضرب يا فتى ١ ـ الاسم ٢ ـ اللقب ـ ٣ ـ الكنية .

فالاسم هو اللفظ الدال على ذات مشخصة لا يقصد به مدح ولا ذم كزيد وعمرو واللقب هو ما يقصد به اما الذم واما المدح فالمدح كفخر الدين ومظفر الدين والمصطفى والمرتضى والذم كعائد الكلب وخرق الناقة وذقن القدم والكنية تكون بالأب أو الأم أو البنت أو الابن مضافات نحو أبى بكر وأم عمرو وبنت وردان وابن الشاطىء وابن آوى ..

وان شئت فالفرق بين الاسم واللقب ان الاسم لا يقصد به الا الذات المشخصة دون نية مدح أو ذم واللقب يقصد به أحدهما أما المدح واما الذم واما الكنية فالفرق بينها وبين اللقب ان اللقب صريح فى المدح أو الذم بمعنى اللفظ الذى نحت منه اللقب بخلاف الكنية فانها غير صريحة بلفظها فى المدح أو الذم بل هى دالة على ذلك بدون التصريح بالاسم فان بعض النفوس تأنف من أن تخاطب باسمها فهى كناية عن المعنى المراد وقد تكون بالأولاد أيضا كمن يسمى بأبى الحسن وقد تكون تفاؤلا كذلك منذ الصغر .

فابن الشاطىء اذن كنية لتلك الشخصية التى تكنى عنها فاجعلها كما شئت وليست هى بلقب لأنها غير صريحة ولا هى باسم لأنها مصدرة بلفظ ابن وأما فخر الدين وأشباهه فألقاب لأنها صريحة فى المدح فلو سميت بشىء منها

أحدا دون قصد المدح كان اسما لأن الاسم هو الذى لا يقصد به مدح أو ذم بل اذا أطلق دل على ذات معينة فقط دون اعتبار المعنى فهل فهمت يا هذا نفعك الله بهذا العلم ؟

والى ذلك أشار الشيخ ابن مالك اذ قال :

اسم يعين المسمى مطلقا علمه كجعفر وخرنقا
واسما أتى وكنية ولقبا وأخرن ذا ان سواه صحبا

والبحث فى هذا بعد ذلك طويل الذيل واسع الهدب فمن الأعلام ما هو منقول ومنها ما هو مرتجل ومنها ما هو جملة ومنها ما هو مركب ومنها ما هو ذو الاضافة الى غير ذلك من مباحث التقديم والتأخير فى الألقاب والأسماء والكنى واسماء الأجناس وأسماء الأشخاص وهلم جرا ..

فاما ترين منها فقل انى أعطيت لابن الشاطىء عهدا ان لا أسأل أحدا وهاك يا ابن الشاطىء يا كنية بلا اسم ويا معرفة بلا لقب جوابا غير نكرة لعل رسولك منه يفيد وأرجو أن لا يقول هل من مزيد ..

* * *

قال أبو تراب :

ثم لا أدرى ما الذى دفع الفاضل الصديق عبد العزيز الرفاعى الى التظرف بذكر حذف نون النسوة من الكلام فقد كتب قبل مدة كلاما كهذا وكنت أحب أن أضيف الى ظرفه ظريفة أخرى ولكن حال دونها انقطاعى عن الكتابة مدة ليست بقصيرة فلما عدنا اليها عادت الذاكرة تجتر من ماض قريب وماض بعيد وما هما الا حواضر وخواطر وتعقبات وتعليقات تبقى آيات لنا ورسوما وها هى ذى الظريفة التى تتمثل فى القصيدة أهديها اليه وقد نشرت فى الرسالة قبل احدى ثلاثين سنة وهو من قرائها وهى من نظم الدكتور عزيز فهمى حين قرر نسوة فى مؤتمر انعقد قديما المطالبة بحذف نونهن من اللغة تحقيقا لبغية رمين اليها فقال الدكتور :

هلا أتاك حديثهنه ؟ النون ليست نونهنه
هذا القرار وثيقة افصح وذكر جمعهنه
النون تخدش سمعهن وما أرق شعورهنه !
ظلم الرجال نساءهم ما للرجال وما لهنه ؟
النون فرض كفاية يكفى النساء فروضهنه
والميم أحسم للخلاف فلا تثيروا كيدهنه
برىء النساء من الأنوثة مذ ملكن قيادهنه
عفن الخباء وما الحياة اذا لزمن خدورهنه ؟
عبء الامومة فادح حسب العقائل حملهنه
حسب العقائل ما احتلمن وما حملن من الأجنة

ما للغوانـــى والرضا عة ؟ ان هذا الفــرض سنة
فاذا صدفــن فلا جنا ح وان عطفــن فتلك منه
رفــع النقــاب فلا نقا ب لهــن غــير حيائهنه
أسر الرجــال نساءهم حتـــى استحــال أسارهنه
وطغـــى الحليل على الحلا ئل واستبــاح حريمهنه
عقــد الوثــاق فما شكيـ ـن ولا برمن بحالهنه
ومــكرن مكر خديعة وجذبــن من يده الأعنة
الطــير راش جناحه قدر ينــير له الدجنة
وتمــرد الحمــل الوديـ ـع على الذئــاب المطمئنة

أما بعد : فالسلام على وعليكم يوم نموت قبل أن نذل ونخزى .

قال أبو تراب :

شربنا وشربت الأرض من هذا الوابل النازل ضحكت منه زهرات الدنيا بمسرة ، وبكت عليه سحائب السماء بلا أحزان :

وجاد بالقطر حتى خلت أن له ألفا نآه فما ينفك يبكيه

وارتوينا وما ندرى هل ارتوت الأرض ، ولكنا رأينا المطر يسح سحا وكأنما أرخت السماء عزاليها وهمعت ، وتحلبت أطباؤها وفاضت ، فما كان طلا ولا رذاذاً وانما كان هطلا وتهتاناً ، وكان الرعد قعقعة مجلجلة ، يصاحبها البرق مرتعجاً خلباً كأن (بأجوازه أسداً لهن برابر) :

الرعد فى اصطكاكه خطيب والبرق فى خلاله لهيب

وتذكرت قول الاعرابى وهو يدعو : اللهم اسقنا غيثاً سحا عاماً طبقاً غدقا طشا جوداً نضخاً وسمعه بعضهم فقال لصاحبه : هيا الفرار الفرار فو الله أنه الغرق !

ولعمرى أين هذا من كلام البلغاء فقد وصف بعضهم السحاب والبرق فقال : « زجرت الرعود أردافه ، وأضحكت البروق أعطافه ، وحلبت الجنوب أحلافه وبرق كنبض العرق ، وخفق القلب ، وبطن شجاع يضطرب ، ولمع المرائى فى أكف الكواكب كسلاسل تبر » :

كأنما الرعد بها ثاكلة نادبة تخلط نوحاً بشجى

فاقـــدة واحدهـــا تذكرت ماقد مضى من عيشها ومـــن مضى
والبـــرق فى حافاتهـــا يفعـــل ما يفعلـــه وجـــد الحزيـــن فى الحشا

ورأينا جدة وقد استحالت شوارعها مشارع ، يتدافع فيها الماء زاعباً راعباً ، سيلا رامياً بالزبد وترى السيارات الفارهة فيها من جدد بيض وسود وحمر ألوانها وهى تمور كالفلك تتقاذفها الصدور والأكف ، وتجرها الحبال والاشطان .

جاءت تهـــادى مشرفـــاً ذراها تحـــن أولاهـــا على أخراها

فاذا ما هبطن المحافر بكين بها حتى تجف الأرض أو تعود قرقراً ، أو يشيط الوحل فينقلب صلصالا ، اللهم الا سيارة الأديب العمير فنشهد بأنها كانت تأخذ المحجة لقماً ، وتلاحق النجدة سمو الحباب على الحباب .

فالطريق الغطشاء البهماء مضلة السالك كأنما لها منها أعلام وكواشف تسطع على البغش من المطر ، والرهمة من الرش ، فحق له أن يطلق عليها « طوربيد » الأمطار والسيول وأنا أسميها قذيفة الجو أو مقلاة الهواء ، بارك الله له فى هذه الهائجة فلا تتمرد عليه جافلة .

وهذه الشوارع التى أضحت جوابى ودعاثير ، ومستنقعات للمعصرات كأنها جداول ثجاجة ، أو أفلاج مسبخة ، أو مشارع تخوض فى غمارها أرجل الذين لا يملكون الاجتياز الا بها ـ رآها الأستاذ عبد المجيد الشبكشى وهو يوصلنى أمس إلى بيتى وقد اشفقت على سيارته من العطب إذا غاصت وساخت عجلاتها فى قعر البلد حيث أسكن بباب مكة المكرمة فنزلت وهو راكب ورأيت وهو شاخص ببصره إلى بركة من البرك مدت « البلدية » فيها خراطيمها تسحب الماء وقد أعياها السحب ، وهى ملتفة كالأراقم ، والرجال النشطون حولها عكوف ركع يلاحظون وهم لربهم يحمدون ان سقاهم ما كانوا له يعطشون ، وأنشد ثمة لسان حالى ، وقد رأيت دارى قبالى :

بيـت جرى الماء فيــه من أسافله ومـن أعاليـه حتــى ساخ منطلقاً
كأننــى وعيــالى فى جوانبه طيــور ماء على نهــر قد التبقا

غراب العمير

قال أبو تراب :

أما بعد فكلامنا اليوم مع غراب العمير مقلد الحجل أعجب القارئين قدحه المثعب ، وما يدرون أن جرته ملأى تفعوعم دسماً وحسبك به شبعاً ، فاذا كان الجزء منه دلالة على جزء معناه فما هو بالقول الشارح كالزامر الهندى كاسر بعينه ، وحدد إلى الثعابين نظراً ، حتى خدرها نفوذاً . وماهن كعوامر البيوت تستأمر فى جحورها ، وتؤمر بخروجها كما ورد بذلك الحديث .

وغراب العمير قابل للتعليم وصناعة الكتابة بالإلتزام ، مضى يتلقى العربية فنسى لغته فصار ينعب ويقول : (غاق غاق) فما كان ضحاكاً بالطبع ، وانما قضى عليه التصريف فأصبح النقر والبحث منه موضع التشاؤم لدى الكهان الذين أبطل الاسلام صناعتهم وما يكون إلا ما يريد رب السماء .

لعمرك ماتدرى الحواصب بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وما أتعس الغراب الذى قال عنه الدميرى : ان أقصى عمره ألف عام ، وسواء صح هذا الزعم لدى علماء الحيوان أم كانت فيه مجازفة فان الشقوة التى غلبت عليه لا تعفيه من النقب فى السباطات والمزابل سداً لجوعة تلازمه ، وسغب أطار لبابه ، حتى وصفوا دماغه لجلب القلق ، ونفى الوسن . والشاعر يصف هذا الغراب نظماً كما نعته العمير نثراً فيقول :

ان الغراب كان يمشى مشية فيما مضى من سالف الأجيال
حسد القطا فأراد يمشى مشيه فأصابه ضرب من العقال
فأضل مشيته وأخطأ مشيه فلذاك كنوه أبا مرقال

أكثر الله جنس الغراب الابقع ، من فصائل القمرى الاسجع ، فللنفوس من صوته النغوم طرب إذا صدح ، وللبطون من أكله الشهى شبع إذا أمرأ ، وأدام الله للغراب الأسود الخصاصة والسغب وعجل له الهلاك والعطب ، فقد أمرنا بقتله ، محاربة لنسله :

وإلى الفاضل العمير ، الموزون فى لطفه بالنغير هذه الطرفة المخزونة ، على حد روايته المكنونة ، أتى بها شاعر سابق ونقلها عنه ساطر لاحق ، وهو يقول :

غراب تعلــم مشى القطا وقــد كان يحســن مشى الحجل
فهــرول مابــين هذا وذا فلا ذا تأتــى ولا ذا حصل

ونحن نعلم أن فى ليل سواده آية سلخ منها النهار ، فاذا المجاز أصل فيه لايستعار ، فما ينفعه الاستعلاء المفرط ، ولا التكبر المشنج ، فالمجامع والمحافل والمحاضر والقماطر ، تجمع على مدار القرينة ، وتوافق على اعتبار الامارة ، ولو لم يكن الحق يأبى أن يستوى العاقل والجاهل لكان الوهم يبرز فى المفاضلة بين السواد والبياض ما تنتفى معه العلة ، وينصب الحكم على المعلول ، وانما مضارعة الجزاء لمن انتظمه قوله تعالى : « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله » . والبياض ها هنا من صالح الأعمال وليس السواد هناك إلا من فعل الصانع .

وتحيتى للعمير لا تحية نفاث فى العقد ، ولكن تحية حميـدة المغبـة ، يمتلىء كشحاها بمضمر الصداقة ، ومضمون التقدير فهو غرة اخوانه وجديا خلانه ، غير خفيف النعامة إذا طاش ، ولا قلق الوضين إذا زهق ، وحاشا أن ينطبق عليه المثل القائل : ان ثؤلول جسده لا ينزع لأنه لم يعجز عن تقويمه وتهذيبه وتعليمه وتثقيفه ، وفى الأيام له دروس يتلقنها ، وفى جامعة تجاريبها له عبر يستظهرها ، فاذا بمخايل النجح تتراءى لك من بين عينيه وفضيلة الترفع تتمثل لك من بين يديه ، أكرم الله غرسه وجعله مسوداً مؤيداً ، وبارك له فى صناعة القلم حتى يدوم

تسكابه وهملانه ولا قطع صداقاته مع الحمير والخراف والغربان .

نعم الفتى انت يوم الروع قد علموا كفء إذا التف فرســـان بفرسان

قال أبو تراب :

وكنت أرسل الكلام ارسال الهزل ، فاذا بالكلام يتتبع تتبع الزلات ، واستظهر من لم يتعظ وفاظت نفس إذ هي تقول :

لقد لامنــي فى حب ليلى أقاربى أبى وابن خالى وابن عمـى وخاليا

لكنى شاكر هذا التتبع لا ينزع منى الشوى ، وانما يذكى الحجى ، ولا يهد البنى .

وهل أقول : صاب تزكين « العريف » وأنا أخاله سحراً ، وقد عرفته رئيساً أيام « البلاد » بالشامية وأنا دونه أناطح ، أم نفث فى روعى أن أكتب كلمة هى رجع إذا قيل كيف الصدى ، وهى مور فى الكبد وأن لم يذهل النهى .

نعيش إذا التقــى كف وكف وكيف إذا التقــى جيــد وجيد

أيرشدنى أبو الادب وهو خير من درى بخبر الصحف متقحمة مبادهـة ، لا تبدو منها عورة إلا وبادهتها طعمة ، وأنا أبادر إلى حيازتها ، وأسارع إلى اختطافها ، ثم اثاب إن حالفنى الحظ .

كيف تقول يا هذا وكنت رئيس تحرير إذا فاجأوك بصفحة هى فراغ بلقع ، ويفترض محررها نهزة هشاشة ، لتطلع على القراء فى انتهاب مختطف ، وبضعة تلتهم .

إننى اليوم ولو لم أكن فى حل من التصريح كشفت عما هبعنى القـوم ، وحسبى أنى اذكيت العيون عليه ، ونصبت له الابصار .

ولســت بمفــراح إذا الدهــر سرنى ولا جــازع من صرفــه المتقلب

وما أنا إلا كالبعير يجتر مما اختزنه فى جرانه ، ولا كنت إلا كمن يعطى بما ينحت من الخشب ذهباً .

فلئن تقلد عملا سواه ، أو وجد مواتاً أحياه ، أو رأى ضالا هداه ، وتلك هى سبيلنا افتلومنا على سبيل نحن وأنت على دربها سالكون .. ولا تلجئنى إلى أن أقول :

أقــل سلامــى حب ما خف عنكم واســكت كيما لايــكون جواب

والأمر بعد ذلك يسهل ولا يثقل ، ويخف ولايسف ، والأعلم بالشأن يعذر إذا هو ادرك ، وما معرفتى له إلا كريم الخصال لا توطأ له الآثار ، وقد كان قبل أن يكون رئيس عاصمة هى ـ مكة ـ حاوى قصبات ومورد رايات .

فلــو دنيــاى قابلنــى غناها بغــيرك ما ثنيــت لهــا عنانى

أما ثناؤك على العبد بحرية الفكر ، فتلك لعمرى مدحة لا اعتادها ولو ـ والله ـ انها جاءت من أستاذ ثقيف أحب له كل رغيبة لكن أين ان يسامى السحاب .

اتريدنى وقد امتلأ كشحى أن أثيرها من جديد ، إذن لسقطت من السطح ، وأنى مترفق بى مستفاد ، أبر وأكلأ ثم اتوفد على قلل الجبال .

وحــق لمن أبــو موسى أبوه يوفقــه الــذى نصــب الجبالا

وما يهلك إلا الناكثون . ولا يمترى فى الأمر إلا المرتابون ولكم وددت أن تكون للبلاد حواش هى بمثلك تتحلى ، ثم هى بفعلك تتجلى ، ولا نكذب ونحن

نلوم « زكي مبارك » :

قد سلونـــا هواكمـــو واســـترحنا وأمنـــاً من هجـــركم والتجني

فان شاعرنا القستي ـ رد الله غربته ـ يقول :

سنرســـم الخطـــة المثلى لعاطفة كادت من الكبت أن تروي حكاياتي

قال أبو تراب :

هل تعرف يا فتى ، ماذا قال الأصمعى فى كتاب الدلدل .. هاك نصاً لقصيدة حفظتها وأنا يافع ، شاكاً فى النسبة والتيلاد ولعلّها مصنوعة لتحفيظ الغريب :

رحلت العيس فى البيدا أقول الشعر فى العظلم
وتحتى جسرة أدما من المهوية الخطم
قطعت القفر فى خوف وهول أمره يعظم
رأينا جوفها الأشبال والدلدل والشيهم
بها الأخناس والبرقاش والخزان والضيغم
بها الطحلان والغطلان والضبعان والغيلم
بها الأخناس والرقاش والمكاء والعكوم
بها الدغماء والخلجاء والينوب والعجوم
بها الفرعل والسمعال والدلدل والقلزم
بها الظلمان واليعفور والرغلان ما تزلم
بها السفاء والطرفاء والسعلان والسمسم
بها الدلعوم والأخطل والنمسان والعلجم
فهذا كله جزنا إلى هند وما تعلم
وهند تشبه البدر وهند تفطر الصوم
لها عينان كاللحوان كل الخلق قد تكلم
سقاك الله يا هندا غيوث الدوم السحم

وأخبرني عن الاطبـاء أخبرني عن العندم
وأخبـرني عن النشـاج أخبرني عن الأقصـم
وأخبرني عن الضـباء أخبـرني عن الأكعم
وأخبـرني عن العطـاس أخبـرني عن الاثـرم
وأخبرني عن الرقبـاء أخبـرني عن الأكـزم
وأخبرني عن الثعـلاء أخبرني عن الاشـيم
وأخبـرني عن الثباج بالأمـواج قـد يطـوم
وأخبـرني عن القصـواء أخبرني عن الأعلم
وأخبـرني عن الدلاج بالأمـطـار قـد يقـدم
وأخبـرني عن الجـوزاء والنسـريـن والسـوطم
وأخبـرني عن المغـراء أخبـرني عن الديـلم
وأخبـرني عن القرصـوم والـرقـاء والشـدقم
وأخبـرني عن الاغريض والتمسـان والهيهـم
وأخبـرني عن الزيزاء والسـنـوت والكهـكم
وأخبـرني عن الدلماء والـوراق والشـدقم
وأخبـرني عن الزعفـر والمشـكال والاختم
وأخبـرني عن الأشـباح أخبرني عن الضـبوم
يرى في جوفـه مسـك من السـبطـي لم يحطم
وصـفـت الشـعـر في هند ووصـفـي كلـه محكم
غلبـت النـاس بالأشعار وصفـي كلُـه مُبرَم
فمـن هـذا يوازيني بشـعـر مثلـه يعلم
غـزال قرنـه بشـر بمنظـوم ولـم يعـلم

ومما يناسب الدلْدُليّة ما أورده صاحب اللسان من شعر بشر بن المعتمر :

تبــارك الله وسبحانه ... من بيديه النفــع والضرُّ
من خلقــه فى رزقــه كلهم ... الــذّيخ والثَيْتَــل والغُفْر
وســاكن الجّــو اذا ماعَلاَ ... فيه ومــن مسكنــه القفر
والصَــدَع الأعصــم فى شاهق ... وجأبــة مسكنهــا الوعر
والحيّة الصّماء فى جحرها ... والتُتْفُــل الرائــغ والدَرُّ
وهِقْلــة ترتــاع من ظّلها ... لهــا عرار ولهــا زَمْر
تلتهــم المَرْوَ على شهوة ... وحَــبُّ شيء عندهــا الجمر
وظَبْيَةٌ تَخْضِــمُ فى حَنْظَلٍ ... وعقــربٌ يُعجبهــا التمر
وإلْفَــةٌ تُرْغُــثِ رُبَّاحَها ... والسهــل والنوفــل والنضر

قال أبو تراب :

وذكر ابن دريد عن أبى حاتم قال : كان بكر بن حبيب فصيحاً ، وكان يقرأ فى ظل قصر أوس فقال بعضهم . ما أطيب هذا الفىء فقال بكر : ليس هذا الفىء ، انما الفىء يكون بالعشى .

قلت : تسمية الفىء بالظل غلط . فلذلك نبه عليه ، والفىء ما انصرفت عنه الشمس من الأرض جمعه افياء ، ويسمى الظل التبع ، لأنه يتبع الشمس فى زوالها ، وكنيته أبو مرحب ، ذكره الأمير أمين فى الرافد ، وفى القاموس : ان الضح ضد الظل .

وأورد الثعالبى فى فقه اللغة (ص ٣٢٨) : عن حمزة ابن الحسن أربعاً وعشرين لفظة فى تعديد ساعات النهار والليل ، فمن ساعات النهار : الشروق ثم البكور ثم الغدوة ثم الضحى ثم الهاجرة ثم الظهيرة ثم الرواح ثم العصر ثم القصر ثم الأصيل ثم العشى ثم الغروب ، وساعات الليل الشفق ثم الغسق ، ثم العتمة ثم السدفة ثم الجهمة .. وفى بعض الروايات الهجمة والفحمة وكلاهما غلط ـ ثم الزلة ثم الزلفة ثم البهرة ثم السحر ثم الفجر ثم الصبح ثم الصباح . وباقى أسماء الأوقات يجىء بتكرير الألفاظ التى معانيها متفقة .

وفى كتاب الألفاظ الكتابية للهمذانى (ص ٢٨٧) آخر الشروق عند الضحاء ، وفرق بين الضحى والضحاء ، وذكر قبل العشية الطفل إلى غير ذلك من الاختلاف ، وفى كتب السير ، أنه صلى الله عليه وسلم دخل المدينة فى الضحاء .

قلت : ولا يقال : غزالة الشمس إلا عند ارتفاعها ، ولا الفيء إلا إذا زاغت ، ودلكت ، وشاهد ذلك قول حميد بن ثور الهلالى :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشى تذوق

وهو من قصيدة له مطلعها :

نأت أم عمرو فالفؤاد مشوق يحن إليها والها ويتوق

أما القصر الذى ورد ذكره فى خبر بكر بن حبيب هذا فهو قصر أوس بالبصرة ينسب إلى أوس بن ثعلبة بن زفر ذكره ياقوت فى معجم البلدان ، وكان سيد قومه ، وقد ولى خراسان فى الأيام الأموية ، وحميد بن ثور شاعر مخضرم مات فى خلافة عثمان ذكره الحافظ ابن عساكر فى التاريخ الكبير ، وللشيخ عبد العزيز الراجكوتى تقييد فائت شعره نشره فى مجلة ثقافة الهند التى تصدر بدلهى ، وبكر بن حبيب هذا الذى فضح أبا معمر المنقرى خطيب البصرة فى غلطه هو السهمى من الطبقة الرابعة من نحاة البصرة ذكره الزبيدى فى الطبقات .

وهو والد المحدث عبد الله بن بكر ، وذكره ياقوت فى معجم الأدباء وقد أخذ عن أبى اسحاق ونقل السيوطى فى بغية الوعاة : أن شيخه قال له يوماً . أنى لا ألحن فى شيء فقال له : تلحن ، فقال : خذ على كلمةٌ ؟ فقال هذه واحدة قل كلمة ؟

وقرب منه سنورة ـ أى هرة ـ فقال له : اختأى فقال له : اخطأت قل : اخسئى ونقل قصة تخطئته شبيب بن شيبة عن الحافظ ابن عساكر .

واسقط ترجمة بكر بن حبيب هذا الشيخ عبد القادر بدران من تهذيب تاريخ ابن عساكر . وفى أساس البلاغة للزمخشرى شاهد آخر على أن الفيء لايكون

إلا بعد الزوال وهو قوله :

لعمـــرى لأنـــت البيـــت أكرم أهله وأقعـــد فى افيائـــه بالأصائل

وفى صحاح الجوهرى ؛ الفىء ما بعد الزوال من الظل ، والتفيؤ (تفعل) من الفىء وهو الظل بالعشى كما فى اللسان وفى القرآن المجيد (تتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل) وتفيؤها رجوعها بعد انتصـاف النهـار ، وابتعـاث الأشيـاء ظلالها ، قال ابن منظور : والتفيؤ لايكون إلا بالعشى والظل بالغداة وهو مالم تنله الشمس والفىء بالعشى ، ما انصرفت عنه الشمس وانما سمى الظل فيئاً لرجوعه من جانب إلى جانب .

قال ابن السكيت فى اصلاح المنطق : الظل ما نسخته الشمس ، والفىء ما نسخ الشمس وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال كل ماكانت عليه الشـمس فزالت عنه فهو فىء وظل ، ومالم تكن عليه الشمس فهو ظل .

قلت : ومن محاورتهم فلان لا يقرب من افيائه ، ولا يطمع فى أشيائه . ومن المجاز تفيأت بفيئك ، أى التجأت إليك ، وقد استعمل امرؤ القيس « يفـىء عليها الظل » بمعنى يرجع .

بيني وبين البيض

قال أبو تراب :

زميل لنا فى موضع العمل هو من الاصحاب وديد ووميق ، ان شاقنا بانشاد محفوظه طوراً اردفناه بروى علمنا اطوارا ولا نكران للطف معشره ، ودماثة خلقه ، فتلك خلال نجم هو من صنوها ، وطلع شخصه من قنوها فهو على كل محمود التصرف منه ، طيب الاجتماع به محمد الاسم ، البيض الملقب ، سألته ما الوجه فى « البيض » هذه فقال : هى من الايام البيض من كل شهر وهن ١٣ و ١٤ و ١٥ وكان بعض صالحى اجداده يلازم صيامهن كما فى السنة فلقب بهن تيمنا ، لا نبزا ولا تعييرا ، افاد الله صاحبنا السيد الجليل ، ونشر عليه اجنحة الشعر حتى تجعله تحت حضنها فلا يصفر له منها اناء ، ولا يغور له منها ماء . ذلك لانه بارك الله لنا فيه كثير الولوع بالشعر وضروبه ، بعيد الحافر عن قرضه وذناباه ، وما يكون الا بقدر قبسة العجلان ، وانت تراه قد حفظ لك قطعة احسنت فيها النظر والصنعة ، وجودت فيها التعليل والاحكام ، ثم لو سقطت من السطح ، لسبقك الى الدرجة وكأنه بارى تلك القوس ، او سامى ذلك السحاب ، وهذا من احب الاصدقاء الى لانه يحفظ للكريم اثره ، ويرعى للمعروف انسان عينه ، وفيه روح طلب العلم التى نكاد نفتقدها فى الاكثرين نفخا ، والرافعين صدرا ، والقائلين هجرا .

وقد اتانى امس وهو يركض ركضا وفى يده الكريمة جريدة « عكاظ » وضعوا فى ذيل من ذيول صفحاتها ابياتا ثلاثة فى وزنها انكسار وفى تفاعيلها زيادة وبتر فراح الشيخ الفتى والجذع القارح محمد البيض يسألنى ما البحر فقلت :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مرتين وصحة الابيات هكذا :

جاءت سليمان يوم الحشر هدهدة اهــدت له من جراد كان فى فيها

وانشــدت بلســان الحــق قائلة ان الهدايــا على مقــدار مهديها

لو كان يهــدى الى الانســان قيمته لكان قيمتــك الدنيــا ومــا فيها

فقال : هكذا والله كنت احفظ قلت : نعم المدخر العلم ونعم المستطرف السؤال وانت لك منى التحايا يا طلاع انجد ، وقطاع مرصد ، وليت الكل محب للفائدة يوطن عليها نفسه ، ويشد لها ازره ، واما التفاعيل المكسورة ، والعروض المختلة التى احس بها صاحبنا دون اتقان لصنعتها ، وانما تذوقا لجرسها فهديتى اليه ما قال فيها ابن طباطبا ولست اومن بكل مضمون ومشحون فى هذا الموزون والمخزون .

كل العلــوم يزين المرء بهجتها الا العروض فقد شانت ذوى الأدب

بى الدوائــر دارت من دوائرها ما لا مــرىء ارب فى ذلك الأرب

فاستعمــل الــذوق فى شعــر تؤلفه وزن به ما بنــوا فى سالف الحقب

الجلوازية وتفسيرها ! ؟

قال ابو تراب :

أنشأ الصديق الاستاذ عبد الغفور عطار مقامة لغوية سماها (المقامة الجلوازية) وتظرف الصديق الصدوق الأديب الفاضل عبد الفتاح ابو مدين فطارحنى بها وهو رئيس لتحرير مجلة (الرائد) وطارح معى اثنين من الادباء المشاهير هما : الشاعر الراحل الاستاذ محمد مصطفى حمام احد الظرفاء والرواة ، والشاعر النحاتة المطبوع حسين سرحان لفك طلاسمها كما زعم ، وحل معضلها ومغلقها . وظنت المجلة ان بعض كلماتها مخترعة . وتأملتها على رغم طرآن النسيان على الذاكرة فاذا هى لا تستعصى الا على من لم يقف على مواردها فى بطون المعاجم ، وهى مقامة حسنة ليس فيها من الغريب ولا المهجور ولا الحوشى من الكلام شيء ، وكلها منتظم مترابط فصيح بليغ مستعمل فى الكلام .

وقد فسرتها جلها من ذاكرتى ، واسعفنى فيه روافد المحفوظ العالق بالذهن ، ومن الأسف ان يصبح المألوف عند القدماء نادرا لدينا اليوم ، لذا ترى عصبة تحرير الجرائد اعتدوا المقامة كلها نادرة ، وهى آلف من قط ربته ربوب بيوتهم .

وهأنذا اوردها بتفسيرى وهو ما بين الهلالتين لتثقيف معارف الجيل الحاضر ، وسوف أقتصر على بيان المعنى دون ايراد الشواهد والامثال مخافة الاطالة ، واليك ما اردت وبالله التوفيق .

لا ندرى ما نصنع مع الجلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطى) الجهلة ، الظلمة

القتلة ، يأخذون الناس بالهجس والوهم ، والكذب والزعم ، ويتطاولون على الأبرياء بالرضخ والرجم ، والتذقح (أى التجنى) واللغم ، وقد كنت فريسة جلواز عباماء (يعنى الأحمق) له فى الباطل همة قعساء ، رنق السوس (مكدر الطبيعة) شديد العبوس ، ركبه الهوى . فأراد ان ينزع منى الشوى (يعنى المال او الأطراف) ويقلمعنى بالوبيل (أى يضربنى بالقضيب) ويلعن منى السنسفيل .

كنت أمشى وحدى ، والعجاهى (أى المتكبر الأحمق) التابع لى من بعدى ، فصادفنى جلواز حقير ، لا فى العير ولا فى النفير ، مصاب بكل عاهة وقبح وداء ، من الجنف (أى انحناء الظهر) الى القوباء ، والضبوب (داء فى الشفة) والجلع (هو فغر الفم بحيث لا تنضم الشفتان) والقادح (أكال الأسنان) والخلع ، (أى الالتواء فى العرقوب) والفَسأ (هو دخول الصلب فى الوركين) والبشع (رائحة الفم) والطرط (قلة شعر العينين) والزمع (سرعة البول) والضوط (يعنى العوج فى الفك والذقن) والزلع (تفطر فى الجلد) والقلاع والقمع (الأول داء فى الفم والثانى فساد موق العين) والسأف (تشقق الأيدى) والكلع (وسخ الأسنان) والصلع والحنف (أى الاعوجاج) والجحظ والخنف ، والهوس والجنف ، والصعل (ذهاب الشعر) والشنف والسبل (غشاوة العين) والغضف (استرخاء الأذن) والخزل (مشية التثاقل) والنطف (البشم) والحذل (احمرار العين) والحسبة (البرص) والبزخ (خروج الصدر ودخول العجز) والحمرة والفتخ (استرخاء المفاصل) الى كل داء خبيث ، وخلق غثيث (أى فج) .

رآنى الجلواز البرديس (الخبيث) فقابلنى بالسخرية والتخفيس (الاستهزاء) فسكت انا سكوت البرغيس (أى الصبور) فتمادى فى الغى والوره (أى الحمق) وشره على الشر اى شره ، ثم زعق زعقة ، وبصق بصقة ،

وتطاير من البصقة نفيانها ، وتلوث من جبتى اردانها ، فنظرت اليه معاتبا ، ونظر الى غاضبا ، وافترسنى بحملاقيه (أى عينيه) ونطحنى بروقيه (أى بقرنيه) وزعطنى (خنقنى) حتى كادت عيناى تقفزان من الحجاج (هو عظم ينبت عليه الحاجب) وسد على رغيب الفجاج ، (اى واسع الطرق) .

ومع هذا تركته وانا فى ضيق ، وتصبب منى الصيق (اى العرق) وجف بفمى الريق ، واظلم السنا والطريق ، ولم ارد أن اشتبك معه فى معركة ، لأنى انبل من هذا الصمكيك (اى الجاهل) الضحكة ، ولئلا تقطع الطريق ، وتقف الحركة ، ولكنه دمق (اى دخل) مناغبا أى مفزعا بصوته ورفع يده مضاربا فصحت به : ويح لك وويخ وويب (أى ويح وويب وويس وويد وويل اخوات بمعنى واحد) يا بول الخيل ، ونتن الثيل (وعاء للبول) وحشفا وسوء كيل ، أثبت لأهيل عليك المنايا شرهيل ، اتريد مال اليتيم ، وعيش الصهميم (حلوان الكاهن) وحازرته (أى تأملته) ثم شاررته (أظهرته للشر) الا أن الجلواز انتزع منى حديدة مؤللة (مسنونة محددة) ورفع عقيرته (صوته) ثم اهـوى حديدته ، فرغت منها ، فغاصت فى الثرى مترا ، فطفرت طفرا (نقزا) واخذت جراميزه (أى مجامعه) وبعثرت شواريزه (حوائجه) وتفاقسنا وتقافسنا (أى تجاذبنا) وتطارحنا وترافسنا حتى طرشم النهار (أى أظلم) وحاول الفـرار ، ولكنه تشجع عندما رأى جلاوزة عشرة لهم عياط ومياط ، (أى صياح وزجر) ومره ، (أى شدة) ووقفت لهم كالزبعرى (الدابة الغليظة) واعتنشت (أى اعتنقت كبيرهم القبعثرى (عظيم الخلق) فزاطنى (أى نازعنى) ، فزعطته (أى خنقته) ورمطنى (أى طعننى) فخمطته (أى غلبته) ونزج ونفج (أى رقص وثار) ولج وفحج (أى تكبر) وغافلنى الصعلوك وقذفنى بدملوك (أى بحجر) فثقفته وأعدته الى القاذف الضبراك (أى سويته ، والضبراك الضخم الشديد) فوقع مغشيا عليه بميدان العراك ، فأمسكت به من ارصوصته (أى

قلنسوته) فأرضك (أى اغمض) عينيه ، وتوكوك (أى جبن وهم بالفرار او تدحرج) ورضخته على العكوك ، (أى المكان الصلب) واسرع رفاقه الوعاوع (أى الاجريا الأشداء) فلهدت اولهم لهداً (دفعاً) فاغرنشم (أى ذبل) وتدهدى (أى تردى) وغيره اخدى (أى مشى قليلا قليلا) واضدى (اى تعلل) وتقدى (اى تسنن) ومنهم من نخا (اى تعظم وافتخر) وأودى .

وكان منهم غيدانة (أى شاب) علندى (أى شديد غليظ) وشد على شدا ، فأددته (أى دهيته) أدا ، وبرزت بروز الرئبال (أى الأسد) من العرزال (أى العرين) ورأيت الأشباح خلل القسطال (أى الغبار) وبصروا بى برغم اشتداد العماس (أى العراك) فقصدنى احدهم منقضا كالهماس (أى الأسد) وتوعد وتشذّر (أى تهدّد) فقلت له : قَدك (أى حسبك) ولكنه كان مسكة (أى شديد البطش) نشبة علقة لزمة (بالمعنى الأول) وكنت كالمرادة (من اسماء السيف) والحُطَمة (أى السيف) حتى انفجر بالدم جناجنه (أى عظام صدره) وسلائله (أى اعصابه وما استطال من لحم المتن) وشناشنه (أى مضغاته) وشلائله (أى الطرائق من اللحم فى الظهر) ونواشره (هى عصب الذراع والعروق) وبوادره (تطلق على اللحمة ما بين المنكب والعنق) ومذاخره (أى الأجواف والأمعاء وأسافل البطن) واقبل رجل رماحس (أى شجاع) عرفسيس (أى ضخم) عفنفس (أى العسر الخُلُق) عنابس (من صفات الأسد) من سباع غدامس (بلد بالمغرب) وانقض على عاصدا (أى لاويا) فرميته صاردا (أى نافذا) فاقعص (أى انثنى) واقعى (أى جلس على مقعده) ثم ادبر وتقعى (أى تقهقر) وسعى الى ثم كعا (يعنى جبن) وحملته ورميته فاذا هو لقى (اى مطروح) وهو يدمدم ويزمزم (أى يتكلم بغضب والزمزمة صوت ذو دوى) فقلت له : ايها الفدم الأشهر ، (أى العيى والرخو) يا خبع (هو الذى فحم من البكاء او الرابض بالمكان) يا لبع (أى باطل)

لأقذفن بك فى الهاوية ، فاعتـدف (أى تنـاول) من ثوبـى عدفتـين (أى قطعتين) فضربته كفين ، فاحرنجموا (أى تجمعوا ثم ارتدوا) ومنهم ابو ضبارم (اسم الأسد) فقلت له : افريهم فرى المدى (أى السكاكين) فتنعنع (أى تباعد) وذهبوا حوث بوث (أى متفرقين بددا) وقلت لهم برحى برحى (يقال عند الخطأ فى الرمى وهو ضد مرحى مرحى) .

قال أبو تراب :

أباح الاسلام إتيان ما لا معصية فيه ايام العيد ففى صحيح الامام مسلم باب معقود عنوانه : « الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه ايام العيد » وضعه الشارح النووى كما يفهم من الاحاديث ..

وفى صحيح البخارى ج ١ ص ١٤٩ عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على ابو بكر رضى الله عنه ـ تعنى اباها ـ وعندى جاريتان من جوارى الانصار تغنيان بما تقاولت الانصار يوم بعاث قالت : وليستا بمغنيتين فقال ابو بكر : أمزامير الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ وذلك فى يوم عيد (وكان رسول الله مسجى بثوب فكشف عن وجهه) فقال يا ابا بكر (دعهما) فان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا وفى لفظ غير البخارى فانها ايام عيد . وكان ذلك فى منى ..

وعنها قالت : جاء جيش يزفنون فى المسجد يلعبون بالدرق والحراب فدعانى رسول الله فوضعت رأسى على منكبه فجعلت أنظر الى لعبهم حتى كنت أنا التى انصرفت عن النظر اليهم .

لذلك مضت العادة فى اتخاذ وسائل الترفيه وادخال السرور على النفس فى هذه الايام التى هى ايام تأدية الشكر لله على نعمة البلوغ والتوفيق للعبادة .

والناس فى العيد يهنىء بعضهم بعضا بتمام الصيام وحلول العيد المبارك وفى الحديث .. اذا التقيتم فابدأوا بالسلام قبل الكلام . وقال عليه الصلاة : أفشوا السلام واطعموا الطعام تدخلوا الجنة بسلام والجواب فريضة يدل على ذلك قوله تعالى : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » .

وقد ذموا من بخل بالتحية فأنشد ثعلب :

ومـــالك نعمـــة ســـلفـــت علينـــا
فـــكيـــف نـــراك تبخـــل بالســـلام

ويروى ان رجلا مر بقوم فلم يردوا عليه السلام فقال : يا عجبا ممن خولتهم نافلة فمنعوا عنى واجبا .

ودخل رجل على على بن ابى طالب رضى الله عنه فقال : السلام عليك سلاما تتصل آماله بسمعك أبدا ما بقيت من وليك بطوع قلبه وصادق وده ومن عدوك برغم انفه وذل خده ..

وقد حث النبى ﷺ على المصافحة فقال اذا لقى المؤمن المؤمن فصافح احدهما الآخر تناثرت الخطايا بينهما كما يتحات ورق الشجر وكان عليه السلام اذا صافحه انسان لم ينزع يده حتى يكون هو الذى ينزع يده .

ورحم الله ابن الاعرابى احد الرواة عن أبى داوود ألف جزءا لطيفا فى المصافحة وما ورد فيها وهو عندى بخطى قيض الله من يطبعه ليستفاد .

قال الشاعر القصائى :

قـــد أحـــدث النــــاس ظرفـــــا
أربــــى على كل ظـــــــرف
كانـــــوا اذا مـــا تلاقـــــوا
تصـــــافحــــــوا بالاكف

وفى التهنئة بالصوم قال الصنوبرى :

نلـــت فى ذا الصيــــــام ما ترتجيـــه
ووقــــاك الالـــه مـــا تتقيـــه
انـــت فى النـــاس مثـــل ذا الشـــهر
فى الاشـــهـــر بل مثـــل ليلـــة القـــدر فيه

وفى التهنئة بالعيد السعيد قالوا :

قبل الله منك الفرض والسنة واستقبل بك الخير والنعمة » وقال ابن حلاد :

بأسعد طالع عيدت يا من
بطلعته سعادة كل عيد

وقال المتنبى :

هنيئا لك العيد الذى انت عيده
وعيد لمن سمى وضحى وعيدا
ولا زالت الاعياد لبسك بعدها
تسلم مخروقا وتعطى مجددا

وقال آخر :

البس النعماء ما او
مض برق فى غمام
واصلا عيدا بعيد
ودواما بدوام ..

وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه ج ١ ص ٢٥٥ عادة أمراء مصر فى التهانىء بالعيد واطلاق المدافع وللبحترى ومهيار الديلمى والسرى الرفاء وغيرهم قصائد فى التهنئة ..

ونذكر هنا ما كان المتقدمون يهيئون للعيد من أنواع الاطعمة والاشربة والفاكهة والنقل والزهور والورود والرياحين والزينة والطيب والالوان واللعب .

ففى كنز الفوائد فى الموائد ص ١٣١ صفة نوع من الحلوى لذيذة الطعم اشتهر بعملها اهل مصر وكذلك البندقية وهى لحم كان يقطع بقدر البندق ومثله البريك وهو الزبد بالرطب والبولاش وهو حلواء ذات طعم لذيذ .

أما اصناف الجبن فكان منها الكشكبان والوادى والجاموسى والمنصورى والشلقوطى والقريشى والحالوم والمصلوق ذكرها الجبرتى والنقل خيرها الفستق واللوز والجوز وسن العجوز والصنوبر اما البندق والقعقع فبلغم اعاذنا الله منه .

ومن لطائف البدر الدمامينى قوله فى جبانة :

مـذ تعـانـت صنـاعـة الجبـن خـود
قتلتنـا عيـونها الفتـانة
لا تقـل لى كم مـات منهـا قتيـل
كم قتيـل بهـذه الجبـانة

وقال ابن نباتة فى بدوى :

جاءنـا ملتثمـا مكتتمـا
فـدعـونـاه لاكل وعجبنـا
مـد فى السـفـرة كفـا ترفـا
فحسـبنـا ان فى السـفـرة جبنـا

وكان هناك طعام يصنع من سكر وأرز ولحم ذكره صاحب الطراز المذهب ص ١٠٠ وكانوا يكنونه بأبى الفرج .

وفى مطالع البدور ج ٢ ص ٥٣ صفة طعام الجزورية التى كانت تصنع من دقيق القمح والدهن قال فيها ابن سكرة قولا غير محمود .

والحيس من الاطعمة العربية المعروفة وكان يتخذ من تمر وسمن واقط ولبن ذكره صاحب شرح شواهد التحفة الوردية وفى يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ٢١٢ لابن حجاج فى خبز الأبازير :

يا سـيـدى هـذه القـوافى التى
وجـوهها مثـل الدنـانير

خفيفـة من نضـجهـا هشـة
كأنهـا خبـز الابـازير

اما الدجاج فكانوا يتفننون فى طهوها فمنها المحشى بالحلو ومنها الحافصة والمقورة والفستقية . والديك كان يدش بالارز ويعمل على هيئة البريك وهو لذيذ الطعم جدا .

والرفيس كان يعمل من لباب البر والزبد الطرىء والعسل والسكر والفستق والزعفران وماء الورد ولناصر الدين بن المنير بيتان فى هذا ذكرهما الخفاجى فى الشفاء ص ١١١ :

علـق الفـؤاد برفسـة شـبهتها
بجـزيـرة مـا بـين بحـر يزخـر
الـزبـد بحـر والفـطـير حيـالها
والشـهـد مـوج والجبـال سـكر

وقس على ذلك الزلابية وانواعها والشهيدة التى ذكرها المطرزى وهى شبه الهريسة :

هلمـوا الى ما عـذبـت طول ليلها
بأضـيـق حبس فى الحجيـم تسـعر
وقـد جلـدت جلـديـن وهـى شـهيدة
هلمـوا الى دفـن الشـهيـدة تؤجـروا

ولا تنس مع ذلك الكسبرية التى امتازت بالكمون والكسكسى طعام المغاربة واللبنية باللحم والكشك :

لا تحسبـوا الثلـج يرمى
فى جامـع ابـن اميه

لكن كانـــون يملا

في صحنـــه لبنية

ومثلها الليمونية بالسمك والدجاج اذا عدلت بالملح والابازيـر والحمص والمشمشية والياقوتية بدقيق اللحم والزيت والدار الصينـى والمصطكى وقطـع اليقطين فصوصا وماء التوت الاحمر اذا حلى بالعسل النحلى .

اما الفواكه والنقل فمنها التين والزبيب والاجاص والتفاح والبطيخ والموز والرمان والجزر وفيه يقول المهدوى كما فى حلبة الكميت ص ٢٣٥ :

انـــظــــر الى الجـــزر البـــديـــع كأنـــه

فى حســـنـــه قضـــب من المرجـــان

اوراقـــه كزبـــرجـــد فى لونهـــــا

وقلـــوبـــه صيغـــت من العقيـــان

وفى العنب الرازقى يقول الشاعر وهو فى نزهة الجليس :

ورازقـــى مخـــطـــف الخصـــــور

كأنـــه مخـــــازن البـــــلور

قـــد ضمـــنـــت مســـكا الى الشـــطور

وفى الاعـــالى مـــــاء ورد جـــورى

بلا قشـــــور وبـــلا شـــــذور

لـــه مذاق العســـل المأثور

ولابن المعتز فى التين :

وانعـــم بتـــين طاب طعمـــا واكتسى

حســـنـــا وقـــارب منـــظـــرا من مخبر

يحـــكى اذا ما صـــف فى اطبـــاقه

خيمـــا ضربـــن من الحـــريـــر الاصفـــر

وفى البطيخ الاصفر قال الشاعر :

ثلاث هن فى البطيخ فخر
وفى الانسان منقصة وذلة
خشونة جلده والثقل فيه
وصفرة لونه من غير علة
اذا قطعته اربا تراه
كبدر قطعت منه الاهلة

وقال ابو طالب المأمونى فى البطيخ الاخضر :

ومبيضة فيها طرائق خضرة
كما اخضر مجرى سيل عن صيب المزن
كحقة عاج ضببت بزبرجد
حوت قطع الياقوت فى قصب القطن

وفى التفاح قال شاعر :

وتفاحة لما هممت بأكلها
واخرجت سكينا لاقسمها شطرا
تأملت من خديك فيها علامة
فقبلتها سرا وعانقتها جهرا

وكان من عاداتهم التهادى بالزهور والرياحين والورود فى العيد ولابن أيبك فى ذلك :

الزهر الطف ما يكون اذا تكاثرت الهموم
تحنو على غصونه ويرق لى فيه النسيم

وفى كتاب مباهج الفكر ان الخليفة المتوكل قد حمى الورد ومنعه من الناس وقال : لا يصلح للعامة فكان لا يرى الا فى مجلسه والى ذلك اشار ابن سكرة :

للـــورد عنـــدى محـــل
لانـــه لا يمـــــل
كل الريـــاحـين جنـــــد
وهـــو الامـــير الاجـــل

وقال بعض الفضلاء :

امـــا ترى الـــورد فى اعلى الغضـــون بدا
مـــن حســـن منظـــره ماســـت به القضب
تحـــكى مداهـــن ياقـــوت مركبة
على الـــزمـــرد فى اوســـاطهـــا ذهب

وكان من عادة المتقدمين فى العيد اذا جلسوا الى الموائد وبينهم ضيوف او زائرون فرشوا الازهار والرياحين واطلقوا مباخر طيبة الروائح ذكية النث وكانوا يحافظون على استعمال العطـور ويستعملـون البخـور فى الحفـلات بالاعيـاد ويتهادون المستخرجات من الروائح العطرة كالياسمين والفل والورد والعود والند والحناء والكادى والمسك والصندل الرطب والزعفران وسائر الافاويه ومعجونـات الطيب بالزيوت . واهم ذلك العنبر الاشهب والغالية والفاغية .

وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لقد رأيتنى اغلف رأس رسول الله ﷺ بالغالية . ويقول ابن عمر انه رأى اثر المسك فى لحية رسول الله ﷺ .

وكان الظرفاء يستصبحون فى الليالى بالغوالى والروائح الزكية وفى ذلك يقول المحاربى :

وابسطوا الديباج فى دارهم
واستصبحوا فى الليل بالغالية

وكان لهم من انواع البخور ما يطيب النفس ويشرح الصدر كالكافور والند والصندل والعنبر والسنبل الطيب .

وكان اعجب الالوان اليهم فى العيد الاصفر والاحمر والاخضر .

ومن لعبهم فى العيد خيال الظل شرحه احمد تيمور باشا فى رسالة خاصة قال فى مقدمتها : « انهم كانوا يتخذون له بيتا مربعا بروافد من الخشب ويكسى بالخيش او نحوه من الجهات الثلاث ويسدل على الوجه الرابع ستر ابيض يشد من وجهاته الاربع شدا محكما على الاخشاب وفيه يكون ظهور الشخوص فاذا أظلم الليل دخل اللاعبون هذا البيت ويكونون خمسة فى العادة منهم غلام يقلد واخر حسن الصوت فاذا ارادوا اللعب اشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين ايدى اللاعبين اى بينهم وبين الشخوص ويحرك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان يمسك اللاعب كل واحد بيد فيحرك بهما الشخص على ما يريد .

وتتخذ الشخوص من جلود البقر فيشترى بعضها اللاعبون ويصورن منها مايشاءون من الشخوص ثم يصبغونها بالاصباغ على ما تقتضيه الوان الوجوه والثياب واجسام الحيوان وجذوع الاشجار واوراقها وثمارها واحجار المبانى وغير ذلك بحيث اذا عرضت الصور امام ضوء النار المشتعلة ظهرت زاهية بهية لشفوف تلك الجلود .

وفى كتاب سلك الدربيتان فى هذه اللعبة نسبهما الى الامام الشافعى وهما :

رايت خيال الظل اكبر عبرة
لمن هو فى علم الحقيقة راقى

شخـــوص واشـــبـــاح تمـــر وتنقضى
وتفنـــى جميعـــا والمحـــرك باقى

وسأل السلطان صلاح الدين القاضى الفاضل كيف رأيت خيـال الظـل فقال : رأيت موعظة عظيمة رأيت دولا تمضى ودولا تأتى ولما طوى الازارطـى السجل للكتب اذا المحرك واحد .

وكان الناس فى ذلك الزمن يصنعون فى العيد تماثيل من الحلوى ومن الكافور والعنبر ويكثرون من ذلك فى الاسمطة ايام الفاطميين فى مصر ..

وشوهد من ذلك شجرة من السكر تشبه شجرة الاترج بأغصانها واوراقها .

وفى خطط المقريزى : فى ذكر سماط عيد الفطر نقلا عن المسبحى ما نصه :

وفى اخر يوم منه يعنى شهر رمضان سنة ٣٨٠ حمل الثعلبى اسماط وقصور السكر والتماثيل واطباقا فيها تماثيل حلوى وحمل ايضا المحتسب القصور وتماثيل السكر .

وقال ابن جبير فى الرحلة :

« واما الحلوى فتصنع منها انواع غريبة من العسل والسكر المعقـود على صفات شتى يصنعون بها حكايات جميع الفواكه من رطبة ويابسة وفى الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تتصل منها اسمطة بين الصفا والمروة ولم يشاهد احد اكمل منظرا منها ولا بمصر ولا بسواها قد صورت منها تصاوير انسانية وحيوانية وجليت فى منصات كأنها العرائس ونضدت بسائر انواعها المنضدة الملونة فتلوح كأنها الازاهر حسنا فتقيد الابصار وتستنزل الدرهم والدينار » .

فإذا وعيت هذا فلا تنس ما اهدى الى المتنبى من تماثيل سمك من سكر ولوز تسبح فى لجة عسل وهو يقول فى ذلك :

اقـــل ما فى اقلهـــا ســـمك
يلعـــب فى بـــركة من العســـل

وكذلك تمثال الفيل من الحلاوة والاسد وهو يقذف من فيه ماء عذبا زلالا

وكان من لعبهم فى أيام الأعياد والأفراح لعبة التمساح التى تضم اثنى عشر شخصا المقدم والرخم والزبرقاش ورئيسة وخادمة وولده وبربريان ومغربيان والتمساح والسمك وكان لها عشاق مزاولون يتحاورون فيها بالازجال والمواليا والانغام .

ومنها لعبة مركب الصيد وتسمى لعبة الاولانى ولعبة الشونى وتتضمن ايضا المركب والملاحين .

وذكر الراغب فى المحاضرات ص ٧٢٣ من لعبهم : البقيرى وهو جمع تراب يقطع نصفين ويقال خذ ايهما شئت . ولعبة العظيم والحظيرة والضب وهذه من لعب الاعراب وتفسيرها وارد فى كتب الآداب .

إلى حسن آل شيخ وزير التعليم العالي

قال ابو تراب

ويل لفتيان الحاضر يفنون زهرة شبابهم فى عبث العابثين ولهو اللاهين عما يعجم عودهم ، ويغمر ميرهم ، وينمي أصلهم ، ويزكى فرعهم ، فهم فى أسمال وسرابح ولو لبسوا القشيب والرياش ، فان العلم يعقل به الجماح ، وان الجهل تند فيه الطباع .

كنت فى القاهرة أيام شرخ الشباب ، والصوارف عن الجد كانت تحدق بى من كل جانب . ولكنى كنت أسهر الليالى منكبا على الكتب واقضى سحابة النهار فى دور الكتب وخزائنها ، أغوص فى دأمائها استخرج اللآلىء ، وأنقب عن أصدافها لأحرز النفائس ، ولا أزكى نفسى وانما أتحدث بنعمة الله تعالى على « وأما بنعمة ربك فحدث » .

وعلى سبيل المثال اذكر بعض الكتب التى قرأتها أو اطلعت عليها زمن مكثى هناك ، وقليل نزر منها طبع فى الأيام الأخيرة ، ولم يزل الكثير حبيس الكنانيش والقماطر . حبذا لو جلبت جامعات بلادنا بالمدينة والرياض وجدة ومكة . نسخا مصورة منها لإرواء غلة المتعطشين وبل صدى الظامئين ، فانها بالاضافة الى استفادة الباحثين والعلماء منها تراث ثمين تليد ينبغى المحافظة عليه والسعى الى اقتنائه واجتيازه .

وما اولى وزارة المعارف لدينا بتحقيق هذه الأمنية وعلى رأسها الوزير المثقف اللقن الشاب حفيد الشيوخ العلماء حسن بن عبدالله بن حسن سليل الجحاجح

وفقه الله ، ثم ما أجدر الأموال السخية المبذولة فى متعدد المشروعات بأن يصرف عنان من أعنتها الى هذه الناحية لكى تستكمل بلاد العلم أدوات العلم والمعرفة ، فلا يلوكن لائك باللسان ان العلم رحل عنها ، ثم استقر فى أخرى غيرها .

ولقد جلت فى مكتبة جامعة الدول العربية والمكتبة التيمورية التى ضمت الى دار الكتب المصرية والمكتبة الأزهرية ، والمكتبة الظاهرية بدمشق فوجدت فيها نوادر المخطوطات العربية التى تستحق العناية بها ونشرها ولو نصوصا دون تحقيق على غرار ما كانت تفعله دائرة المعارف بحيدر آباد دكن ، لأن فى الاستعجال فى نشرها إفادة لغرباء أهل العلم ، وان فى تأجيلها إعاقة دون ذلك .. وانى إذ أذكر هنا هذه الكتب فانما أتوخى الافادة بالقيد والرقم لا الاستفاضة فى الموضوع والبحث .

فمما اطلعت عليه فى تلكم الخزائن : اعراب القارى على أول باب البخارى ، وكتاب فى المناظرة للامام البخارى رقم ١٣٥ ، ورق ١ ، ورسالة شرح باب البخارى « كيف يدعى للمتزوج للحافظ رقم ١١٦ ، وشرح الحافظ على الأربعين النووية المسمى فتح المبين ، وشرح حديث أم زرع للامام الطبرى رقم ١٧٥ ، ورق ١١ ، والجواهر المنيفة فى أدلة أبى حنيفة للمرتضى الزبيدى وهو مما وافقت فيه الأئمة الستة بخط المؤلف ، ورق ٢٠٠ ، والكلام على حديث الجوبيارى للبيهقى رقم ٧٨ ، وبيان خطأ من أخطأ على الشافعى للبيهقى رقم ٧٤ ، ومسلسل العيدين للخطيب ، وتخريج الرافعى لابن الملقن كامل ، ورسالة البيهقى الى الجوينى رقم ٧٨ ، ورق ٩ ، وكتاب الزهد الكبير للبيهقى خمسة أجزاء فى مجلد واحد ، والكوثر الجارى للكورانى بخط المؤلف ، وما من به الرحيم الودود من تمييز زوائد حواشى مختصر سنن أبى داوود لابن قيم الجوزية ورق ٢٧٦ نسخ فى سنة ٧٩٠هـ ، ومسند الفردوس ، ومن وصف بالتدليس للسيوطى ، وحاشية الطوخى على شرح زكريا على الألفية ، وشرح

منظومة ابن فرح لابن جماعة ، وعقود اللآلىء فى أسانيد العوالى لابن عابدين بخطه ، ومعرفة أصول الحديث للشعرانى ، وعلوم الحديث لابن صلاح بخط الحافظ العراقى ، وتاريخ أصبهان لأبى الشيخ ، وما رواه الزبير عن جابر لابى الشيخ ، وأخلاق النبى لأبى الشيخ ، والفوائد للمخلص مخطوط الظاهرية ، وكتاب التوحيد ومعرفة الأسماء لابن مندة ، وفوائد تمام الرازى فى الظاهرية ، وأكثر أجزاء أمالى ابن بشران فى الظاهرية ، ودلائل النبوة للبيهقى مخطوط الأحمدية بحلب ، والرد على من ينفى الحرف من القرآن لابن مندة مخطوط الظاهرية ، والأحكام الكبرى للأشبيلى ، والتهجد للأشبيلى ، والتحقيق فى مسائل التعليق لابن الجوزى ، وسنن المقدسى ، والمنتقى من أمالى السمرقندى لأبى حفص المؤدب ، ومجلدات من المختارة للضياء فى الظاهرية ، والمنتقى من الصحاح والحسان للمقدسى ، وجزء فى فضل الحديث وأهله للمقدسى ، وجامع المسانيد لابن كثير ، وخلاصة البدر المنير لابن الملقن ، والأحاديث العاليات لابن حجر ، والجامع الكبير للسيوطى ، ومسائل أحمد وابن راهويه للمروزى ، وأمالى عبد الرزاق ، ومصنف ابن أبى شيبة ، وقد طبع منه شيخنا المحدث عبد التواب الملتانى جزأين ، وهو الآن يطبع بحيدر آباد ، وزوائد المسند لحارث بن أبى أسامة ، وغريب الحديث لأبى اسحاق الحربى ، وغريب الحديث المسمى بالدلائل للسرقسطى ، ومسند الرويانى ، وأجزاء من مسند السراج فى الظاهرية ، وكتاب الضعفاء للعقيلى ، وأمالى البزار ، ومعجم ابن الأعرابى ، وحديث ابن السماك ، وحديث ابى العباس الأصم ، وكتاب الثقات لابن حبان ، ومجلدات من المعجم الكبير للطبرانى فى الظاهرية ، وعلل الدارقطنى بدار الكتب ، والمعجم الأوسط للطبرانى ، وكتاب الأربعين للآجرى فى الظاهرية ، وآداب حملة القرآن للآجرى ، وكلام ابن تيمية فى تكبير العيدين ، والمقتفى فى الوقف والتام للدانى ، والرد على المعترض على ابن عربى للفيروز آبادى ،

والاحتجاج بالشافعى فيما أسند اليه للخطيب ، وذم الكلام وأهله للهروى ، والابانة عن الفرقة الناجية لابن بطة ، ونزهة الألباب للحافظ ، وكتاب النسبة الى المواضع والبلدان للجمال ، والاكتساب فى تلخيص الانساب للخيضرى تلميذ الحافظ ، ومختصر الضعفاء لابن الجوزى وهو اختصار الضعفاء لابن حبان ، ومعانى الأخبار فى أسماء رجال معانى الآثار للعينى ، ورونق الألفاظ فى معجم الحفاظ لسبط الحافظ ، وتهذيب الكمال للمزى ، والمؤتلف والمختلف للمقدسى ، وكتاب الثقات لابن حبان ، ولب الألباب للحافظ ، والمؤتلف والمختلف للدارقطنى ، والمراسيل لابن ابى حاتم ، ونزهة الألباب للحافظ رقم ٤٥٨ ، وزوائد المسانيد للحافظ ، وخصوصيات الصيام للحافظ ، والجزء الثانى من أسماء الصحابة لابن مندة ، وألفية السير للعراقى ، وأرجوزة المقاصد المهمة فيما يوضع فى الحديث اسمه للعراقى ، وشرح النخبة للسندى ابى الحسن ، وتحرير المشتبه للحافظ ، ومختلف الأسماء والأنساب والكنى والألقاب للذهبى ، والنكت على ابن الصلاح للزركشى ، ومعجم الحافظ لأبى طاهر السلفى ورق ٢٢٥ ، وشرح ابن بطال على صحيح البخارى ، وشرح مسلم للقاضى ، والاستذكار لابن عبد البر ، والتمهيد له أيضا ، ومعجم ابن عساكر ، وحاشية الزركشى على علوم الحديث ، ومناهج الهداية لمعالم الرواية للقسطلانى ، وعلوم الأثر للزبيدى ، وألفية الغريب فى المصطلح له أيضا .

ومن كتب اللغة والأدب : مناظرات الوطواط مع الزمخشرى ، وفاتق المفهوم فى اختلاف المقول والمرسوم ورق ٣٧ ، وغريب القرآن لابن الملقن ، والدر اللقيط فى اغلاط القاموس المحيط لداود زاده فى مجلد ، والدر المنتظم فى نظم فقه اللغة للموصلى ، وديوان الحيوان للسيوطى ، وشرح ابن درستويه على كفاية الفصيح لثعلب ، وكتاب الضاد والظاء لأبى الفرج النحوى نسخ فى سنة ٥٩٥ هـ ، وكتاب النبات للأصمعى ، والمرصع لابن الأثير ، وقطعة الخشاف لحل خطبة

الكشاف للفيروزآبادى ، والاهتبال بما فى شعر ابى العتاهية من الأمثال ، وشرح ديوان أبى فراس لابن خالويه ، ونظام اللسد فى أسامى الأسد للسيوطى ، وهداية الناموس الى نقاش القاموس للشنقيطى ، وأمالى ابن الحاجب فى النحو ، واعراب ابن خالويه على المفصل ، والأنموذج فى النحو للزمخشرى ، وتلخيص شواهد ابن الناظم لابن هشام ، والجامع الصغير فى النحو لابن هشام ، والشواهد الصغرى للعينى ، وشرح كتاب سيبويه للسيرافى ٢٥٠ والجزء الأول والثانى منه منقولان من خط المصنف ، وقد اطلعت على جزء منه فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة وفيها أيضا كتب قيمة ، وفى مكتبة الحرم المكى أيضا ، ومن أندر كتبها : كتاب عقود الزبرجد فى اعراب المسند للسيوطى وهذا الكتاب كان الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تواقا اليه حريصا على إخراجه حتى انه كلفنى بتصحيحه وبيضت له منه كراريس بخط أحد العاملين بها حينذاك هو عبد الغفور أندجانى سكرتير المكتبة وكان لى صديقا حميا فعاجلت الشيخ المنية ولم يتم العمل . ومن كتبها أيضا فوائد البزار وهو نادر جدا ، وإكمال الإكمال ، ومسند البغوى ، وشرح السنة للبغوى ، ونظم الدرر فى تناسب الآى والسور للبقاعى ، واسئلة القرآن للرازى ، والبرهان للزركشى والدر الفريد الجامع لمتفرقات الأسانيد للواسعى وغيرها ، وقد نسخت معظم النوادر بها لنفسى والحمد لله .

ولدى بخطى علل الدارقطنى ومصنف عبد الرزاق وجامع عبد الرزاق وتاريخ يحى بن معين ، ونظم المشارق للموصلى ، ومسند الموطأ للغافقى ، ومصنف ابن ابى شيبة ، واكمال ابن ماكولا وقد استفاد من نسختى منه شيخنا العلامة عبد الرحمن المعلمى رحمه الله وقد أشار الى ذلك فى الجزء الأول من المطبوع بتحقيقه .

هذا ولم أذكر عند استعراضى لما قرأته فى بعض الأسفار من النوادر ما يلف لفه فى ذات الموضوع لأن المقام مقام قيد وليس مقام بحث وتفصيل والنوادر بع

ذلك ما أكثرها ، ولها فهارس متداولة بين أيدى الباحثين كفهرس بروكلمان وفهرس المكتبة الظاهرية وفهرس مكتبة جامعة الدول العربية وفهرس دار الكتب المصرية وأشباهها وقد نافت فهارس المكتبات الآن على مئات المجلدات .

وقد رأيت الدكتور صلاح الدين المنجد لجأ أخيرا الى وضع معجم للمخطوطات المطبوعة ، على غرار معجم سركيس اليان للمطبوعات العربية ، وقد سبق سركيس الى ذلك صاحب اللؤلؤ المرصوع فيما هو المطبوع وغيره ، وفات سركيس شيء استدركته عليه وعلقته على هوامش نسختي والحمد لله على ما أوقفنا عليه لا نرضى به بديلا ثم نقول :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

موقفان :

قال أبو تراب :

ما أكثر ما يمر بالمرء ويمر به المرء ، والقارىء اليوم سمع منا مالم يألفه فى سابق عهده بنا فننشده فى هذا الموقف وقد مضينا على ديدننا شاكرين له حسن الاصغاء قائلين انا لا نرشح الا بهذا .

من ام بابــك لم تبــرح جوارحه   تروى أحاديـث ما أديـت من منن
فالعــين عن «قــرة» والــكف عن «صلة»

والقلــب عن «جابــر» والأذن عن «حسن»

وموضع المعاكف فى البيت الأخير أسماء ضمنته ، وهـذا نوع من البديـع ظريف .

أما الموقف الثانى فهو خاص بالراقم وفى وجوه العدا سافيات الرمال ، وفى أعينهم حبكات الأوحال ، ونترنم بقول عبيدة ابن قيس العقيلى :

ألا أيهــا الساعــى لفرقــة بيننا   توقف هداك الله سبــل الأطايب

فاقســم انــا والأكارم أخوة   تناولنــا جد عريــق المناسب

فنحــن وهــم ركن منيــع وقلعة   على رغــم أعــداء لئــام النقائب

ولله الأمر من قبل ومن بعد واليه نفوض وبيده الأزمة .

قال ابو تراب :

ما أجدنى بحاجة الى وصف مجموعة قصص نشرها الشاب الظريف الأديب الكاتب الصديق الأستاذ عبدالله الجفرى بعنوان : «حياة جائعة» فقد كفانا التطرق له الأستاذ محمد عمر توفيق بمقدمة ممتعة فيها من قبس البيان وآية التحليل « التوفيقى » ما لا أخالنى معه أزيد عليه أو انقص منه ، الا أنى أرى أن مؤلفها الفاضل النجيب لم يزل فى حاجة الى تعريف أكثر رغم شهرته وذيوع صيته فى بلاده لأن أدباء الخارج ما انفكوا يجهلون كثيرين من أدباء هذه المملكة ممن شقوا طريقهم الى أن يكونوا فى المصاف .

والصديق عبد الله جفرى من أولئك الكتاب الذين كونوا أنفسهم بالدأب والسهر والمطالعة المتواصلة والممارسة الطولى لفن الإنشاء ومزاولة الأدب مع التفهم السليم والتلمس للحقائق ودراسة الأشياء التى تعوز المجتمع واستعراض مشاكل الوطن والتفكير فى حلولها والاحساس بترحه وفرحه ومطالبه وحاجه ، ولعمرى أن هذه لهى الروح التى يجب أن يمتاز بها أديب يريد أن يعيش فى معنى الحياة لافى مبناها وشكلها وهيكلها ورسمها كالذى لا يعانى المشاكل ولا تعنيه المقدرات .

لذلك يحتم علينا الواجب أن نقوم بالدعاوة الواسعة عن أدبائنا لتعريف العالم بما يختزنونه من طاقات يمكن الاستفادة منها فى مجالات شتى .

وكاتبنا البارع ومضة من الشباب الناهض المتوقد الذهن الثاقبه كان يحبو كما كنا فما لبثت تلك الومضة أن اكتمل شعاعها فما خبت ولا نشاء لها أن تخبو

حتى لنعجب اليوم بأسلوبه اللطيف ومنطقه العذب وطريقته الانشائية السليمة وتفكيره العميق وخياله الخصب إذا كتب وما تستريب النظرة ولا النظرتان فتقرأ له وما تستثقل ظله ولا تستبرد ملكته ـ والشباب شعلة من نشاط إن احتد به المزاج امتد له النتاج وأول اشتغاله بالأدب لهو حتى يستقر له الحباب ـ فهو كما وصفه المؤرخ العالم الأستاذ زيدان بقوله : « مازال هذا الولد يعبث حتى كتب » .

وها هو ذا اليوم يقدم للجيل ولأشياخه أول باكورة من نتاجه ـ بارك الله فيه ـ ومن العجب أن يجيء مثلها من شاب فى ريعان عمره وشرخ يفاعته لأن أفكاراً كهذه التى ضمنها قصصه وأهدافاً كتلك التى ترمى إليها دموع سواجم تستدرها الزفرات الحرار من شيوخ حنكتهم التجارب وعركتهم السنون الحبالى .

ولا غرو ان جاء الجفرى ببعض ذلك فان من عاش باحساس ينبض به قلب واع وعقل يأخذ فى النضج كتب مثل هذا ولو خطا فى دور التكوين والتدرج وما العبرة بامتداد السنين إذا مضت فرب حافلة منها ناقرة كأجواف الطبول لا فارغة كفؤاد أم موسى .

وهذه القصص ليست فلسفة فى الجوع أو اشتقاقاً لمرادفات التضور يتسلى بها شداة الضاد ولكنها امتداد لمعانى الحياة الساغبة أو جوع العيش فى هذا الكوكب وشتان ما بين جوعتين جوعة تشكوها البطن لتسد رمقها كسرة ولقمة وجوعة تحز فى الضمير للحياة الولهى وهى بالمشاكل تعج وبالعلل تنتهب وتثج فلا تشبعها ألف رغيف ورغيف ولكن يعيد إليها الهدوء أمانها وضمانها ثم النظام وذوبان الفوضى واجتثاث الجراثيم الآكلة .

وأنا لا أقول أن جميع هذه القصص تجربة مرت بالكاتب القاص أو حقيقة كان هو شاهد عيانها فى كل أدوارها فما كان منه إلا أن صاغها بأسلوبه الشائق فيه الظرف إن شئت وفيه التأنق ان لمحت وفيه المعنى ان رمت وفيه جرس النثر الفنى ان أردت وفيه ايقاظ للهمم لأن تتدارك الأخطاء وتتلافى المشاكل الكائنة

والمتوقعة ليكون علاج المجتمع ناجعاً واصلاحه بحلول حاسمة وتفكير فى مستقبله سليم .

ولكنى أقول انها تصوير للبلوى الاجتماعية فيه محاولة لاستئصال شأفتها من الجذور أراد له الكاتب الإستكناه والبلوغ الى أبعد حدود الرسم والتعبير ولا أدرى الى أى مدى تحققت ظنونه فى هذه القصص التى حيكت خيوطها السود من الواقع الأليم انتقاماً لهذه الكتل الضائعة وهاته الجموع التائهة وخيبتها الأكول فى المجتمع .

قلت ان هذه القصص أراد لها الكاتب أن تكون أبلغ تعبير وأدق تصوير لجوع الحياة وحياة المجاعة والسغب ولا أدرى ماذا يريد لها المجتمع الذى كان لاهياً خسيس المطمع للملذات الوقتية قاتلاً للرجولة حين تخدع باندساس السم فى شيء مغر خالب شغف به حباً ، تلك حالة ضياع هذه الحياة وتلك صورة الضائعين ممن تحضنهم أمهم الأرض وأنت لا تدرى أيهم الشقى وأيهم السعيد .

هذا ونحن نحمد للكاتب الديدن الذى اختاره لنفسه للإيقاف على الأدواء الاجتماعية ومواطن الضعف وقلة الحيلة والهوان والاختلال ومسارب العلل وهى تتسلل ناخرة لها عوداً ، فهو لا يتعفف فى سبيل ذلك عن أن يتصنع الصبابة أحياناً وما أحسب ان مرت العذرية بفؤاده الصغير وشعوره المرهف الرقيق ولا بعقله الغافل الغرير يوماً قط ، وهو يتكلف أخرى اظهار البؤس والمسكنة والطوى والعرى وأنا لنعرفه فى ريق شبابه يضرب فى الأقفية ويختال تيهاً كأنما ولدته أمه وفى فمه ملاعق الروم أو فى يده مناديل كسرى وكأنما يقول :

وأى كريهة لم أبل فيها   وغنم لم يكن لى فيه باع

ولكن الإحساس بشكاة المجتمع جعله يستشف من بلور الكأس الصافية فى قرارتها نفثة من حثالة فتارة تراه يتفلسف فى الغرام وأخرى تجده يصف الحمية

والمروءة والنجدة والشهامة والعرف والجميل ومرة يصف ظروفاً قاسية تمر على المعذبين فى الأرض ومرة ينقل بك الى أن يريك كيف لذة الكفاح وكيف وخز الحرمان ومتى يتندم من أضاع أحيلى لياليه قربانا على مذبح البهرج الزائف البراق ثم على أى الأسس يجب أن تبنى المجتمعات المثالية وماصفة التربية الاخلاقية وأطوارها .

وبحسبنا هذا القدر الذى ألمحنا به الى مستنبطاتنا من هذه القصص ومستخلص أهدافها التى صيغت من أجلها ولا نتجشم الشطط أن نقول قولاً موجزاً فى جودتها وحبكتها الروائية وتساوقها اللفظى وانسجامها فى المعنى وعقدة كل رواية وترابط الأجزاء لأن حصيلة الكاتب من المنتجع وافرة وندع القول فى مناقشتها الى وقت آخر لعل الظروف تسمح به وما أحسب أن الحملة حول النقد سوف ينجلى غبارها بعد أن يثيرها النقاد الأفاضل وذوو الاختصاص دون القصص الجفرية ولعلها فجر جديد فى سماء القصة السعودية نكتب لها هذه الكلمة تقديراً لأدبها ورمزاً لوفاء الصديق وأعجاباً بفنه .

أما بعد فلئن كانت لى مؤاخذات على الكتاب وكاتبه فلا تعدو ان تكون لغوية محضة من حيث عدم التزامه فى مواضع منه بقواعد العربية والكلمات الفصيحة أو انتقادى لبعض المعانى فى أسلوب القصة أو خلافى معه فى صلب بعض الآراء ولا أحب أن اتعرض لها فى مجال التقريظ للكتاب والتعريف بمؤلفه ، أما من جهة الاخراج والرواسم والطباعة والورق والغلاف والرسوم الرمزية فلست ممن ينتقد هذا أو يهمه شأنه كى يضيع وقته فى الكلام عن التوافه يملأ بها الصحف ويترك اللب ليلهو بمضغ القشور ملء شدقيه فان كان لأحد فى ذلك كلام فليلفظ به وأنا منه براء . وختاماً أطرز قصص صاحبى العزيز وصديقى

الحميم بقول الحسن بن طباطبا العلوى :

ومفيـــد آداب ومـــؤنس وحشة   وإذا انفـــردت فصاحـــب وسمير

جعل الله سلعتها نافقة وسوقها رائجة .

بين الحرفة .. والأدب !

قال أبو تراب :

ربما اضطر كثير من المشتغلين بفن من الفنون الى الأشتغال بحرفة من الحرف والتكسب بصناعة من الصناعات .. تطرأ ظروف من الحياة فتقتضى ممن أحاطت به عملاً يدر عليه رزقاً فلا يجد معها بدا من أن يلجأ الى مهنة يمتهنها وصنعة يزاولها وحرفة يمارسها ، وكذلك ظروف الحياة ولظروف الحياة أحكام .

والناس بعدئذ طبقات فمنهم من صرفته الحرفة عن الفن الذى كان يتعاطاه فأصبح لديه كالطيف ، ومنهم من ثبت عليه وانما أخذ من الصناعة ما يسد الفاقة ويفى بالحاجة - فهو لا يعرج عليها إلا بمقدار ، والدرهم عنده كدينار ، ومنهم من جمع بين الاثنين وضرب له فى كليهما بسهم كبير وأوتى من كل منهما حظاً عظيماً ونصيباً وافراً فظهر فنه فى حرفته وبرزت حرفته فى فنه وكأنهما توأمان حملتهما بطن وفلقتان قدتا من أصل ، فمثل هذا قد أضاف الى مهنته علماً والى فنه صنعة .

وقد عرف كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والرواة والقراء والقضاة والشعراء والنحاة والصرفيين وأهل البديع بصنائع أتقنوها وكانوا بها يأكلون .

والأديب كأى صاحب علم وفن يقع فى كلاليب الضنك وكمائن الضيق فتتعسر عليه سبل العيش لتضطره الحياة الى تعلم حرفة يقتات منها ومزاولة صنعة يعيش بها .

لكن كثيراً من الأدباء لم تمنعهم الحرف التى تعاطوها من الاستمرار على القراءة والمضى فى الكتابة والرواية والإبداع فيما أنتجوا من نظم ونثر ينقعون بهما التياح القلم ويبلون بهما غلة الصادى ليخدموا لغة الضاد .

ومن أقمن بها واحجى من أولئك الذين يرسون سواريها ويزيلون عن ماء حياضها رنقاً فلا تتلفع بالمعرة إذ أن كثيراً منهم عن آياتها يصدفون .

وإذا تتبع متتبع وجد فى تاريخ القوم جمهرة صالحة من هؤلاء الأدباء الذين جمعوا بين الحرفة والأدب فلم تقف الحرفة عائقاً بينهم وبين خدمة الأدب .

وأنى لضارب أمثلة مما تتبعت من هؤلاء الأدباء المحترفين وفى الوطاب منهم كثير ينبغى أن يفرد له معجم خاص .

ودافعى الى ماسلكت ايقاظ همة من قعدت به المهن أخيراً عن الأدلاء بدلوه فى حقول الأدب التى رتع بها زماناً ، ورياض الفن التى اشتم عبيرها قبل أن يتصوح زهرها .

فمن هؤلاء المحترفين من الأدباء نصر بن أحمد بن نصر بن المأمون أبو القاسم البصرى المعروف بالخبز أرزى ـ بضم الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة وفتح الزاى وبعدها همزة ثم راء ثم زاى وفتح الهمزة وضمها وتشديد الزاى وتخفيفها فى الأرز يختلف باختلاف اللغات فى هذه الكلمة وهى ست لغات ـ ذكره ياقوت فى معجم الأدباء (ج ١٩ ص ٢١٨) وابن خلكان فى الوفيات (ج ٢ص ٢٨٢) .

وهو شاعر مجيد يأتى بالبدائع ويستخرج غرائب المعانى وكان خبازاً يخبز خبز الأرز بدكان له فى مربد البصرة ، فكان يخبز وهو ينشد مايقوله من الشعر فيجتمع الناس حوله ويزدحمون عليه لاستماع شعره وملحه ويتعجبون من أجادته فى مثل حاله وحرفته .

ويقال أن أدباء البصرة من الشبان يلتفون حوله ويحفظون شعره لسهولته ورقته وكان شاعر البصرة ابن لنكك ـ بفتح اللام وسكون النون وكافين متواليتين ومعناه أعيرج ـ مع علو قدره يجلس إليه ويتردد على دكانه وعنى بجمع ديوان شعره .

ذكر الخطيب البغدادى فى التاريخ أن أبا محمد الأكفانى قال خرجت مع عمى أبى عبد الله الأكفانى الشاعر وأبى الحسين ابن لنكك وأبى عبد الله المفجع وأبى الحسين السماك فى بطالة العيد وأنا يومئذ صبى أصحبهم فانتهوا الى نصر الخبزارزى وهو يخبز على طابقه فجلسوا يهنئونه بالعيد فنهضوا حين تزايد الدخان فقال نصر لابن لنكك متى أراك يا أبا الحسين فقال له إذا اتسخت ثيابى ، ثم مضينا فى سكة بنى سمرة حتى انتهينا الى دار أبى أحمد ابن المثنى فجلس ابن لنكك فقال : ان نصراً لا يخلى المجلس الذى مضى لنا معه من شىء يقوله فيه ويجب أن نبدأه قبل أن يبدأنا فاستدعى بدواة وكتب إليه :

لنصر فى فؤادى فرط حب ... أنيف به على كل الصحاب
أتيناه فبخرنا بخوراً ... من السعف المدخن بالتهاب
فقمت مبادراً وحسبت نصراً ... أراد بذاك طردى أو ذهابى
فقال متى أراك أبا حسين ... فقلت له إذا اتسخت ثيابى

فلما وصلت الرقعة الى نصر أملى على من كتب له بظهرها الجواب فلما وصل الينا قرأناه فاذا هو فيه :

منحت أبا الحسين صميم ودى ... فداعبنى بألفاظ عذاب
أتى وثيابه كالشيب بيض ... فعدن له كريعان الشباب
وبغضى للمشيب أعد عندى ... سواداً لونه لون الخضاب
ظننت جلوسه عندى لعرس ... فجدت له بتمسيك الثياب
وقلت متى أراك أبا حسين ... فجاوبنى إذا اتسخت ثيابى
ولو كان التقزز فيه خير ... لما كنى الوصى أبا تراب

فتأمل هذه الملحة الطريفة التى وقعت لهذا الشاعر الظريف .

ومن شعره أيضاً :

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما هلال السما من هلال البشر
ولولا التورد فى الوجنتين وما راعنى من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

توفى نصر سنة سبع وعشرين وثلاثمئة ، وذكر ابن خلكان فى الوفيات (ج ٥ ص ١٢) : أنه توفى سنة سبع عشرة غير أن الخطيب ذكر سماع النوشرى منه سنة خمس وعشرين وهذا يؤيد القول الأول .

وكان نصر وصل بغداد وأقام بها دهراً والناس يتظرفون باستماع شعره فى الغزل حتى أن الخطيب البغدادى قرأ عليه ديوانه وروى عنه مقطعات من شعر المعافى بن زكريا (الجريرى) ـ وفى هذه النسبة تصحيف بيناه فيما كتبنا فى غير هذا الموضع ـ وأحمد بن منصور النوشرى .

وأورد الثعالبى فى اليتيمة مقطوعات للخبزارزى فمنها قوله :

فما زال نجم الوصل بينى وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظر وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

ومن شعره أيضاً :

كم أقاسى لديك قالاً وقيلاً وعدات تترى ومطلاً طويلاً
جمعة تنقضى وشهر يولى وأمانيك بكرة وأصيلا
والهوى يستزيد حالاً فحالاً وكذا ينسلى قليلاً قليلاً
لكأنى بحسن وجهك قد صا حت به اللحية الرحيلا

وحكى الخالديان فى كتاب الهدايا والتحف ان الخبزارزى أهدى الى ابن بزداد والى البصرة فصا وكتب معه :

أهديت ما لو أن أضعافه مطرح عندك ما بانا
كمثل بلقيس التى لم يبن أهداؤها عند سليمانا
هذا امتحان لك إن ترضه بان لنا انك ترضانا

ومن الأدباء المحترفين أيضاً السراج الوراق وأبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامى .

قال ابن حجة فى الخزانة : تعاصر هؤلاء وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم فى نظم التورية فمن قول السراج الوراق ـ وكان يعمل نساخاً ـ

يا خجلتى وصحائفى سودا غدت وصحائف الأبرار فى اشراق
وموبخ لى فى القيامة قال لى أكذا تكون صحائف الوراق

وقال الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكتب إليه نصير الدين الحمامى ـ وكان يشتغل فى الحمام :

ومذ لزمت الحمام صرت إليه خلا يدارى من لا يداريه
أعرف حر الأشيا وباردها وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار :

حسن التأنى مما يعين على رزق الفتى والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار فى جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

وفى كتاب المغرب فى حلى المغرب : حضر الجزار بين يدى الصاحب الكبير كمال الدين ابن أبى جرادة مودعاً وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر سنة ٦٤٥ فأتفق ان وجه سلطان مصر شيئاً من التمر الذى يصل من أعلى الصعيد فى المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البركة فأمر الصاحب أن يقدم فأكل الجزار فى جملتهم وقال فى ذلك ارتجالاً فأتى بأبدع تورية :

أطعمتنا التمر الذى للبركات قد حوى
لله ما أطيبه لو لم تشبه بالنوى

ومن الأدباء المحترفين أيضاً مظفر الذهبى وكان مصوراً ومن قوله :

كلفت بتصوير الدمى فى شبيبتى وأتقنتها اتقان حر مهذب
وحاولت عنها رجعة فمدحتكم فلم أخل من تزويق زور مكذب

ومنهم أيضاً يحيى القصاب السرقسطى وكان الوزير أبو بكر ابن عمار دخل سرقسطة فبلغه خبر يحيى القصاب فمر عليه ولحم خرفان بين يديه فأشار ابن عمار الى اللحم وقال : (لحم سباط الخرفان مهزول) فقال يحيى : (يقول للمفلسين مه زولوا) وفى ذلك جناس لطيف ونكتة بديعية مع حاضر البديهة وحسن الارتجال .

وكان السرقسطى ترك مهنته مدة ثم عاد اليها فكتب اليه الوزير أبو الفضل ابن حسداى :

تركت الشعر من عدم الاصابة وملت الى الجزارة والقصابة

فأجابه يحيى :

تعيب على مألوف القصابة ومن لم يدر قدر الشىء عابه
ولو أحكمت منها بعض فن لما استبدلت منها ذى الحجابة

وانـك لو طلعـت على يوما   وحولى من بنـى كلـب عصـابة
هـالك ما رأيـت وقلـت هذا   هزبـر صـير الأوضـام غابة
فتكنـا فى بنـى العتـرى فتكا   أقـر الذعـر فيهـم والمهابة
ولـم نقلـع عن الشـورى حتى   مزجنـا بالـدم القانـى لعابه
ومـن يعتـز منهـم بامتناع   فان الى صـوارمنـا ايابه
ويبـرز واحـد منـا لألف   فيغلبهـم وتلك من الغـرابة

وحقـك ما تركت الشعـر حتى   رأيـت البخـل قد أوصى صحابه

وحتـى زرت مشـتاقـاً حميمى   فأبـدى لى التجهـم والكآبة
وظـن زيارتـى لطـلاب شـىء   فأقصـانـى وغلـظ لى حجابه

ومن الأدباء المحترفين أيضاً نجم الدين أبو يوسف يعقوب بن صابر بن بركات بن عمار الحرانى البغدادى المنجنيقى ذكره ابن خلكان فى الوفيات (ج ٦ ص ٣٥) وابن الدبيثى فى تاريخه وكان متقدماً على أهل صناعته أى فى صنعة المنجنيق ومايتعلق به وكان ذا فضل ويقول الشعر وسمع شيئاً من الحديث ورواه عن أبى المظفر السمر قندى وأبى منصور ابن الشطرنجى ومن شعره :

قبلـت وجنتـه فألفـت جيده   خجـلاً ومـال بعطفـه الميـاس
فانهـل من خديـه فوق عذاره   عرق يحـاكى الطـل فوق الآس
فكأننـى اسـتقطـرت ورد خدوده   بتصـاعـد الـزفـرات من أنفاسى

وكان جندياً فى ابتداء أمره مقدماً على المتخصصين فى فنون الفروسية ولم يزل مغرى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة حتى اشتهر بذلك ولـم يلحقه أحد من أهل زمانه فى درايته وفهمه وصنف فيه كتاباً سماه عمدة السالك فى سياسة الممالك وهو مليح يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها وفتح الثغور وبناء

المعاقل وفنون الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار والقلاع والرياضة الميدانية والحيل الحربية وفنون العلاج بالسلاح وعمل أداة الحروب والكفاح .

وكان مع كل ذلك شاعراً مكثراً مجيداً ذا معان مبتكرة يقصد الشعر ويعمل المقاطيع وجمع من شعره كتاباً مختصراً سماه مغانى المعانى وكانت له منزلة لطيفة عند الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد .

وكان شيخاً هشاً فكها طيب المحاورة .

ومن شعره :

كلفت بعلم المنجنيق ورميه ... لهدم الصياصى وافتتاح المرابط
وعدت الى نظم القريض لشقوتى ... فلم أخل فى الحالين من قصد حابط

وله أيضاً :

لا تكن واثقاً بمن كظم الغيظ ... اغتيالاً وخف غرار الغرور
فالظبا المرهفات أقتل ما ... كانت إذا غاض ماؤها فى الصدور

وله :

حملت هوى كهواى فهى بوصله ... تطفو ويبكينى الغرام فأغرق

وهو الذى أجاب على البيتين المشهورين :

ألقنى فى لظى فان أحرقتنى ... فتيقن ان لست بالياقوت
جمع النسج كل من حاك لكن ... ليس داود فيه كالعنكبوت

فقال فى جوابها :

أيها المدعى الفخار دع الفخر ... لذى الكبرياء والجبروت
نسج داود لم يفد ليلة الغار ... وكان الفخر للعنكبوت
وبقاء السمند فى لهب النار ... مزيل فضيلة الياقوت
وكذاك النعام يلتقط الجمر ... وما الجمر للنعام بقوت

وقد عارض البيتين الأولين جماعة من الشعراء وللمنجنيقى أيضاً :

قالـوا بيـاض الشيـب نور ساطع　　يكسـو الوجـوه مهابـة وضياء
حتـى سرت وخطاتـه فى مفرقى　　فوددت أن لا أفقـد الظلماء
وعدلـت أستبقـى الشبـاب تعللا　　بخضابهـا فصبغتهـا سوداء
لو أن لحيـة من يشـيـب صحيفة　　لمعـاده ما اختـارهـا بيضـاء

(وللبحث صلة)

قال أبوتراب :

أعرنى مسمعك لحيظة أصب لك فيه الحديث صبا ، ولا تخش من أن تصاب بوقر ، فان أهداب النبأ كأنما هى لبائن تغزر ، وضروع تدر ، او عقود على النحور تتلألأ ، وسموط لؤلؤ تنتظم ، وما دأب الحديث ان يكون فى كل مرة هكذا ، لكنه كذلك فى هذه المرة كان ، كان مجلس او مجلسان مع فقيه عالم ، اديب شاعر ، واعظم بمجالس العلماء امتاعا ، وابهج بأحاديثهم مؤانسة .

وما خطب الثلة الزاجلة ؟ ان هذه الثلة هى التى فادتنى الى حاكم ميدى ثم اتت به الى فى دارى . لنتشرف بمؤانسته . فأنجبت الفرصتان مجلسين هما وليدا هذا السيد الجليل احمد بن ابراهيم بن محسن بن محمد بن احمد بن عبدالبارىء الأهدل ، وما رفلت فى هذا النسب الا لأن فى الناس من يعشقون هذا المذهب ، وكم وددت ان اكون منهم ، لكن خيانة الذاكرة اضطرتنى الى ان اجمع هذا النوع من العلم فى مزابر وكنانيش ، لئلا يتسرب من غربال الحافظة ، ومن العلم ماهو أولى بذاك .

ونعت هذه الثلة الكريمة بالزاجلة لما فى الزجل من ادوار يلتذ بها ، وكذلك

هؤلاء الأفاضل امتعونى بأمثال هذا الدور الأخير مع الأهدل ، وكان أزجلهم الشاب الطلعة علوى طه الصافى ، بلغه الله الأمانى ، وانى ليتعجلنى الشكر طمعا فى المزيد ، وقد كانوا بعد كأعمدة البيت وأوتاد الآصار .

هذا الزمـــان ومـاســواه دونه لفتـــى تساعــده به أوطاره

ووصل الفقيه الأديب وما فى البيت رياش ولا طنافس مبثوثة ، وانما فيه كتب العلم ، وعصارة العقول ، حتى اذا ماستوى فى مجلسه على الحصير البالى ، او الأريكة المتخلقة ، فكأنه رمقنى وأنا أعالج النمل فى دارى وهن يخرجن اسرابا اسرابا ، وأنا اتحاشى ان يؤذين من قبلى ، فذلك محظور اذا كان بتعمد ، ففى صحيح البخارى : ان نبيا من الأنبياء آذته نملة فأحرق قرية النمل فأوحى الله اليه : انى ان قرصتك نملة اهلكت امة من الأمم تسبح ! وهذا الامام احمد بن حنبل حرج على النمل فخرجت نمل سود لم يرين بعد ، وكان بعض الصحابة يفت لهن ، واخاله عبدالله بن عمر .

فقال السيد متع الله به ـ دون ان يشير الى مارأى : وصل اديب الى اديب يعوده فوجد فى منزله نملا كثيرا فقال :

مالى أرى منزل المولى الأديـب به نمـــل تجمـــع فى أرجائـــه زمرا

فأجابه على البديهة :

لاتعجبـــن اذن من نمـــل منزلنا فالنمـل عادتهـــا ان تتبـــع الشعرا

فانظر الى التورية البديعية ـ وهى من عرائس هذا العلم على ان تظهر معنى وتخفى غيره فالتلميح هنا بسورة النمل وسورة الشعراء فى ترتيب المصـحف ، والانطباق اللفظى هو وجود النمل فى بيت الشاعر .

والسيد الأهدل لم يسم الشاعر القائل لهذا لكنى اعرفه وهو الشيخ تاج

الدين ذكره الدميرى ، ويحضرنى هنا جناس لطيف بهذه المناسبة وهو قول بعضهم :

أقنع بما تلقى بلا بلغة فليس ينسى ربنا النملة
ان اقبل الدهر فقم قائما وان تولى مدبرا نم له

والسيد الأهدل حفظه الله من ظرفاء القضاة ، ومتفننى العلماء ، وهو حين اجتمعنا كان يبلغ من العمر ثلاثا وستين سنة إذ ولد باليمن سنة ١٣٢٣هـ وتلقى العلم على مشائخ زبيد منهم المفتى السيد سليمان محمد الأهدل ـ وهو من قرابته ـ والسيد احمد بن محمد الأهدل ، والسيد محمد بن صديق البطاح الأهدل وغيرهم ودرس الفقه والأصول والتوحيد والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وسائر علوم الآلة .

وقدم مكة وهو ابن اثنتى عشرة سنة ومكث بها ثمانية أعوام يتلقى العلوم على علمائها آنذاك وعنهم أخذ الحديث والتفسير ، فلما عاد الى اليمن تولى القضاء والتدريس فى المخلاف السليمانى ، وولى عدة مناصب منها : عمالة الأوقاف والحاكمية واستمر حاكما نحو ثلاثين عاما ، وقرأ عليه كثيرون منهم الشيخ عقيلان احمد ونظم الشعر وله ديوانان مخطوطان ومؤلف فى الفقه يقع فى جزأين وكتاب فى النحو ، وكان من زملائه السيد على عطيف والعلامة الشيخ عبدالرحمن المعلمى العتمى رحمهما الله .

وقد سألته عن المعلمى كثيرا لتتلمذى عليه فأنشدنى له :

لطلا الرمل مقلتاه وجيده والى الجلنار تنمى خدوده
بدوى ترى الطلائع فيه يتثنى مع الصبا أملوده
لامنى العاشقون فيه ولكن لوم من قال حامض عنقوده

وأنشدته قصيدتى فى رثاء الشيخ رحمه الله وهل لمثلى كميع الحزن ، ضجيع

الحرق ، ان ينشد غير هذا ، فكأنى أرى لمعان الدمع فى المحاجر من شيخ ضرسته السنون ، واناخت بفنائه المصائب ، وذكرته المناسبة اياما للصديقين الحميمين سلفت فأنشدنى لنفسه :

تلوم فتى نضو الصبابة والفكر — يبيت شجى القلب منسلب الصبر
متى يرعوى والحب قد طبق الحشا — ونار الجوى بين الجوانح والصدر
اذا جن ليل العاشقين رأيتهم — يخرون للأذقان من الم الهجر
فما الحب الا لوعة وصبابة — وحرقة اكباد احر من الجمر

قلت : وما كان من أمر أيام الركض والحجل ، لا تفك أرجلكم الى الأيدى ، ولا أيديكم الى الاعناق ، وانتم بين روابى اليمن رقية كرقى السحر ، وغضرة كالطلع النضيد ، وتداركتنى شفقة على الشيخ اليفن ، وقد أضر ببصره من كثرة المطالعة ، وادمان النظر ، الا انه قال : هذا يجيبك عليه شيخك المعلمى العتمى اذ يقول :

ذاك عيش ممتع كتابه — فى ميادين الهوى نستبق

ومارت الذكريات المإذقة مورا ، ورأيت الشيخ وهو يغالب معتلج الخواطر بابتسامة أو لفتة ، أو نكتة أو طرفة حتى اذا ماخرج من شفتيه مايعبر عن الخوالج بادر الى معالجته ببيان الاعراب او الوجه البلاغى ، لكن من كان على مثل حاله أطت له الضلوع أطيط النياق ، وحنت له الجوانح حنين النيب فقال السيد انظروا الى هذا المعنى الفائق :

كأن قلبى وعينى بعدكم طرفا — غصن من البانة الخضراء فينان
يسيل جانبه ماء اذا اشتعلت — نار مؤججة فى الجانب الثانى

وحدثته عن بعض مؤلفاتى ونظمى ، فلما ذكرت له ان لى جزءا فى الأحاجى

قال لى خذ هذا اللغز فى القرآن لعلك لم تدونه ، وقلبت فكرى فاذا هو ليس عندى ، وانشدنى فكتبت . والسيد يملى من الحفظ ويحمد الله كما كان ابن عباس رضى الله عنهما يفعل على انه ان أذهب الله ببصره فلم يذهب ببصيرته ولحبر الأمة فى ذلك قوله :

ان أذهب الله عن عينى نورهما ففى لسانى وقلبى منهما نور

واللغز هو قول بعضهم :

ماقول من حاز جميع الورى ودون العلم بأفكاره
فى أى شىء نصفه عشره ونصفه تسعة أعشاره

وتفصيل ذلك أؤجله إلى أن يجيبنا أخونا الشيخ سعيد باريان وقد حللت له المعمى بأنه القرآن ولكن كيف ذلك ؟

وهذا ليس فى السهولة كقول ملغز فى (ابراهيم) :

أبر اذا اقسمت انى بحبه أهيم وقلبى بالصبابة مشعل
فخذ أولا من آخر ثم أولا من النصف منه فهو فيه مكمل

أو قول من قال :

خذ الميمين من ميم ولا تنقط على أمرى
وركبها تجد اسما لمن ملكته أمرى

وجلنا فى حديثنا مع السيد فى مباحث قرآنية شتى منها سؤاله اياى عن دفع التعارض بين آيتى خلق السماوات والأرض أى الخلقين كان أول وذكرت له ان ابن عباس سئل ايضا عن ذلك كما فى صحيح البخارى واجاب السيد بما هو موافق له .

ومن لطيف اشارات السيد انه قال لى فى أول مقابلة : « انى امرؤ ملصق

فيكم » وفهمت انه يعنى حديث حاطب بن ابى بلتعة فى قصة الصحيفة التى ارسلها الى اهل مكة قبل الفتح وكان رسول الله ﷺ قد أخفى امر سيره الى مكة فأتى الخبر من الوحى بأن حاطبا كتب كتابا الى قريش يخبرهم فيه بقصد رسول الله ﷺ فدعا على بن ابى طالب والزبير والمقداد وهم فرسان فقال لهم : انطلقوا الى روضة خاخ فان بها ظغينة معها كتاب لقريش . فانطلقوا فلما أتوا المكان الذى وصف لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة فأناخوا بها ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئا .

فقالوا : والله ماكذب رسول الله ﷺ فقال على : والله لتخرجن الكتاب ، أو لنلقين الثياب . فحلت قرون رأسها فأخرجت الكتاب منها فأتوا به النبى ﷺ فلما قرىء عليه قال ماهذا ياحاطب فقال حاطب يارسول الله والله ماشككت فى الاسلام ولكنى « ملصق فى قريش » فأردتِ ان أتخذ عندهم بدا يحفظوننى بها فى شأفتى بمكة وولدى وأهلى فقال عمر : دعنى يارسول الله ، أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ : ومايدريك ياعمر لعل الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال :

اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم .

واستلطفت من السيد الجليل الحبر العلامة هذه الاشارة فى الاقتباس من الحديث وقلت له : والله لست بملصق فينا بل أنت الرأس والصدر ، والمقدم والامام .

قال ابو تراب :

لمعت فى كل عصر من العصور وفى مختلف بقاع المعمورة ومضات فكر، وبرقت كبرق العارض المتهلل بوارق آراء ، دونها تاريخ الإسلام خلال أكثر من ألف سنة مما تعدون . ولم تزل هذه سنة الله فى البلاد والعباد أن تكون هنالك أفكار وأن تكون هنالك معارضات ومخالفات لينتفى الخبث وينصع الطيب فى المعترك .

وما خلا أيضاً عصر من الجمود الذى عبث بالعقل ولا من الجهل الذى اضطهد أهل العلم ، وكان فى ذلك اختبار للعلماء ليبلوهم الله أيهم أحسن عملا . فوقعت محن كثيرة وثارت فتن أخرى يفصلها التاريخ ولا يجملها ويرثى لها الفؤاد ولا ينفك ايلام ذكراها ، والتبعة بعد ذلك تقع على ذوى المعرفة وأرباب التمييز .

وصدق أبو هلال فى « تاريخ الوزراء » إذ يقول : ليس تكليف العقلاء كتكليف الجهلاء ولا آلة الفريقين فى الأفعال واحدة ، ولا مؤاخذتهما بالأعمال متساوية وكذلك قال الله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » لأن الله كلف كل نفس بحسب قوتها وأخذها بما جعله فى قدرتها ، ولو أن أحداً غلط جاهلاً لحكمه وأخطأ خطأً خارجاً عن عمله لما تعين عليه حكم ولا تعلق به حد ، وعلى ذاك فمتى كان علم لإنسان أكثر من عقله كان حتفه فى علمه ، أو عقله أكثر من عمله أمكن به جبر عجزه واتمام نقصه .

ومن بواعث الشجن أن نتذكر أمثلة من ضحايا الأفكار ممن قضوا نحبهم

فيها وتمالأ عليهم الجهلة فعذبوهم وآذوهم وأثاروها فى وجوههم شعواء وذهبوا يناوئون كل باحث خالف لهم أمراً ويتألبون على من سمع له الناس ذكراً .

ولو جئنا نعدد هؤلاء وأولئك لامتد بنا المسير لأن التاريخ ملىء بما نال العلماء من ارهاق وقتل وتشريد وحبس فى سبيل مبادئهم ولم يدر من كان يرتكب هذا ان فى ذلك قضاء على الفكر ووأدا للعقل وإطفاء للنور فحالوا دون ظهور النبوغ ، والسبب كما يعلل المقدسى فى « أحسن التقاسيم » هو التعصب ثورة الجهال المسرفين والأمة منه على النقيض .

غير انا نضرب هنا أمثلة من هذا الصنف ، ولو تتبع الباحث المراجع التى وقفنا عليها لوجد منها فى المدونات الكبرى ما يملأ به سفراً ضخماً .

فممن امتحن فى سبيل الفكر والرأى أبو ذر الغفارى أحد كبار الصحابة وأوعية العلم فى الإسلام فى فهمه لقوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وبداله باجتهاده فى هذه الآية ما انكره غيره فشكا معاوية أبا ذر الى عثمان فنفاه الى « الربذة » ولا شك فى أن رأى أبى ذر كان منبعثاً من زهد كثير وتقوى وورع شديدين .

وممن امتحن فى سبيل الله الإمام أحمد بن حنبل أحد آئمة المسلمين أحضره المعتصم وامتحنه بالقرآن فلم يجب الى القول بخلقه فجلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيد وحبس ، وكان كثير الحيطة حتى إنه هجر الحارث المحاسبى بسبب تصنيفه فى الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألست تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم كل ذلك الى الرأى والبحث .

ويروى لنا التاريخ أن المأمون أيضاً اعتقد بخلق القرآن فوضع هذا البحث موضع المناقشة بين العلماء فأبوا أن يوافقوه فطلب أن يمتحن القضاة والمحدثون وكتب الى الآفاق فهرب أناس وحاولوا التملص فأحدث هذا الرأى ضجة فى

الأمة وأوذى بعضهم وسموا ذلك المحنة وامتحن الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى أحد الاعلام ووضع فى السجن ولم تخرج جنازته الى الناس إلا من غيابات الجب .

وضرب الامام مالك بن أنس أمام دار الهجرة سبعين سوطاً فى مسألة طلاق المكره ولم توافق فتواه غرض الوالى فسعى به الى جعفر بن سليمان عم أبى جعفر المنصور وقال : إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشىء . قيل : إنه ركب على حمار وطيف به وسود وجهه وكان يقول : من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا مالك بن أنس وطلاق المكره غير واقع .

وقتل الواثق فى المحنة على القرآن سنة ٢٣١ هـ أحمد بن نصر من علماء عصره وصلبه وكتب فى أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر .. المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به الى ناره وأليم عقابه وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه .

وقال أبو الفداء فى التاريخ : قيل أن ابن نصر قال للواثق أثناء المناقشة : (مه يا صبى) وأمر أن يتبع من وسم بصحبته ممن ذكر أنه كان مشايعاً له فوضعوا فى الحبوس المظلمة وضيق عليهم .

وامتحن الامام البخارى واتهم فى مسألة الرضاع وخلق الأفعال والقرآن وطرد من سمرقند وقال السيوطى فى « حسن المحاضرة » ان أبا يعقوب البويطى خليفة الشافعى حمل فى حلقته بعده الى بغداد مغلولاً مقيداً وأريد على القول بخلق القرآن فامتنع فحبس ببغداد الى أن مات فى القيد والسجن .

وقال الخطيب فى التاريخ أن ابن حبان البستى وهو من أعلم أهل عصره

ومن طبقة البخارى فى الحديث قتل بدعوى أنه يعرف بعض العلوم الرياضية فى سنة ٣٥٤ هـ .

وضرب الحجاج عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه الراوى من التابعين أربعمئة سوط ثم قتله . وكان خبيب بن عبد الله بن الزبير من النساك تعلم علماً كثيراً فأمر الوليد بن عبد الملك فضرب مئة سوط وبرد له ماء فى جرة ثم صب عليه فى غداة باردة فكز فمات . واتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بالزندقة . واتهم المهدى شريكاً القاضى بها . وقال الخطيب فى تاريخ بغداد أن المهدى قتل صالح بن عبد القدوس على الشبهة فى ذلك مع أنه لما وافاه أعجب بغزارة علمه وأدبه . وضرب أبو عمرو بن العلاء خمسمئة سوط .

وقال المبرد فى « الكامل » : ان المهدى قتل بشار بن برد بدعوى الألحاد وروى قوم إن كتبه فتشت فلم يصب فيها شىء مما كان يرمى به وأصيب له كتاب فيه هجاء آل سليمان ومنه :

دينـــار آل ســـليمان ودرهمهم كبابليـــين حفـــا بالعفـــاريت
لا يرجيـــان ولا يرجـــى نوالهما كما ســـمعـــت بهـــاروت وماروت

وكادت المعتزلة للمحدثين فى عصر المأمون والمعتصم لأنهم يتشددون فى قبول الحديث فلما تراجع أمرهم وقوى المحدثون انتقموا منهم . واتهم أحمد بن أبى دؤاد من عظماء العباسيين حميد بن سعيد من وجوه المعتزلة بالزندقة .

وكان المهدى أول من أمر الجدليين بتصنيف الكتب والرد على الملحدين وأما الرشيد فقد منع من الجدل وحبس علماء الكلام ثم أطلقهم ابنه المأمون .

ومن العلماء من هام على وجهه أيام الفتن ومنهم من لزم بيته أو مسجده ومنهم من تظاهر بالجنون كما فعل ابن الهيثم الرياضى مع الحاكم بأمر الله وبذلك حقنوا دماءهم من العتاة . وتجافى كثير من أرباب الفكر عن التدوين خشية

الاعداء ولعدم التمتع بالحرية فى الرأى .

ولما اولى الاشرف موسى نادى فى مدارس دمشق : من ذكر غير التفسير والحديث والفقه أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيته وكان ذلك فى أوائل القرن السابع وأزهقت بعد ذلك أرواح دعاتها . وجدت الشيعة فى نشر مذهبها ولما قامت دولة الفاطميين سنة ٢٩٦ هـ فى أفريقية أفنت من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفياً .

قال ابن الأثير : : ان أبا عبد الله الشيعى لما وصل الى « رقادة » من عمل القيروان قتل كثيراً من أفاضل القوم . وأخرج الظاهر الفاطمى ٤١٦ هـ من بمصر من فقهاء المالكية وألف يعقوب بن كلس الوزير بمصر كتاباً فى فقه الاسماعيلية وحظر مطالعة غيره .

وقال المقريزى فى « الخطط » ان الفاطميين قتلوا أبا بكر بن هذيل وأبا إسحاق البرذون من فقهاء السنة وسحبوهما فى أذناب الخيل لعدم افتائهما بمذهب جعفر .

وقال السيوطى فى « حسن المحاضرة » ابتنى الحاكم المدارس بمصر وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها . وفى كتاب سكردان السلطان ان من جملة من قتلهم الحاكم من أهل العلم أبا شامة جنادة اللغوى الهروى لما قدم مصر وكان من الفضلاء .

وفى كتاب البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المؤنس لابن أبى دينار : انه لما قدم المعز فى القرن الرابع حمل الناس على مذهب مالك فى أفريقية ولم يبق فى أيامه غيره وكان معه قبل ذلك مذهب الحنفية من أهل السنة . وقال ياقوت فى معجم البلدان انه جاء زمن وليس فى الأندلس إلا مذهب مالك فان ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه .

كيف كانت العرب تؤرخ قبل الإسلام ؟

قال أبو تراب :

انه قبل ان يستقر رأى المسلمين فى زمان عمر ، رضى الله عنه ، على ان يؤرخوا من الهجرة ... كان تأريخ العرب مختلفا ، وانما كان كل شعب منهم يؤرخ بحادثة وقعت فعرفوها باشتهارها لديهم ، والدليل على ذلك ماعرف من التأريخ بعام الفيل حين قصد ابرهة مكة .

ويحدثنا الامام الطبرى فى تأريخه (ج٢ ص ٢٥٣) : برواية على بن مجاهد بالسند الى الشعبى قال : ارخ بنو اسماعيل من نار ابراهيم عليه السلام الى بنيان البيت حين بناه ابراهيم واسماعيل ..

ثم أرخ بنو اسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقت فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم ومن بقى بتهامة من بنى اسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤى فأرخوا من موت كعب بن لؤى الى الفيل فكان التأريخ من الفيل حتى ارخ عمر بن الخطاب من الهجرة .

قال أبو جعفر : وهذا الذى رواه على بن مجاهد فى تاريخ بنى اسماعيل غير بعيد من الحق .

وذلك انهم لم يكونوا يؤرخون على امر معروف يعمل به عامتهم وانما كان المؤرخ منهم يؤرخ بزمان قحمة كانت فى ناحية من نواحى بلادهم ، ولزبة اصابتهم ، او بالعامل كان يكون عليهم ، او الأمر الحادث فيهم ينتشر خبره عندهم . ويدل على ذلك اختلاف شعرائهم فى تأريخهم ، ولو كان لهم تأريخ على

امر معروف وأصل معمول عليه لم يختلف ذلك منهم .

ومن ذلك قول الربيع بن ضبع الفزازى :

هأنــذا آمــل الخلــود وقد أدرك عقلى ومولــدى حجرا
أبا امرىء القيس هل سمعت به هيهــات هيهــات طال ذا عمرا

فأرخ عمره بحجر بن عمرو ابى امرىء القيس .

وقال تابغة بنى جعدة :

فمــن يك سائــلا عنــى فانى من الشبــان ازمــان الخنان

فجعل النابعة ما أرخ بزمان علة كانت فيهم عامة .

وقال آخر :

وماهــى الا فى ازار وعلقة مغــار ابــن همام على حى خثعما

فكل واحد من هؤلاء الذين ذكرت تأريخهم فى هذه الأبيات أرخ على قرب زمان بعضهم من بعض وقرب وقت ما أرخ به من وقت الآخر ، ولو كان لهم تأريخ معروف كما للمسلمين اليوم ولسائر الأمم غيرهم لكانوا لا يتعدونه ، ولكن الأمر عندهم على ماذكرنا .

فأما قريش من بين العرب فان آخر ما حصلت فى تأريخها قبل هجرة النبى ، ﷺ ، من مكة الى المدينة على التأريخ بعام الفيل وذلك عام ولد رسول الله .

قال الطبرى : « كان بين الفيل والفجار عشرون سنة ، وبين الفجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة ، وبين بناء الكعبة ومبعث النبى خمس سنين » .

قال أبو تراب :

وتجد فى كتب الزيج والتواريخ القديمة اختلافا فى تحديد هذه السنين وسبب ذلك راجع الى اعتبار التفاوت وتعيين البداية على اى تاريخ كانت .

لذلك ترى القنوجي يقول فى كتابه : « انه كان بين الفيل والفجار اربعون سنة وبين كعب بن لؤى والفيل خمسمئة سنة وعشرون سنة » .

وقال : « كانت العرب لها تواريخ معروفة عندها وقد بادت فمما كانت تؤرخ به ان كنانة ارخت من موت كعب بن لؤى حتى كان عام الفيل فأرخوا به ، ثم عدّوا من الفجار الى وفاة هشام بن المغيرة فكانت ست سنين ، ثم عدوا من وفاة هشام الى بنيان الكعبة فكان تسع سنين ، ثم كان بين بنائها وبين الهجرة خمس عشرة سنة » .

وقال النواب فى « لقطة العجلان » (ص ١٩) :

« لم يزل تاريخ العرب فى الجاهلية والاسلام يعمل بشهور الأهلة ، وعدة شهور السنة عندهم اثنا عشر شهرا الا انهم اختلفوا فى اسمائها فكانت العرب العاربة تسميها : بـ « ناتق » و« نقيل » و« طليق » و« اسخ » و« انخ » و« حالك » و« كسخ » و« زاهر » و« نوط » و« حرف » و« يغش » .

فناتق هو المحرم ونقيل هو صفر وهكذا ما بعده على سرد الشهور .

وكانت ثمود تسميها : « موجب » و« موجر » و« مورد » و« ملزم » و« مصدر » و« هوبر » و« هوبل » و« موها » و« دمير » و« دابر » و« حيقل » و«مسبل » .

فموجب هو المحرم وموجر صفر الخ ، الا انهم كانوا يبدأون بالشهور من ديمر (دمير) وهو رمضان فيكون اول شهور السنة عندهم .

ثم كانت العرب تسميها بأسماء أُخر وهى : مؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنتم وزبا والأمم وعادل وبايق وواغل وهواع وبرك ..

ومنهم من يقول : بعد صوان الزبا وبعد الزبا البائدة وبعد بائدة الأمم ثم واغل وباطل وعادل ورنة وبرك .

وقد روى انهم اطلقوا على ربيع الأول اسم « نصار » وعلى ربيع الآخر

« خوان » وعلى جمادى الأولى « حمتن » (حنتم) وعلى جمادى الآخرى « رنة » وعلى رمضان ناتق وعلى ذى الحجة « ابروك » (برك) وكانوا يسمونه الميمون ايضاً .

قال أبو تراب : وفى اشتقاق هذه الأسماء وتسمية الشهور بها لنا كلام فى كتابنا كبوات اليراع فليراجعِ .

وقال صديق حسن : « كانت العرب تستعمل هذه الشهور على نحو ما يستعمله اهل الاسلام اما بطريق إلهام او لأنها لم نكن لها دراية بمراعاة حساب حركات النيرين فاحتاجت الى استعمال مبادىء الشهور لرؤية الأهلة » .

وجعلوا زمان الشهر بحسب ما يقع بين كل هلالين فربما كان بعض الشهور تاماً ، أعنى ثلاثين يوماً ، وربما كان ناقصاً ، أعنى تسعة وعشرين يوماً ، وربما كانت اشهر متوالية تامة اكثرها أربعة ، وهذا نادر ، وربما كانت اشهر متوالية ناقصة اكثرها ثلاثة .

وكان يقع حج العرب فى ازمنة السنة كلها وهو ابداً عاشر ذى الحجة من عهد ابراهيم واسماعيل ، فاذا انقضى موسم الحج تفرقت العرب طالبة أماكنها واقام اهل مكة بها ، فلم يزالوا على ذلك دهرا طويلا الى ان غيروا دين ابراهيم فأحبوا ان يتوسعوا فى معيشتهم ويجعلوا حجهم فى وقت ادراك شغلهم من الأدم والجلود والثمار ونحوها ، وان يثبت ذلك على حالة واحدة فى اطيب الأزمنة واخصبها فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يثرب من عهد شمويل نبىّ بنى اسرائيل وعلموا النسىء قبل الهجرة بنحو مئتى سنة وكان الذى يلى النسىء يقال له القلمس يعنى الشريف .

وفى ذلك يقول عمير بن قيس :

وأى النـــاس لم يسبــق بوتر وأى النـــاس لم يعلك لجاما
ألسنـــا الناسئـين على معد شهــور الحــل نجعلهــا حراما

وقيل كانت العرب تكبس فى كل اربع وعشرين سنة قمرية بتسعة اشهر فكانت شهورها ثابتة مع الأزمنة جارية على سنن واحد لا تتأخر عن اوقاتها ولا تتقدم ، وكان النسء يدوعندهم فى الشهور الاثنى عشر فيقولون قد دارت السنون من لدن زمان كذا الى زمان كذا دورة كذا ، وكانوا يعدون ادوار النسيء ويحدون بها الأزمنة فان ظهر لهم مع ذلك تقدم شهر عن فصل من الفصول الأربعة ـ لما يجتمع من كسور السنة الشمسية ـ الحقوه بها كبسا .

حتى عاد الحج فى السنة العاشرة من الهجرة فى ذى الحجة كما كان فى عهد ابراهيم فحج فيها رسول الله ﷺ حجة الوداع وقال : « ان الزمان قد استدار كهيأة يوم خلق الله السماوات والأرض » يعنى رجوع الحج والشهور الى الوضع الأول ، وانزل الله ابطال النسيء فقال : « انما النسيء زيادة فى الكفر » فبطل ما احدثته الجاهلية .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم احلام

وبعد ذلك ضاع تأريخ العرب حتى كان عمر يكتب الرسائل الى عماله بدون تأريخ فقيل له فى ذلك ، ثم ورد عليه صك محله شعبان فارتاب اى شعبان هو .

وروى البخارى فى التاريخ الصغير ، (ص ٩) : اجماع الصحابة على التأريخ بالهجرة بعد ان تشاوروا مع عمر ..

وذكر الطبرى ايضا (ج ٢ ص ٢٥٢) : ان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة امر بالتأريخ .

وفى كتاب « اللقطة » : ان عمر استحضر الهرمزان وسأله عن التأريخ فقال : ان لنا حساباً نسميه (ماه روز) معناه حساب الشهور والأيام فعربوا الكلمة وقالوا : مؤرخ ثم جعلوا اسم التأريخ واستعملوا ذلك وطلبوا وقتا يجعلونه

اولا لتاريخ دولة الاسلام فاتفقوا على ان يكون المبدأ من سنة الهجرة .

وقد ثبت انهم كانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من هجرة الرسول قبل ان يصدر قرار عمر بالتأريخ ، والقوم بعد ذلك مختلفون فى اعتبار المحرّم رأس السنة أهو صحيح كما استقر عليه الرأى ام الراجح قول مالك وابن حزم حين قالا اول السنة ربيع الأول ، وقال قوم رمضان هو اول السنة لأنه انزل فيه القرآن وهو مبدأ السنة عند ثمود .

مع غالب أبى الفرج

قال ابو تراب :

وقرأت ما كتبه صديقنا الأستاد الفاضل غالب أبو الفرج فى احدى « يومياته » من قوله : ان السيد ياسين يجتر النكتة من أنيابى .

قال أبو تراب : وغالب يغالب لفظه معناه أو يحمله مالا يطيق ولو كانت للفظة نفس لقلنا لا يكلف الله نفسا الا وسعها لكن غالبا ميال الى المجاز المطلق بقصد التفكهة البريئة وإنّا لنحفظ له عهد الوداد .

ولكنى تذكرت بقولته حديث رسول الله ﷺ فى تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى ظفر أو مخلب من الطير وتلك كالأسود المفترسة والكلاب الضارية وهذه كالشواهين الفتاكة والصقور المنقضة .

ولاشك أن الببغاء ليس منها على الصحيح المختار ومنقاره يدل على طيبته فان كرهته الحنفية فكالخيول لا لأنها حرام ولكن لأنا نعدها للجهاد لقوله تعالى :

« وأعدوا لهم ما استعطتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله »

وكذلك الببغاء فلجماله واخضراره الزاهى استحسن الناس تربيته والاستئناس به وتزيين البيوت بأقفاصه .

فأما الفيل فهو جيفة وأما الشاة فهى نظيفة كما يقول الحكيم السعدى فى البستان الفارسى .

ثم تذكرت أن الناب هى السن خلف الرباعية وهى مؤنث جمعها أنيب وأنياب وأناييب وربما قيل نيوب .

اذا رأيت نيــوب الليــث كاشرة   فلا تظنَّــنَّ أن الليــث مبتسم

قال أبو تراب : وخير منها النواجذ لأن العرب تفرق فى الاستعمال وان اتحد الانسان والحيوان وغيره فى الأصل واللغة ثم لئن استطاعت الرباعية العض فان النواجذ تساعد على القضم ثم يكون الهضم وقيل الجميع واحد ولا تنس حديث رسول الله ﷺ أيود أحدكم أن يدع يده فى فى صاحبه يقضمها قضم الفحل والسن بالسن والجروح قصاص . ثم للضروس الطواحن أحكام يا فتى .

قال أبو تراب :

وقرأت ما قاله عنى الأستاذ محمود هيكل فى احدى كتاباته (المركازية) التى يولع بها ايما ولع ولا تسل بعد ذلك كيف أوحى الى الناس باستعجام ما كنت ألقى عليهم فى احدى الأمسيات البحرية عند الصديق شكيب الأموى وما كان قط قولا ثقيلا لو كانوا يفقهون .

والحق ان ما كنت اذكر لهم هو كلام أبى زبيد الطائى مع عثمان بن عفان فيما رواه أبو الفرج فى الأغانى والجمحى فى الطبقات اذ سأله عثمان عن تأخره عن القافلة فاعتذر لهم بهجوم الأسد على القوم ونعته بحضرته وكيف فاجأهم .

وأبو زبيد هو المعروف باجادة وصف هذا السبع المفترس حتى انه قال له عثمان : اسكت قاتلك الله فقد أرعبت قلوب المسلمين فكأنهم بوصفه البليغ أوجسوا فى أنفسهم خيفة وكأن الليث يهجم عليهم حقا قال ابن قتيبة ولم يصف أحد من الشعراء الأسد وصفه وهو من المعمرين وفى اسلامه خلاف لكن الطبرى حكى فى التاريخ انه أسلم فى امارة الوليد .

وكان مما ذكرته من كلامه أنه قال : « خرجت فى صيابة من أشراف أبناء قبائل العرب ذوى هيأة وشارة حسنة ترمى بنا المهارى باكسائها (فاخروط) بنا السير فى حمارة القيظ حتى اذا عصبت الأفواه وذبلت الشفاه وسالت المياه واذكت الجوزاء المعزاء وصر الجندب وذاب الصيهب وأضاف العصفور الضب فى جحره وجاوره فى وكره قال قائل أيها الركب غوروا فى دوح هذا الوادى فاذا واد بدا لنا كثير الدغل دائم الغلل اشجاره مغنة وأطياره مرنة فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنهبلات ونبعات منهبلات وأصبنا من فضلات الزاد وأتبعناها الماء البارد

واننا لنصف حر يومنا ومماطلته اذ صر أقصى الخيل أذنيه وفحص الأرض بيديه فوالله ما لبث أن جال فحمحم ثم بال فعلمنا أن قد أتينا وأنه السبع ففزع كل واحد من القوم الى سيفه فاستله من جربانه فوقفنا رزدقا ارسالا وأقبل أبو الحارث من اجمته يتظالع فى مشيته لصدره نحيط ولبلاعمه غطيط ولطرفه وميض ولأرساغه نقيض فأعجر رجلا ذا حوايا .. الخ .

قال أبو تراب : عند ذلك رمانى بعض الحاضرين بالمجلس بنظر شز وسألنى الشيخ العلامة عبد القدوس الأنصارى عن معنى كلمة « اخروط » المتقدمة فى هذا الكلام ثم جاءنى الأستاذ حمام فقال : أتقول يا أبا تراب : (اخروط) وقلت فى نفسى كأن القوم انكروا هذه اللفظة ووجودها فى لسان العرب وكلامها وهم لا شك على خطأ .

فلما قرأت كلام هيكل قلت لعل هذا الحوار الذى دار بينى وبين بعضهم حدا بالأستاذ أن يلقى فى قلوب الناس شيئا حول رواياتى وأعوذ بالله من أن أكون مجازفا فى النقل وأن أكذب فى الرواية أو أن أكون من الجاهلين .

أما (الاخرواط) فاعلموا يا أصحابى انه صحيح وارد فى كلامهم وقد أورده أبو القاسم الحريرى صاحب العثنون فى المقامات وقال : اجلوذ أى اسرع فى الذهاب ومثله اخروط (انظر المقامة الشتوية ص ٣٧٦) وقال فى القاموس (ج٢ ص ٣٧٠) اخروط بهم الطريق طال وامتد .

أما بعد فأى وجه للاستنكار والغرابة يا قوم . ثم ليعلم الأخ هيكل اننى لست من الذين (يولدون أو يفرخون) كلمات لا أصل لها يأتون بها للتندر والمعاياة والتعامى والاحاجى والتفكه وحاشا صنيعى أن يقع فى مثل ذلك .

قال أبو تراب :

قرأت ما كتبه الأستاذ الظريف السيد ياسين طاها فى جريدة « البلاد » من وصفه البديع بأسلوبه الرائع : كيف حوتنى « الشنطة » وكيف ضمت عصاى التى اتوكأ عليها واهش بها على غنمى وكيف ظللت فيها (مقعيا).

قال أبو تراب : وتذكرت بذكره عصاى التى لا افارقها قول رسول الله ﷺ لفاطمة بنت قيس حين اتت اليه تستشيره فيمن تتزوج بعد ان مات عنها زوجها ثم انقضت عدتها أمعاوية أم أبا جهم وكلاهما كان خطبها فقال لها أما معاوية فرجل صعلوك أى فقير لا يجد قوت يومه وأما أبو جهم فرجل لا يضع عصاه عن عاتقه ولكن تزوجى أسامة حب رسول الله ﷺ .

وتذكرت كيف استنبط الشافعى بحضرة مالك من هذا الحديث عدم وقوع الطلاق على المرأة التى جاء بعلها يستفتى فيها مالكا وكان قد باع قمريا من رجل وقال له انه لا يسكت والا فزوجى على حرام ثم وجد القمرى يهزج تارة ويسكت تارة فقال له مالك انها طلقة واحدة وقال الشافعى ليس كذلك لأن المراد هو كثرة لقلقة القمرى . وليس المقصود انه لا يسكت ابدا كما ان قوله صلعم لا يضع عصاه عن عاتقه كناية عن كثرة لزومه اياها والا فانه من البدهى انه كان يضعها عند نومه وعند برازه وانما كنى رسول الله ﷺ عن كثرة ضربه النساء أو كثرة أسفاره فانشرح بذلك صدر مالك رحمهما الله .

ثم تذكرت كتب العصا التى ألفها الجاحظ وامثاله وما اوردوا فيها من لغة ونكت ليست كنكت الهميان فى تراجم العميان للصفدى ولا سيما كتاب العصا لأبى العلاء واسامة بن منقذ .

وتذكرت من استعمال ياسين كلمة (الاقعاء)ـ فى حقى ـ الأثر الذى فيه انه رؤى ابن عباس مقعيا فى جلسة التشهد رواه أبو داود .

ولكنى أذكر للأخ الكريم أن الإقعاء اذا تأتى فى جلسة التشهد فانه لا يمكن أن يحصل فى « شنطة » السيارة المتطامنة لأن الإقعاء فى الجلوس هو التساند الى ما وراء كما نص عليه فى القاموس وهذا لا يمكن ان يكون فى « الشنطة » التى يرقع سقفها لدى الاقفال بحيث لا يتسنى للكائن فيها الا الاستلقاء او الانكفاء ولا تنس انها ضجعة يبغضها الله كما فى حديث البراء بن عازب عند الترمذى .

اللهم الا ان يكون الكائن كلبا فانه ربما يمكنه ان يقعى فى « الشنطة » أى يجلس فيها على مقعده لصغره .

ويذكرنى ذكر الكلاب قول المتنبى :

فأيكما كان من خلفه فان به عضة فى الذنب

وقول الأستاذ حمام فى السيد عبد اللطيف المى اذ عضه كلب عقور فقال من قصيدة له فيه :

بربك قل لى صادقا غير مائن أأنت عضضت الكلب أم عضك الكلب

وقد سبق أن عضت الحمام قطة دعسها بقدمه فقلت له من قصيدة كافية :

ان فى الصحب من بكى مذ حمام توعكا

ويذكر كل ذلك بالشاعر ابن فسوة وهو عتبة بن مرداس التيمى عضه كَلْبٌ كَلِب فأصابه ما يصيب صاحب الكلب فداواه ابن المحل بن قدامة بن الأسود

فأباله مثل الكلاب والنمل فبرأ فقيل فيه :

ولــولا دواء ابــن المحــل وطبه هررت اذا ما النــاس هر كليبها
وأخــرج بعــد اللــه اولاد زارع مولعــة أكنافهــا وجنوبها

وكان الأسود جده أتى النجاشي فعلمه هذا الدواء .

أعاذنا الله من الكلاب اذا هرت أو نبحت ومن شرها اذا عض عقورها وقد أمر رسول الله ﷺ بقتل العقور وجعله من الفواسق التى تقتل فى الحل والحرم .

كيف تسرّب الخداع الينا ؟

قال ابو تراب :

عجبت وما عجبى الاّ من المعجبين بما يفد علينا ممّن لا تربط بيننا وبينهم صلة نسب وصهر ، ولا وشيجة رَحِمٍ وقُربى ، ولا علاقة قوم ورَبْع وربما ألجأهم هذا الإعجاب المتغلغل فى الأعماق ، المتمكّن من مجامع القلوب ، الى تزوير يشين فى الآفاق ، ويُقذى فى الأحداق ، كمن يعمد الى مأثرة تالدة فينسبها الى غير ذويها ، أو يعّرج على فكر صائب ، وذهن وقّاد ، ونظر ثاقب ، وصورة لها فى التعبير جمال ، وفى القيلم شِكال ، فيجعلها للذين كفروا بآيات ربهم وهم عنها يصدفون .

يا هؤلاء اننا نقرأ ما كُتب منذ قرون فى كتب لن تَروها ، فما بالنا نقرأ مثله أو ما يقارب أبا أُمّهِ حَيًّا فى صحف ودفاتر تطوح بها الرياح هُوجاً يَمْنة تارة ويَسرْةً أخرى ، ولم تمض عليها سنوات .

والعقل يشهد .. أكلام كتب قبل حقَبٍ سبق ، أم حياكة ونسيج جاء على المنوال والحال ؛ يُعَدُّ معجزةً تُنْسى ما مضى ، وتمحو الفخار أرادوا وَأْدَه فى المهاد ؟

ويضوّل عجبنا اذا رأينا هذا الصنيع يأتى من أغرار الشباب لم يرقوا مدارج الثقافة العريقة ، وتعلّقوا بما يعلو ثَبَجَ اليَمِّ من أقذاء فى الزَّبَد ، فان لهم سلفاً نسبوا الى الفرنجة نظريات ابن خلدون ، وابن رشد ، والفارابى ، والخوارزمى ، والبيرونى ، وابن سنان ، وابن عراق ، والصوفى واشباههم ، فاذا سلك هؤلاء نهُجتهم فإنَّ إخواناً لهم سرقوا من قبل .

وهذا كاتب يكتب فى مجلة العلوم التى تصدر فى بيروت وقرأت كلامه منذ

مدة ، انفلت من ذاكرتى لفظه ، وبقى فى الذهن ارتسام معناه ، وعلق به مفهومه ومؤدّاه قال : ان سارتر يرى ان الأشياء قبل تكوينها لابد لها من تصور فى ذهن الصانع ، كالكرسى الذى يصنعه النجّار ، فانه لابد من تصوره قبل إعمال المنشار وانه هكذا يروح ويجىء ، وكذلك يكون الخشب بعد ذلك ، ثم كذا أو كذا يكون تركيبه فيكون فى شكل كذا ، وهيكل كذا .

ان هذا الذى يعزونه الى سارتر الوجودى الفرنسوى كلُصُوقٍ ابن العَم لحاً ليس من فتوق ذهن لم يخلق له مقياس ، ولا جرى منه اقتباس ، أو تَضرَّج باستيناس اختلاس ، وهل البدهيات فى نظر هؤلاء النَقَلة بمثابة القضايا الجدلية ، او النظريات البكر ، واذا فرحوا بالتمثيل فى مجال التقرير قلنا : جاءت الأمثلة قديماً وحديثاً مشتقاً بعضها من بعض ، وتتشابه فى اغلب الأحيان ، وهى تبّدد الهَالَة التى تحيط فى نظركم أمثال راسل ، وتولستوى ، وهمنغواى ، وبرنارد شو ، ونيتشه .

وخذ إذا شئت تصّور الكينونة قبل التكوين مثلا ، فانه من الأبواب المنطقية وعلم المعقول ، طبقه العلماء منذ عهدأرسطو ، فخَلَصت لهم حقيقة الأقوال والأعمال فى القُوى التى يعبّرون عنها ، بالفعل والانفعال والافتعال والإرادة والتصور والهيأة الخارجية وهى القوة المنفعلة بعد العهد الذهنى .

ومن المُسَلَّم الثبوت ما قرّره علماء المنطق الاسلاميون كابن حزم ، وابن تيمية ، والأبهرى ، وصاحب الشمس البازغة ، والسُلَّم ، فى تصحيحهم مسائل المنطق قبل ان يأتى جميل صليبا فيهذّب المنطق فى كتاب اخرجه منذ مدة ولم يسلم من العثار ، ولكن ما وجه نسبة كلية التصور وهى من دَور المنطقين الى سارتر ، وهل أتى بجديد استحق نسبته اليه فلا نعدوه ؟

انه لعمرى وضع شىء فى غير محله يدلّ على الجهل كمن ينسب قاعدة : « العالم متحرك وكل متحرك فان فالعالم ليس بباق » الى صاحب مزرعة يربّى

فيها دجاجه ، ويفقس فيها بيضهن .

ان القواعد العلمية التى تتصحح عليها الأصول والفروع ، وتلجأ اليها عقول البشر لتَحتكم لا تُنسب الاّ الى البرهان الضروري والوضع العقلى والمعلم الأول ، وأما أن نأتى فنقول : ان سارتر قال : السماء (فوق) والأرض (تحت) فهذا ما لا يقبله عقل انسان يَعى أو يريد ان يَعى .

وأمّا التمثيل بالخشبة والنجّار ، والكرسى والمنشار فانى والله ، لشديد الاستغراب إذْ قد ذَكر هذا التمثيلَ فى موضوع التصور قبل الكينونة ، والهيأة المنفعلة ابنُ خلدون فى (المقدمة) قبل أن تلد سارتر امُّه بقرون ، فمن أين جاء هذا الشَبَه ، أو هذا البلاء يُصِّم مَصَكَّه ؟ والعالم يقول : انه يقرأ ويسمع .

قولوا عن كلّ ما قعّده الأقدمون من قواعد ثابتة لا تقبل الجدل : انه من قول هؤلاء وهؤلاء ، وقولوا عن كل ما أبدع تصويره المتقدمون : انه من صنائع اولئك واولئك ، وليس شيء غير هذا !! ولكن العيون والأبصار لن تُمنى بالعَمى ، بل تُعيد الحق الى نصابه ، وتُغمد السيف فى قرابه .

وعقدتى فى هذا قديمة لأنى قرأت للسلف ، ثم اصطدمت بالخلف لوجوه التشابه والهجنة ، والإقراف والانتحال ، وأروى لك أطرف ما قرأت فى هذا الباب فى تلكم الصحف :

ذلك كما يقولون ، ان احد وجهاء الانكليز دخل ذات ليلة منزل اللوردات بملابسه العادية ، فلما نَبَّهه الى ذلك المشرفون على الحفل خرج الوجيه صامتا حانقا ، ثم عاد بعد قليل ببذلته الرسمية ، وعندما التفّ حوله المدعوون امسك وعاءً من الطعام ووعاءً من الشراب فسكبهما على بذلته الرسمية وقال يخاطبها : اشربى واشبعى ، فأنت التى دُعيت للحفل ، ولستُ أنَا .

قال ابو تراب : والكلام فى نسقه وسياقه تحوير وتدوير ، والعجب أنّى قرأته فى كتاب « كلستان » للشيخ سعدى الشيرازى اشهر شعراء الفرس فى الاسلام ،

وهو صاحب وعظ وحكمة ورحلات ، وله كتاب (كريما) و(بوستان) ودرس فى النظّامية ببغداد .

وفى كلامه : انه جاء محفل دعوة اقيم له بلباس رث وشارة كثّة غير حسنة ، فلم يؤذن له بالدخول ، فلما عرف ان المنع وقع لأنهم لم يعرفوه لرثاثة حاله قفل فلبس فاخر الثياب وتطيّب ولبس العمامة والجُبَّة ، وأخذ فى يده العصا ، فلما أن وقف على باب الدار التى أقيم بها الحفل ، حَيَّاه المستقبلون ، فكانوا له كالطوق من الجيد أو الهالة من القمر ، وجلس الرجل يتحدث وهم مصغون اليه ، حتى اذا مُدّتِ الموائد وصُفّت الصحون ، وقيل للشيخ ان يتقدم بالفضل الى الخير جعل الشيرازى الحكيم يأخذ من أطراف عمامته وثوبه وجُبّته ، وطفق يغمسها فى المَرَق والطعام ويجهر بصوته قائلا : كُلى ِ يا هذه ، فأنت التى دعيت لها ، لا أنا ، وصمتوا من هيبة الشيخ الجليل الوقور ، وانقضى الحفل ، وخرج الشيخ وأطراف ثيابه آكلة شبعى ، وهو طاوٍ جوعان ، وقيل له فى ذلك فلقّنهم الدرس فى اعتبار ما تحت الطيالس والجُبَب لا بزاهى الملابس وقشيب الثياب وكم من فضل وعلم فى اطهار بالية وابراد ممزّقة ، وفى ذلك للإمام الشافعى ابيات .

قال أبو تراب : هَلُمَّ الآن فقل لى من الذى نقل هذه عنّا فجعلها لغيرنا ؟ ولئن لم تفعل فسأحدثك عن كيفية تسرب الخداع الينا ، والله ربى وربك .

العيد مبتهج وهدف ؟

قال أبو تراب :

عيدان هما .. أطلت على الناس بشائر احدهما فاذا ولى رمضان أقبل هذا واحتفل به المسلمون فكان فطراً .. أما الآخر فموعده يوم النحر إذ يحشر الناس ضحى .

وهذان عيدا الإسلام شرعهما وبهما كانت الأمة تحتفى .

وهما موسما المسلمين فيهما معنى البهجة وهو كمعنى الدين والشرعة .

لا نقتصر ولا نقتفل على المظهر والمنظر وانما نذهب الى أكثر من هذا فى عيد كان للشكر والذكر ثم للتعبير عن الفضل والعمل على التعاون الاجتماعى والشعور الذى يصلح به حال الأمة وهى تضج فى الزمان العقوب كى ترثى لعلة لم يندمل جرحها .

هلموا ندلكم على معنى فى العيد هو فى تركيب المعانى أسمى وحكمته فيه هى دون ترتيبها كما تحتويه أسنى فلماذا يكون الاجتماع الذى نجتمع فيه ولماذا الاحتفال الذى كان من أعظم عناصره الابتهاج والرونق ؟

ولنا نحن المسلمين فى كل مناسبة عيد بدليل الجمعة وهى عيد لنا أيضاً لأن فيها اجتماعاً وأعظم أعيادنا الفطر والأضحى فماذا قصد الإسلام من ورائهما ؟ انه يحصل فيهما ازدوار ولكن ما السر وما الهدف وما الغاية وما المبدأ ؟؟

ترى أيهاب القوم أن يصرحوا بتبدد الداء الى شبح يخيف أم نفتقد مقومات الصلات بين مناكب الأرض .

وآلت الحال ان قل من يرضى فى المذق شوباً ينال من كيان أمة الإسلام وهى

تبتغى مصائر رقيها .. وإذا بنا نحن نذهب بعيداً فنلبس العيد الاطار الذى يخلع عليه قشيب الملابس واقامة الزيارات وإظهار السرور حتى كان من بعض مظاهره تبادل الحلوى وليس العيد لمن لبس الجديد وانما العيد لمن خاف يوم الوعيد ومتى كان تبادل الحلوى نوعاً من معنى العيد الصحيح .

ألسنا قد أغفلنا أن العيد مظهر من مظاهر الاستيثاق بروابط المجتمع فمظهر البهجة على الفرد يستقضى فى كلمة الإسلام انبثاق مثلها على آخر غير مقتدر والناس طبقات وخلقهم أطواراً وهم مرهونون بخلل اعتراها فى الفجاج .

أو لسنا أهملنا بذلك معنى الشكر الذى يجب أن يكون العيد من أسبابه وموجباته فان الانتهاء من طاعة الله وتوفيقه وعونه عليها يقتضى شكراً بعباده وحمداً على نعمه وتلكم عبادته فى موسم فضله وكرمه .

وهل المواساة والادكار ومد يد العون واللقمة واللقمتان وخرقة أو نعل الا تعبير ذلك الشعور وتحقيق ذلك المعنى السامى ذلكم هو موسم رمضان الذى جعله صورة من صور الوجدان الاجتماعى نتصور به الحرمان والدقع والجوع والظمأ لنعرف المحروم والمحتاج فليس الصوم إلا قربة وعبادة وليس العيد بعده إلا شكراً على تلك الطاعة . فكما كان هدف الصوم التقوى كان الشكران منارة العيد وفنّاره .

فاقرنوا طاعة بطاعة فى فضائل اجتماعية تحمل ذكرة أرملة ليس لها عائل أو ذكرة يتيم ليس له كافل ورب أقطع وأعرج ليس لهما قائد ورب أعمى وأقعد ليس لهما عون ومساعد .

وهذه بعض صور وعبر لمن ألقى السمع أو اعتبر وفيهن المتلمس لمن وجد أو استوحى روائعها فهل ترى من صيحة هى الحق . ؟

أما نقاء الضمائر وسيادة الوحدة فى الصف والجمع الإسلامى فهو من أعظم

أهداف هذا المظهر السامى الذى تجلى به العيد فلذا يجب أن يرتبط هذا الابتهاج بهذا الإندماج ومناسبة العيد فى الإسلام ترمى الى سمو الهدف وتحقيق الغاية واستحثاث الأمة والله من ورائها ناصراً ومؤيداً .. وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين .

أقلام وسيوف

للشيخ رشدى ملا نيازى صولات تحت هذا العنوان اذ يكتب مايجيش به خاطره ويفيض به زاخره وهو المعروف لدينا بفتوة الروح وحماسة الشباب وان تقدمت به السن وجاوز دكاكة الظهر ولكنه مع ذلك لم نره قط وانيا ولا متثاقلا يهب هبوب الريح المرسلة وينقض انقضاض الشواهين ترفده الذاكرة فيملى فكره على الأنامل يذب بما سطره عن حوزة الدين والمبادىء وقد عرفناه مخلصا للمليك والوطن فيه الغيرة على ان تنتهك الحرمات فيزأر.

فأما السيوف ففيه من فرندها ومضائها واما الأقلام فلا ادرى ايمكن تشبيهه بابن الزيات حيث قال فيه ابوتمام :

لك القلـم الأعلى الـذى بشباته	ينـال من الأمـر الـكلى والمفاصل
له الخلـوات الـلاء لولا نجيها	لما احتفلـت للملك تلك المحافل
لعـاب الأفاعـى القاتـلات لعابه	وارى الجنى اشتارتـه ايـد عواسل
له ريقـة طل ولـكن وقعها	بآثـاره فى الشرق والغـرب وابل
فصيح اذا استنطقتـه وهـو راكب	واعجـم ان ناطقتـه وهـو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت	عليه شعاب الفكر وهى حوافل
اطاعتـه اطـراف الرمـاح وقوضت	لنجـواه تقـويض الخيـام الجحافل
اذا استغـزر الذهـن الخلى واقبلت	اعاليـه فى القرطـاس وهـى اسافل
وقـد رفدتـه الخنصران وسددت	ثلاث نواحيـه الثـلاث الأنامل
رأيـت جليـلا شأنـه وهـو مرهف	ضنـى وسمينـا خطبـه وهـو ناحل

وهذا أفخم وصف لحال القلم وما آل اليه وقد غزا غزوا دونه غزو البيض المهندة وطعان الخطية السمر .

وخصلة اخرى للشيخ رشدى ايضا تعد من محاسن فعاله هى انه ماتفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة وتلقينها الاعتماد على نفسها ومن غرامه ان يلقن القوم ما يصلح شأنهم ويسوق الناس الى مايعرفهم بالأمور الخطيرة على صفهم ويرجعهم الى الحكم الفصل الا وهو القرآن تتقطع نفوس المرجفين حسرات دون بابه ولاشك ان القرآن هو الكتاب الذى وضع قواعد فى حكمة الأخلاق لاتصلح بغيرها الولاية ولايستقيم امر الأمة بدون التقيد بمضامين القرآن وليس يحول بين البشر وبين رقيهم سوى الابتعاد عن الدين وعن الامتثال لأوامره .

والآن وقد رسمنا صورة للشيخ المفضال رشدى ملا نيازى يجب ان تعرف مافى خزانة صدره من تشاغل واعتمالات وما تضمره احشاؤه من براكين تنفجر بين المطابع ودور الصحف تثور فى وجه الأوضاع المعكوسة وتغار على التلاعب باسم الدين ولله اغير على شرعة انزلها .

ونسوقها تحية مخلصة الى الشيخ الشاب اليفن اليافع تقديرا واعجابا بروحه وجهوده ونبشره بأن لأقلامه وقعا كقعقعة السلاح بين الأباطح وفتيان نجد وتهامة يؤيدون مليكهم المفدى فيدوى لهم نبر فى الاجواء ليقول كلمة الحق والحق عَلِيٌ بمعناه واثره .

فلئن زلت قدم لايضبطها بزمام اطيش ففى كلام رشدى عقال لكل جامح وفى اقلامه وسيوفه مايعيد الى النفس نفسها فامض ياطالعا جبلا فانى اسمع منشدا يقول :

ليست قوى حبلك بالضعاف — وان تشكيت من الاسخاف

ومرجع الناس فى أمرهم هو مارجعت اليه ولازال الاسلام منيعا ما اشتد

السلطان فليكن تمسكك به ماحييت لا تبالى من جثا بكلكله وبات عيارا او نبازا فان لمثلك سلوة فى قول من قال :

اقـــول لهـــا لاتنكرينـــى فقلما ... يسود الفتى حتى يشيـب ويصلعا
وللقـــارح اليعبـــوب خـــير علالة ... من الجـذع المذكى وابعـــد منزعا

ولو اغضبنا رشدى بهذا النعت فانا لانغضبه بما هو حرى بأن يقال عنه وما اوجفنا عليه بخيل ولا ركاب ولكن صالحناه على ماصولح اهل فدك وللأمر بعد ذلك كالمحك .

قال ابو تراب :

ورد على سؤال .. ما هو التضمين فى الشعر ؟ وأخفى السائل اسمه لعلة اعرفها فى امثال هؤلاء لانني مارست التعليم مدرسا فى حقول شتى ولا زلت ففقهت من ذلك تصاريف الجبلات ... ودعك من هذا فانني مجيب .

فاقول : ان البلاغيين لم يجمعوا على هذا اللفظ لذلك ترى كثيرا من المتأدبين يستدركون على الصفي الحلي أنه لم يذكر التضمين مع أنه ذكره وكذلك يستدركون على النابلسى . والذى اوقعهم فى هذا الوهم هو التمسك بظاهر اللفظ والحقيقة ان للقوم مصطلحات درجوا عليها فمنهم من يسمى التضمين اقتباسا وهو مجانف ، ومنهم من يسميه استخداما مع ان فن الاستخدام معروف وهو غير ذلك ومنهم من يسميه استعانة ، ومنهم من يسميه رفوا ومنهم من يسميه ايداعا ، ومنهم من خلط بين هذا وبين ـ التفصيل ـ فاليك البيان يا هذا ...

هناك تشابه بين الاقتباس والتضمين والتفصيل .. ولكن فيها الفروق التى تميزها بالاصلاح .. فالاقتباس لا يكون الا من القرآن او السنة وفى ذلك مقالات فى التجويز والتصرف وايراد مالا ينبغي والف فيه من سبقنى وقد عنيت بهذا أيضا فألفت فيه رسالة سنة سبع وستين وثلاثمئة وألف .

وأنا أجمل لك-الان الفروق بين هذه الانواع .. فأما الاقتباس فكما ذكرت .. وأما التضمين ـ وهو المسمى عندهم بالايداع ـ فأن يودع الناظم شعره بيتا أو أكثر أو مصراعا وما دونه من شعر آخر سواء كان من شعره او شعر غيره مع التنبيه على ذلك بتوطئة واشارة ولذلك أحكام معروفة .

واما التفصيل فهو ان يأتى المتكلم بشطر بيت من شعره فقط دون غيره ليفصل به الكلام من بعد .

ولا بأس ان اضرب لك الامثال لفقه أتم .. فالاقتباس كقول بعضهم :

« رحلوا فلست مسائلا عن دارهم » « انا باخع نفسى على آثارهم » أخذه من سورة الكهف . والتضمين كقول الحريرى فى المقامات :

« أضاعونـــى وأى فتـــى اضاعوا » على انـــى سأنشـــد عنـــد بيعى

لان المصراع الأخير من قول العرجى . والتفضيل كقول الحلى :

« صلى عليه إله العرش ما طلعت شمس وما لاح نجم فى دجى الظلم » .

لان صدر هذا البيت تقدم له فى قصيدة قافية .

وختام ذلك ما قاله القزوينى فى التلخيص أنه ربما يسمى تضمين البيت فما زاد استعانة وتضمين المصراع فما دونه ايداعا ورفوا .

ولعدم معرفة هذه المصطلحات غلط المتأخرون فى الاستدراك .

قال ابو تراب :

عرف عهد الاسلام بشغف الأدباء والشعراء بالفنون البديعية الكثيرة فكانوا يقولون انها الطريقة الأنيقة والصناعات الأنيسة وكانوا يستظرفون ولاينكرون على المشتغلين بها حتى وقع التكلف من بعض المتأخرين فمجت آدابهم وصناعاتهم وعيب على من يشتغل بها على النمط البغيض الذى لايرتسم بالذاكرة لرداءته وبعده عن الذوق السليم والنهج العربى المستقيم .

وقد قرأت فى بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٠٣ ان الوزير جمال الدين ابا الطاهر محمد بن يوسف التميمى تكلف فى مقاماته التى عارض بها الحريرى ان يلتزم فى نظمها ونثرها نوع الالتزام ولذلك تعرف بالمقامات اللزومية وقد اشتهر بأسلوبه هذا فى الأندلس حتى احتذاه من مشاهيرهم عبدالرحمن بن محمد المعروف بالمكناسى المتوفى سنة ٥٩١ فقد كان رأسا فى الكتابة وكان ينشىء الرسائل اللزومية وبلغ فى اللزوم مبلغا اعجز فيه غيره .

قال أبوتراب : وقرأنا فى ترجمة عبدالعزيز ابن قاضى حماة فى فوات الوفيات وقد توفى سنة ٦٦٢هـ قال صلاح الدين الصفدى لا أعرف فى شعراء الشام بعد الخمسمائة من نظم احسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا اكثر فان له فى لزوم مالايلزم مجلدا كبيرا .

ونعرف ان ابن الرومى التزم حركة الفتح ماقبل الروى فى قصيدة له طويلة يقول فيها :

لما تؤذن الدنيــا به من صروفها   يكون بكاء الطفــل ساعــة يولد

وفى العمدة لابن رشيق القيروانى ج ١ ص ٥٦ ان العجاج اشعر اهل الرجزوانه صنع ارجوزته :

(قد جبر الدين الاله فجبر)

وفيها نحو مئتى بيت وهى موقوفة مقيدة ولو أطلقت قوافيها لكانت منصوبة كلها ونظم ابوالعلا المعرى على نوع الالتزام ديوانه المشهور باللزوميات . قال فى مقدمته جمعت ذلك كله فى كتاب لقبته لزوم مالا يلزم ومعنى هذا اللقب ان القافية تلتزم لها لوازم لايفتقر اليها حشو البيت ولها اسماء وسأذكر منها شيئا مخافة ان يقع هذا الكتاب الى قليلى المعرفة بتلك الأسماء .

وقد تكلف المعرى ان ينتظم الحروف عن آخرها وان يجيء الروى بالثلاث الحركات وبالسكون .

قال ابوتراب : والف الحريرى رسالتين له تعرفان بالشينية والسينية كتب بالأولى الى طلحة بن احمد النعمانى وبالثانية على لسان الأمير ابى الحسن بن فطير المرادى وكان يتولى ديوان الاستيفاء بالبصرة الى الاسفهسالار وهو لفظ فارسى معناه رئيس الجيش واسمه النفيس وقد التزم الحريرى ان لايخلى كلمة من الشين فى الأولى ومن السين فى الثانية .

وقد اشار الى هاتين الرسالتين صاحب المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر فى باب المعاظلة ووصفهما برقى العقارب .

والصناعات اللفظية بعد ذلك كثيرة منها الجنـاس والتعريـة والتخـاميس والتشاطير والعكس والمعمى والمهمل والمشجر الى غير ذلك ممـا لسنـا بصـدد استقصائها ولا شرحها .

وهذه الفنون مستملحة يتظرف بها الأدباء ولو وجد فى بعضها من التكلف مالا يخفى ولكنها للتفكهة والتندر والتظرف وليست للانتهاج والأسلوب وللبحث فيها مجال واسع وطرف شاخص وحسب المرء أدب القرآن وبلاغة من أوتى جوامع الكلم فانهما منبعا الاعجاز ومثلا الفصاحة والايجاز ومادون ذلك فعبث تظرف به المجاز.

قال ابو تراب :

وقرأت فى كلام « أكثم » من الحكمة ما قاله عنى من أنى أتعقب « أوهام الكبار » ولا أسلم من أن أقع كل يوم فى وهم فيما أزاوله من عمل تصحيح « البروفات » الطباعية .

قال أبو تراب وتذكرت كلمة ابن حزم رحمه الله فى احدى رسائله الى بعض الخصوم : أما قولك أنى جاهل فهذا صحيح ولعمرى اننا لنجهل شيئا كثيرا .

وقلت لئن تكلم « اكثم » فى أبى تراب فقد تكلم فى « ابن اكثم » قبلى وكلام ابن معين وأبى حاتم وأسحاق فيه مأثور وسوف يقيض الله من يذب عنى كما قيض احمد وابن حبان للذب عن (ابن اكثم) القاضى .

وانى لأنشد (أكثمنا) قول ابن المعذل :

تكلفنى اذلال نفسى لعزها   وهان عليها أن اهان لتكرما

وتذكرت « « اكثم بن صيفى التميمى » اذ سمع بذكر رسول الله ﷺ وقد ظهر بمكة ودعا الناس الى الاسلام فبعث اليه بكتاب مع ابنه حبيش قال فيه :

باسمك اللهم من العبد الى العبد أما بعد فبلغنا ما بلغك الله فقد بلغنا عنك خير ما أصله ان كنت أريت فأرنا وان كنت علمت فعلمنا وأشركنا فى خيرك .

فكتب اليه رسول الله :

من محمد رسول الله الى أكثم بن صيفى أحمد اليك الله وقد أمرنى أن أقول لا اله الا الله أقولها وآمر بها الناس والخلق خلق الله والأمر كله لله هو خلقهم

وأماتهم وهو ينشرهم واليه المصير بأذانه المرسلين ولتسألن عن النبأ العظيم ولتعلمن نبأه بعد حين .

فلما وصل الكتاب الى أكثم قال لابنه ما رأيت من محمد ؟ قال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها .

فجمع أكثم بنى تميم وقال :

يا قوم لا تحضرونى سفيها فانه من يسمع يخل ان السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه وإن السفيه واهى الرأى وان كان قوى اليدين ولا خير فيمن عجز عن رأيه ونقص عقله .

فلما اجتمع اليه القوم قال لهم :

انه كبرت سنى ودخلتنى ذلة فاذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه وان رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم وان ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ويدعو الى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأى منكم ان الفضل فيما يدعو اليه وان الرأى ترك ما ينهى عنه وان أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم فان يكن الذى يدعو اليه حقا فهو لكم دون الناس وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله فكونوا فى أمره أولا ولا تكونوا آخرا واتوا طائعين قبل أن تؤتوا كارهين فان الذى يدعو اليه محمد لو لم يكن دينا كان فى اخلاق الناس حسنا أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدا وأصبحتم أعز حى فى العرب وأكثرهم عددا وأوسعهم دارا فانى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ولا يلزمه ذليل الا عز أن الأول لم يدع للآخر شيئا وهذا أمر له ما بعده من سبق اليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم والاختلاف عجز .

فقام مالك بن نويرة اليربوعى فى نفر من بنى يربوع فقال :

خرف شيخكم وإنه ليدعوكم الى الفناء ويعرضكم على البلاء وإن تجيبوه تفرق جماعتكم وتظهر أضغانكم ويذل عزيزكم فمهلا مهلا .

فقال أكثم ويل للشجى من الخلى فيالهف نفسى على أمر لم أدركه ولم يفتنى ما أساء عليك بل على العامة يا مالك انك هالك وأن الحق اذا قام دفع الباطل وصرعه صرعى قياما .

فتبع أكثم مئة من بنى عمرو وحنظلة وخرج الى رسول الله ﷺ فلما كان فى بعض الطريق عمد حبيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب فأجهد أكثم العطش فمات وأوصى من معه باتباع رسول الله ﷺ وأشهدهم على أنه مسلم . وذكر أنه أنزل الله فيه « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وتذكرت كيف فات ذكر ذلك صديقنا الأستاذ عبد الله المزروع فى كتابه الذى أخرجه عن بنى تميم ومكانتهم فى الجاهلية والاسلام وفوق كل ذى علم عليم .

أما بعد فعفا الله عن أكثم بنى تميم وأثاب « أكثمنا » صاحب « تمر وجمر » وجزاه لاجزاء العاويات وقد فعل ..

الخنساء تضرب أروع مثل فى الفداء

قال ابو تراب :

لئن اراد الانسان ان يشاهد الصورة الصادقة والملامح الحقيقية للمؤمنات اللاتى آمنّ برسالة الاسلام فلينظر الى القرون الاولى التى تطالعنا بتاريخ أحوال البطولة والتضحية والفداء فى عهد كانت الروح فيه فتية والضمائر جياشة بالاخلاص والعمل .

وَهُناك شاعرة سلمية لقبت بالخنساء ، واسمها تماضر بنت الشريد من بنى سليم ، تتعطر سيرتها فى دنيا الادب والشعر فى الجاهلية والاسلام . وفى الكتب يرد ذكرها مع دريد بن الصمة الشاعر الجاهلى وكان لهذه المرأة معه شأن اى شأن ، اذ كانت من شاعرات العرب البصيرات بالقول المعروفات بالبلاغة الفياضة .

والخنساء تكاد تكون الوحيدة فى اجادة الرثاء بحيث لا يضارعها فى هذا الموضوع اكابر الشعراء ، لما يمتاز شعرها من قدرة فطرية بطابع الألم والبكاء ، تجتذب معه النزعات النفسية ، وتخلو من كل ذلك قصائد الآخرين .

قال الحافظ بن حجر العسقلانى فى الاصابة : ذكروا ان رسول الله ، ﷺ ، كان يستنشدها فيعجبه شعرها فكانت تنشده وهو يقول : هيه يا خنساء ، ويومىء بيده . .

وكان من اخوانها صخر ، قتله ابو ثور الاسدى فسبب ذلك للخنساء صدمة كبرى اقلقت حياتها وأكسبتها السبق فى ميدان الرثاء ، وصقلت الموهبة الشعرية لديها .

وكان صخر محبوبا بين ذويه وعشيرته للبذل والعطاء اللذين كان يعرف بهما ، وكان فارسا مقداما وجوادا كريما . وكأن موت صخر كان سببا لانهار السيل العاطفى من الشعر الذى كان محبوسا فى صدر الخنساء فاستمع اليها وهى تقول :

الا يَا صَخْرُ انْ أبْكَيْتَ عَينى ... لَقَدْ أضْحَكْتَنى دَهراً طَويلا
بَكَيْتُكَ فى نساء مُعْولاَت ... وكُنْتُ احَق مَنْ أبْدَى العويلا
دَفَعْتُ بكَ الجليل وأنتَ حَىّ ... فمنْ ذَا يدفعُ الخطبَ الجليلا
إذا قَبُح البكاءُ على قتيلٍ ... رأيت بكاءك الحَسَنَ الجميلا

وفى قصيدة لها تقول :

يُؤرقُنى التذكرُ حينَ أمْسِى ... فاصبحُ قدْ بُليتُ بفرط نكسٍ
على صخرٍ وأىّ فتىً كصخرٍ ... ليومٍ كريهة وطَعانٍ حِلْسٍ
يُذكرنى طلُوعُ الشمسِ صَخرا ... وأذكرهُ لكلٍ غروب شمسٍ
ولولاَ كثرةُ الباكينَ حولى ... على اخوْانِهمِ لقتلتُ نفسى
فلا والله لا أنساكَ حتى ... أفارقَ مُهجتى ويُشقّ رمسى

وهذه الأبيات تصوير كامل لما كان يعتمل فى صدرها من لواعج وأحزان تنفجر كأنها البراكين ، هذه هى الخنساء التى ضحت ببنيها فى الجهاد بعد ان اسلموا وأسلمت هى فى وفد من قبيلتها ، وتشرفت بلقاء الرسول ﷺ ، وعاشت وأدركت عهد الفاروق فى خلافته .

وفى المعارك ، كاليرموك والقادسية ، التى ملأت صحراء الشام بأجسام القتلى على ايدى مجاهدى الاسلام وقفت الخنساء وقفة الأبطال ، بينما كانت سيوف المسلمين الكبار امثال خالد وأبى عبيدة وعكرمة مصلتة لقتال العدو .

كانت الخنساء تقف ببنيها الأربعة وهى عجوز تدفعها قوة الايمان الى

التضحية بأولادها ، وهى فى حاجة اليهم فى الكبر وتقدم السن . فكانت تحثهم على القتال فى سبيل الله وقد خطبت فيهم مرة تلك الخطبة البليغة التى هزت الأعماق وأرعدت الفرائص ، والتى ضربت بها الخنساء أروع الأمثلة فى الايثار والفداء .

يقول الحافظ ابن عبد البر فى الاستيعاب انها قالت تخاطب اولادها :« انكم اسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد ، كما انكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت اباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت نسبكم . وقد تعلمون ما اعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) فان اصبحتم غدا ان شاء الله سالمين ، فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على اعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى على سياقها ، وحالت نارا على ارواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة » .

فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها فلما اضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وأنشأ اولهم يقول :

يا اخوتى ان العجوز الناصحه   قد نصحتنا اذ دعتنا البارحه
مقالة ذات بيان واضحه   فباكروا الحرب الضروس الكالحه
وانما تلقون عند الصائحه   من آل ساسان الكلاب النابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه   وانتمو بين حياة صالحه
أو ميتة تورث غنما رابحه

وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله ثم حمل الثانى وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأى السَّدَدَ
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عزَّ الأبد فى جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لانعصى العجوز حرفا قد امرتنا حدبا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفّوا آل كسرى لفا أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
انا نرى التقصير عنكم ضعفا

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الرابع وهو يقول :

لست للخنسا ولا للأحرم ولا لعمرو ذى السناء الاقدم
ان لم ارد فى الجيش جيش الاعظم ماض على الهول خضم خضرم
اما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة فى السبيل الاكرم

فقاتل حتى قتل رحمة الله عليه وعلى اخوته .

فلما بلغ الخنساء قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى ان يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . فانظر الى هذه الكلمات التى خرجت من فم الخنساء ، انها كلمات جلد وصبر ، فكأن قلبها اشتدت قوته بقوة الايمان بعد ان كان رقيقا فى الجاهلية ، فقد فقدت اربعة اولاد فى حرب واحدة ولم تتأوه ولم تتأسف لأنها تعرف المصير والمستقر والرحمة التى وعد الله بها المجاهدين .

كانت الخنساء ما تطيق صبرا لفراق صخر حين قتل فأبكت الجار والبعيد برثائها لكنها اليوم فى ظل الاسلام لاتعرف للدار الفانية ثمنا ، فلقد استجد طلب نعيم الخلد المقيم فى قلبها المؤمن الصابر ، وأطمأنت بالمصير المحمود ، واستقر اليقين بفؤادها ، فقدمت الاولاد فى سبيل الله وهى تحمد مقتلهم وشهادتهم فى نصرة الحق والدين .

ومن هنا نعرف اثر الايمان فى قلب الخنساء فلقد كان قلبها فى الجاهلية ارق ما يكون وألين من الشمع ، فلما آمنت وشاهدت منايا اولادها الاكباد فكأن ذلك القلب انقلب الى صخر يقويه الايمان ويشده الدين ، فلا ترى اليوم نوحا ولا مأتما ، بل تقول الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو ان يجمعنى بهم فى مستقر رحمته ، وكذلك فليكن الايمان مثلا رائعا فى الفداء فى سبيل الله .

"البطين" منزلة للقمر !؟

قال أبو تراب

القمر تابع للأسرة الشمسية فى مجرة السماء ، يسير بدوران حول الأرض ، والفلك ذو بروج تكونها النجوم بأشكال مختلفة كالحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت فتلك اثنا عشر برجاً تعنى المناطق المقسم إليها الفلك كما عرفها بطليموس .

فاذا وازى القمر أحدى هذه المناطق ثم حاذى النجوم التى تكونها فى خلال ليالى الشهر سميت تلك المحال منازل للقمر قال الله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

وللقمر فى كل برج منزلة وثلث منزلة على التقريب حتى يستوفى أيام الشهر فيهل هلالاً ولكل ذلك حساب دقيق عند الفلكيين . أما تلك المنـازل التـى تستغرق دوران القمر فيها فهى لها أسماء قديمة وحديثة ويرجع سبب تسميتها الى الأشكال التى ترى بها . وعلماء الفلك العصريون أقروها ولم ينفوها وانما اختلفوا فى حساب المدد للطول والعرض والمطالع والمساقط كما اختلف العلم من البوصلة والاصطرلاب الى الرصد والحساب وقد اكتشفوا نجوماً لم يكن للعرب بها علم فسموها وعرفوها والرصد بالعين المجردة والمرايا ذات القطوع غير الرصد اليوم بالتلسكوبات والنفوذ الى الأعماق بالصواريخ .

هذا وقد عرض على سؤال نقلاً عن مجلس كبير بمكانته السامية وعلمه الواسع وفضله العظيم عن « البطين » ماهو ؟ وما ضبطه ؟ وأحب أن أجيب بأن منازل القمر هى :

الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرفة والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الأعزل ـ ويسمونه ساق الأسد ـ والغفر والزبانى والأكليل والقلب والشولة والنعام الوارد والنعام الصادر ـ وقد يسمى الاثنان النعائم ـ والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر وبطن الحوت .

تلك هى ثمانية وعشرون منزلاً أو تسعة وعشرون بأفراد النعائم التى أشرنا اليها .

أما ضبط منزلة البطين منها فقد ذكره غير واحد وقال المجد الفيروز آبادى فى القاموس ج ٤ ص ٢٠٤ ما نصه :

« البطين كزبير منزل للقمر ثلاثة كواكب صغار كأنها أثافى وهو بطن الحمل » .

وقال أبو الريحان البيرونى فى كتاب الآثار الباقية ص ٣٤٢ ما نصه :

« البطين ثلاثة كواكب على آخر بطن الحمل على هيئة مثلث متساوى الاضلاع وهو تصغير بطن لأنهم صغروه بالاضافة الى بطن الحمل » .

وهكذا تجد النصوص اللغوية بعد ذلك تضبط هذا الأسم بالتصغير بضم أوله وفتح طائه على التتابع .

أما ماهو « البطين » فان فلكيى العصر الحديث يسمونه « المثلث » وهو فى كتاب « النجوم فى مسالكها » للسير جيمس جينز فى ص ١٢٨ .

ووصف هذه الكوكبة المثلثة الفلكى ماريوس « بالشمعة ترى من خلال البوق » - « لأن ضوأها الخفى لايكاد يؤثر فى أعيننا إلا قليلاً » .

وانظر نجوم الية « الحمل » فى كتاب الطريق الى النجوم لفان در ريت وللى رئيس مرصد غرينتش ص ١١٥ .

وقال البيرونى فى الآثار طبعة روما ص ٤٥ ما نصه :

« البطين ثلاثة نجوم أحدها على منشأ الالية من الحمل وثانيها المتقدم من الثلاثة التى فى الالية وثالثها على الفخذ المؤخرة من الحمل وكلها شمالية » .

وقال : برجها الحمل ودرجاتها فى الطول على الترتيب السابق (ب هـ ١) ودقائقها (بخ كج يج) ودرجاتها فى العرض (د ١١) ودقائقها (ن م ى) وأقدارها (هـ دهـ) .

وهذا كله فى علم الزيج يعرف بقواعد الربع المجيب المعروف عند علماء التقويم .

وقال البيرونى فى كتابه المذكور فى ص ٣٤٩ ما نصه :

« ان طلوعها فى شهر السريانيين لسنة ألف وثلاثمئة للإسكندر شهر نيسان وسقوطها فى تشرين الأول ومراتب صورها عند المنجمين الية الحمل وعند العرب بطن الحمل » .

وقد وضح ذلك فى ص ٣٤٢ حيث قال ما نصه :

« البطين ثلاثة كواكب على آخر بطن الحمل على هيئة مثلث متساوى الاضلاع » .

قال أبو تراب :

ان تسمية الفلكيين أياه بالمثلث جاءت بحسب الرصد المرئى والعرب

أصحاب لغة سموها بالبطين لأنهم رأوها أقرب الى البطن وذلك باعتراف علماء الفلك أنها قريبة من الية الحمل إذن هى من البطن كما تعرفه العرب وعلى كل فهذا ليس موضع إشكال لأن التعيين المعتمد هو الرصد الدقيق الحديث ولم يختلف قطعاً فى صورته على الرصد العربى القديم بل الرصد العربى القديم هو الذى عليه مقولة فلكيى الهند وانما اختلفت العرب مع الهند فى الحساب من جهة أن العرب كانت تراعى مصالحها فى أرضها وجل همها معرفة أحوال الأجواء والرياح فى الأزمنة يفسر ذلك قول البيرونى فى كتابه ص ٣٣٦ :

إن الهند قسمت الفلك على سبعة وعشرين منزلاً للقمر الى أن قال : والعرب قسمته ثمانية وعشرين فأصاب كل منزلة اثنتى عشرة درجة وخمسة أسداس بالتقريب ووقعت فى كل برج منزلتان وثلث .

وفى ذلك يقول أحدهم :

عدتهـــا لمن أراد عدهـــا عشـــرون نجماً وثمان بعدهـــا
تكون فى البـــرج من المنازل منزلتـــان بعـــد ثلـــث كامل
لهـــا حســـاب ولهـــا أنواء يدور فيها الصـــيف والشـــتاء

قال واستعملت العرب غير ما استعملت الهند إذ كان مقصودها معرفة أحوال حوادث الجو والهواء فى مختلف الأزمان .

وقال الرضوى فى كشاف النجوم ص ١٥ : ان شهر طلوع « البطين » هو أبريل بحساب الفرنجة .

وقال السيد أبو الحسن فى أبجد النجوم ص ١١ : البطين هو المنزل الثانى من منازل القمر تسميه الهند « بهرنى » .

وقال الأمر تسرى فى ضياء النجوم ص ٣١ : البطين منزلة ثانية تستلحق بعدها جزءاً من الثريا فى دوران القمر حولها .

ومثل ذلك فى كتاب الزمرد الكريم ص ٢٢ للحكيم أبيل نويس وكتاب انتخاب النجوم ص ٢١ لمهتاب الراى وليراجع النخبة الأزهرية لاسماعيل حقى .

ومن مصادر هذا البحث للاطلاع والمراجعة فيما مر به نظرى : الأزمنة والأنواء لأبن الأجدابى وأصول علم الهيئة لكرنيليوس والأنواء لابن قتيبة والمعجم الفلكى لمعلوف وتاريخ الفلك للعزاوى وصور الكواكب للصوفى والقاموس الفلكى لجرداق وعلم الفلك لكارلو نلينو وعجائب السماء لجرداق وغيرها من كتب الرصد والفلك .

دعوة الفهرى بالقيروان

قال أبوتراب :

تدفق سيل العرب وعظم سلطانهم فيها على افريقية الغربية ، منذ بنوا فشادوا عاصمتها العربية القيروان فى سنة ٦٧٥م ، وأوغلوا فى البلاد بامتشاق الحسام وامتطاء الجواد حتى المحيط الأطلنطى ، وتم لهم فيها الحكم وتداوله منهم الأمراء ، فتمتعت فى أيامهم أرضها الخضراء ببلهنية فارهة وعيش رغيد ..

وكان لهم فيها مدن عظيمة ومبان ذات بهاء ورواء كالقيروان وفاس وتلمسان ومكناس وناهيك بالرباط والدار البيضاء فيها الجوامع التى تخرج فيها جلة العلماء والفقهاء ، قلقلوا حصا الدنيا بعلومهم ومن شاء أن يقف على شىء من ذلك فليقرأ ما كتب ابن خلدون وأصحاب التراجم كالخشنى .

ولسنا بصدد الالمام بكل ذلك ، وانما جرنا الى هذه المقدمة ذكر القيروان أجل مدن المغرب فى الغابر وقد مصرت ايام معاوية رضى الله عنه وانشأها فاتح افريقية عقبة بن نافع الفهرى وهو الذى اختط هذه المدينة العريقة فى التاريخ ، وبنى مسجدها فى سنة ٥٥ هـ ويعد مسجده الذى يضم رفاته بالقرب من بسكرة اقدم المبانى الاسلامية فى افريقية . وقد ذكر قصة مقتله مستوفاة ياقوت الحموى فى كتاب المبدأ والمآل . وكان ذلك سنة ٦٣هـ بعد أن فتح جميع بلاد المغرب .

ومن حديث تمصير القيروان ما ذكره اهل الأخبار ونقله ياقوت فى معجم البلدان ج ٧ ص ١٩٣ : قالوا عزل معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج الكندى عن افريقية ، واقتصر به على ولاية مصر ، وولى افريقية عقبة بن

نافع ـ وقال ابن الكلبى : هو عبد الرحمن بن عدى بن نافع ـ وكان مقيما بنواحى برقة وزويلة منذ ولاية عمرو بن العاصى له ، فجمع اليه من أسلم من البربر ، وضمهم الى الجيش الوارد من قبل معاوية وكان جيش معاوية عشرة آلاف ، وسار الى افريقية ونازل مدنها فافتتحها عنوة ووضع السيف فى اهلها ، واسلم على يده خلق من البربر ، وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان .

فجمع عقبة حينئذ اصحابه وقال : ان اهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم ! اذا عضهم السيف اسلموا ، واذا رجع المسلمون عنهم عادوا الى عادتهم ودينهم ، ولست أرى نزول المسلمين بين اظهرهم رأيا .

وقد رأيت ان ابنى ها هنا مدينة يسكنها المسلمون !؟ فاستصوبوا رأيه فجاءوا الى موضع القيروان ـ وهى فى طرف البر ـ وهى أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك أشجارها .

وقال : انما اخترت هذا الموضع لبعده من البر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها ، وهى فى وسط البلاد ، ثم امر أصحابه بالبناء ، فقالوا : هذه غياض كثيرة السباع والهوام ، فنخاف على أنفسنا هنا !؟

وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان فى عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى : أيتها الحشرات والسباع نحن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فارحلوا عنا فانا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه !

قالوا : فنظر الناس يومئذ الى أمر هائل !؟ كان السبع يحمل اشباله والذئب يحمل اجراءه ، والحية تحمل اولادها وهم خارجون اسرابا اسرابا فحمل ذلك كثيرا من البربر على الاسلام .

ثم اختط دارا للامارة ، واختط الناس حوله ، وأقاموا بعد ذلك اربعين عاما لا يرون فيها حية ولا عقربا ، واختط جامعها فتحير فى قبلته فبقى مهموما فبات ليلة فسمع قائلا يقول : فى غد ادخل الجامع فانك تسمع تكبيرا فاتبعه فأى

موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التى رضيها الله للمسلمين بهذه الأرض .
فلما اصبح سمع الصوت ، ووضع القبلة ، واقتدى بها بقية المساجد ، وعمر الناس المدينة فاستقامت فى سنة **٥٥** هـ .

لا يكاد "الميكروب" يتولد فى زمزم

قال أبو تراب :

على أثر مداهمة السيول مكة فى الأيام الأخيرة حيث امتلأت بها بئر زمزم خالج بعض الناس ريب فى مائها الشفاء .. واحتاطت « الصحة » فأغلقت بابها تنتظر التنقية وتحلل قوارير تملأ لها منها ، وأنا اقول للجمهور ـ لا عن دراسة فى الطب وانما باطلاع على أبحاثه وشىء من ممارسته على المعارف اليونانية ـ ان الجراثيم لا تتولد فى ماء زمزم ، وان ماء زمزم حماه الله من حدوث ذلك فيه بسبب ايجاده فيه املاحا تنفى الجراثيم ـ الميكروبات ـ وتقتلها ، وانه ليعالج نحو سبعة واربعين مرضا اثبتها الطب الحديث الذى كشف عن اكبر معجزة كان سببها ضربة جناح جبرائيل عليه السلام ، وفحصة قدم اسماعيل عليه السلام ، حين كانت امه هاجر تسعى بين الصفا والمروة بحثا عن الماء والحديث النبوى يقول : ماء زمزم لما شرب له ، فلئن اثبت الطب صحة المعالجة به لسبعة واربعين مرضا متحققا فذلك من باب التجربة والا فهو طعام طعم وشفاء سقم كما جاء فى الأثر وتعليل ذلك فى الماديات وجود الأملاح الستة المهمة التى فيه عينها الأطباء .

وكنت قد كتبت قديما فى جريدة ـ الندوة ـ ما أدلت به التقارير الطبية الصادرة عن معامل التحليل الكيماوى .. حيث عنى اطباء العالم من غير أهل الاسلام بالكشف عن معجزة هذا الماء المعدنى المبارك المستطاب لتأتى ابحاثهم وتقريراتهم ونظرياتهم مؤيدة لما يعتقده المسلمون ولما ورد فيه من الأحاديث والآثار فى فضله وفضل التضلع منه وحمله والتداوى به « أبردوها بماء زمزم » ، اذن فلا مكابرة ولا انكار للحقائق المسلمة الثبوت بالتشدق بالدعوى والتشكك فى الأمر .

ان ماء زمزم يمتاز بمواد حَمَتْهُ من حدوث اى ميكروب فيه ، فلا يتولد فيه بسببها اصلا ، كما صانته تلك المواد من كل تأثير فيه لأية جراثيم تحل به ، لأنه بكيماويته ينفيها نفيا ظاهراً ، فلا يكون لها فيه اى شأن يظنه الظانون أو يتوهمه المرتابون دون ما علم او تجربة .

وهذا من اعظم الدلائل على عظمة هذا الماء المبارك الذى ينفع لما شرب له .

وان ما قلناه قد اثبتته التحقيقات الطبية الكيماوية ، وقرره الأطباء المختصون حيث قالوا : انه طاهر نقى لا شائبة فيه لأى ميكروب وهو ينفى عنه كل انواع الجراثيم المائية ، ولقد ثبت لديهم ان الميكروبات لا تكاد تتولد فيه ، لأن المواد المخلوقة فيه تحميه منها ، وهى املاح كائنة بهذا الماء الطاهر الذى لا يحمل الخبث مطلقا .

وقد قال الأطباء : انه من المستحيل ان تؤثر فى هذا الماء ميكروبات خارجية تحل فيه فهى لا تجد اليه سبيلا . وقد وقعت التجربة بحفظه فى قنينة مدة طويلة جدا دون ان يتغير أو يفسد ، كما وقعت التجربة ، بتعريضه للميكروبات فلم تؤثر فيه البتة .

ولا نجزم بهذا تقولا ، فلقد نشرت المجلات الأجنبية نصوصا لتقارير طبية قائمة على اصول فن الكيمياء والجيولوجيا وعلوم الطب الحديث فدلت هذه التقارير على ان بئر زمزم يقوم الى يوم القيامة بعمل مستشفى كامل مستعد لمعالجة سائر الأمراض والعاهات لأن الأملاح التى توجد فيه وصل الطب حتى الآن الى انها تعالج سبعة واربعين مرضا نصت عليها اقوال« الدكاترة » النطس .

وقال علماء الطب : ان العلوم الكيماوية الحديثة اكتشفت فوائد عجيبة فى ماء زمزم ، ثبت بالتحليل الكيماوى انه مفيد للجسم الانسانى يحفظ له الصحة على الدوام توصلت الى ذلك التجارب الحديثة فى علوم انباط المياه وطبقات الأرض ، وكانت كالتأييد لما جاء فى الآثار .

وأقول : لئن اكتشف الطب الحديث بعض فوائد هذا الماء المعدنية فى عصرنا الذى وجدت فيه آلات التحليل و« الترمومترات » مع توفر الامكانيات الكثيرة للتحقيقات فى ضوء الطرق الحديثة فليس هذا بمحل عجب . وانما الحيرة التى تندهش لها العقول فى ان هذه الفوائد قد اخبر عنها اجمالا الرسول الكريم منذ قرون خلت فى عصر لم تكن به العلوم الطبية بلغت ذروتها من امكانيات الآلات الكاشفة ، ولم يكن احد يعرف المعدنيات التى توجد فى بعض المياه لعدم توصل الخبرة اليها فى ذلك الزمان ... واسألوا أبا ذر وأبا هريرة ان شئتم ثم اسألوا ابن عمر رضى الله عنهم وان بعضهم لآنس عكنات فى بطنه من الصحة الناشطة ولم يكن له طعام ولا شراب الا ماء زمزم .

داء التصحيح

قال أبو تراب :

المبتلون بهذا الداء كثيرون ومنهم أنا ، ولكنى مبتلى بداء آخر هو انى لا اقرأ ما أكتب ، اللهم الا الشعر ، لأنى ربما سكبت فيه عصارة تفكيرى فلا أحب ان أراه منشورا بغلط ، وصدمنى المصحح الكريم - ولا أدرى من هو - فى مقالة لى نشرت وفيها قصيدتى الى سعادة الشيخ احمد بن ابراهيم الغزاوى ، ورسمتها شناترى فأحببت ان تصافحها عيناى فى عمود صحيفة ، فوجدت فيها الخطأ الذى كسر عرقوب بيت الشعر وللمصحح ألتمس العذر بحكم المهنة ، والمصيبة أنى لا أذكر الآن البيت الكامل الذى وقع فيه التطبيع ، وانما اذكر انه غير كلمة « عصّى » وهو جمع « عصا » فى قولى : « وقد شق فيه عصّى الشقاق » بكلمة « عصا الشقاق فكسر الوزن ، وكأنه عرف ان كلمة العصا ترسم بالألف لانها واوية فتجمل ولم يعرف ان جمعها « عصّى » بالياء وهو المراد فى الشطر المذكور فسامح الله المصحح وعفا عنا جميعا .

قال ابو تراب :

اختلفت وسائل التنقل والارتحال والظعن والاسفار فيما عهده الناس فى السابق من الأبل كيف خلقت وبموجب ذلك وقع الامتداح والنعت والافصاح والوصف لما يتصل بذلك فى الشعر والنثر العربيين هذا عدا حكاية حال او مطلب ضل ، مما زمم الناقة او خطمها او الجم الفرس او لغمها .

فمما يصلح ان نصدر به هذه العجالة مما اختزنته الذاكرة واسعف به الخاطر المقارنة التى وقعت فى الادب العربى بين قول عبد الله بن رواحة الانصارى ـ لما أمره رسول الله صلعم على جيش مؤتة بعد زيد وجعفر ـ يخاطب ناقته

اذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة اربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع الى اهلى ورائى

وبين قول الشماخ بن ضرار الغطفانى حين خرج يريد المدينة فصحب عرابة بن أوس الانصارى فسأله عما يريد بالمدينة فقال : أردت أن أمتار لاهلى وكان معه بعيران فانزله واكرمه وأوقر له بعيريه تمرا وبرا فقال فيه :

رأيت عرابة الاوسى يسمو الى الخيرات منقطع القرين
اذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وكيف فضل خطاب الاول على الآخر لناقته والخبر فى الكامل للمبرد والشعراء لابن قتيبة وطبقات ابن سعد والاصابة لابن حجر .

وتذكرت ما روى ان قوما من اليمن اقبلوا يريدون رسول الله فضلوا الطريق ووقعوا على غير ماء فمكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء فجعل الرجل منهم يستذرى بفىء السمر والطلح فبيناهم كذلك اذ أقبل راكب على بعير فأنشد بعض القوم :

فلما رأت ان الشريعة همها وان البياض من فرائصها دامى
تيممت العين التى عند ضارج يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فقال الراكب من يقول هذا الشعر ؟ قالوا امرؤ القيس فقال والله ما كذب هذا ضارج عندكم واشارلهم اليه فأتوه فاذا ماء غدق واذا عليه العرمض والظل يفىء عليه فشربوا منه وارتووا وحملوا ولولا ذلك لهلكوا حتى بلغوا رسول الله ﷺ فأخبروه وقالوا احيانا بيتان من شعر امرىء القيس . والقصة فى اللسان ومعجم ياقوت وعيون الاخبار لابن قتيبة والاغانى .

ومن ذلك ما ذكر الميدانى فى قولهم : عند الصباح يحمد القوم السرى قال المفضل ان اول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث اليه ابو بكر وهو باليمامة ان سر الى العراق فأراد سلوك المفازة فقال له رافع الطائى قد سلكتها فى الجاهلية هى خمس للابل الواردة ولا اظنك تقدر عليها الا ان تحمل من الماء فاشترى مئة شارف فعطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ثم كتبها وكعم افواهها ثم سلك المفازة حتى اذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل وخشى ان يذهب ما فى بطون الابل من الماء نحرها واستخرج الماء فسقى الناس والخيل ومضى ولما كان فى الليلة الرابعة قال رافع انظروا هل ترون سدرا عظاما فان رأيتموها والا فهو الهلاك فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد :

لله در رافع انى اهتدى فوز من قراقر الى سوى

خمسا اذا سار به الجيش بكى ما سارها من قبله انس يرى
عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلى عنهم غيابات الكرى

وهذا كله يقع فيه نعت الرواحل لانها كانت هى الوسيلة فى الاسفار وبذلك فضلت على كل شىء آخر عندهم قال المتنبى :

الا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيدبى

وكان علقمة بن عبدة الفحل ابرع الشعراء فى وصف الناقة وبالجمال كان جمال العرب وهو القائل فى وصف فرسه :

فادركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

وبهذا فضلته ام جندب حليلة امرىء القيس على بعلها اذ يحتكمان اليها فقالت قولا شعرا تصفان فيه الخيل على روى واحد وقافية واحدة فأنشداها جميعا فقالت لامرىء القيس علقمة اشعر منك قال وكيف ذاك قالت لانك تقول :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع اخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك فاما علقمة فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه وقد وصف الشعراء الجاهليون الناقة عضوا عضوا والشعر العربى زاخر بهاته التحف الظراف ويبدرنا فى هذا قول طرفة فى ذنبها وما أبدعه :

كأن جناحى مضرحى تكنفا حفافية شكا فى عسيب بمسرد

وهو القائل :

قد تبطنت وتحتى سرح تتقى الارض بملثوم معر

وعلقمة هو القائل :

كأن غسلة خطمى بمشفرها في الخدمنها وفى اللحيين تلغيم

وفى كتاب الدلدل للاصمعى :

رحلت العنس فى البيدا اقول الشعر فى العظلم
وتحتى جسرة ادما من المهوية الخطم

ويقول عنترة العبسى وفى الرواية اختلاف فى النسخ المطبوعة من الديوان وقد اخذناه من المخطوطات :

أشاقك من تكنى الجياد المدملج وقلبك فيه لاعج متوهج
لفقد التى بانت وانت متيم غدت واحتواها عنك بالبر هودج

الى ان يقول :

وهل مبلغى الاقلوص شملخ شمردلة بين الفجافج نفج
شمل شمول شملخيخ شملخ خمود اذا قبلتها الآل تدلج
عقيلية مهرية ارحبية عرندسة أم شامخ الناب اهوج
أجا بكرات استطاع ضرابها ابا عذوات بالرديفين اهوج
اهم بقطع الواديين يهيلنى يصادفنى فى الواديين السلجلج

ومن المقامة المكية التى تضمنت قصة ابى زيد وابنه متغربين معدمين احدهما يطلب راحلة : انه هجم علينا شيخ متسعسع يتلوه فتى مترعرع وانشد :

انى امرؤ أبدع بى بعد الوجى والتعب
وشقتى شاسعة يقصر عنها خببى
فحيلتى منسدة وحيرتى تلعب بى
ان ارتحلت راجلا خفت دواعى العطب
وان تخلفت عن الرفقة ضاق مذهبى

ومن المقامة الوبرية وفيها قصة الناقة الضالة : ان الحارث قال : اضللت فى ليلة منيرة البدر لقحة غزيرة الدر فلم اطب نفسا بالغاء طلبها والقاء حبلها على غاربها فتدثرت فرسا محضارا واعتقلت لدنا خطارا وسريت ليلتى جمعاء اجوب البيداء واقترى كل شجراء ومرداء الى ان نشر الصبح راياته وحيعل الداعى الى صلاته فنزلت عن متن الركوبة لاداء المكتوبة ثم حلت فى صهوتها وفررت عن شحوتها حتى نظرت الى ساغ فى هيأة سائح فأنشد بديها ولم يقل ايها :

انـــا ما بـــين جوب ارض فأرض وسرى فى مفـــازة فمفازة
زادى الصيـــد والمطيـــة نعلى وجهـــازى الجـــراب والعكازة

فأخبرته خبر ناقتى السارحة وما عانيته فى يومى والبارحة فقال دع الالتفات الى مافات حتى ادركته بعد الاين واجلت فيه مسرح العين فوجدت ناقتى مطيته وضالتى لقطته كذبت ان اذريته عن سنامها وجاذبته طرف زمامها وقلت له انا صاحبها ومضلها ولى رسلها ونسلها واطلعته طلع اللقحة فقال :

ان يكن ساءك امسى فلقـــد سرك يومى
فاغتفـــر ذاك لهذا واطـــرح شكرى ولومى

وولى يفرى اديم الارض ويركض طرفه ايما ركض فما عدوت ان اقتعدت مطيتى وعدت لطيتى حتى وصلت الى حلتى بعد اللتيا والتى ..

ومن خبر ناقة ابى زيد فى المقامات ايضا : لم نزل نعانى السرى ونعاصى الكرى وبعيرى ينحط من الكلال وراحلته تزف زفيف الرال فاعجبنى اشتداد اسرها وامتداد صبرها فقال ان لهذه الناقة خبراً حلو المذاقة مليح السياقة فان احببت استماعة فانخ وان لم تشأ فلا تصخ فانخت لقوله نضوى واهدفت السمع لما يروى فقال :

اعلم انى استعرضتها بحضرموت وكابدت فى تحصيلها الموت ومازلت اجوب عليها البلدان واطس باخفافها الظران الى ان وجدتها عبر اسفار وعدة قرار لا يلحقها العناء ولا تواهقها وجناء فأرصدتها للخير والشر واحللتها محل البر والسر فاتفق ان ندت منذ مدة ومالى سواها قعدة فاستشعرت الاسف واستشرفت التلف ومكثت ثلاثا لا استطيع انبعاثا ثم اخذت فى استقراء المسالك وتفقد المسارح والمبارك فبينا انا فى حواء بعض الاحياء اذ سمعت منشدا من ضلت له مطية حضرمية وطية جلدها قد وسم وعرها قد حسم ورمامها قد ضفر وظهرها كأن قد كسر ثم جبر تزين الماشية وتعين الناشية وتقطع المسافة الناشية وتظل ابدا لك مدانية لا يعتورها الونى ولا يعترضها الوجى ولا تحوج الى العصا ولا تعصى فيمن عصى فقلت له سلم المطية وتسلم العطية فقال وما مطيتك غفرت خطيتك قلت له ناقة جثتها كالهضبة وذروتها كالقبة وحلبها ملء العلبة وكنت اعطيت بها عشرين اذ حللت يبرين فاستزدت الذى اعطى ودريت انه اخطا فقال لست بصاحب لقطتى فأخذت بتلابيبه واصررت على تكذيبه وهممت بتمزيق جلابيبه .

ومما اذكر فى ذلك قول النمر بن تولب وهو من عكل وكان شاعرا جوادا ويسمى الكيس لحسن شعره قدم الى سول الله ﷺ مسلما فقال :

انا اتيناك وقد طال السفر ... نقود خيلا ضمرا فيها عسر
نطعمها الشحم اذا عز الشجر ... والخيل فى اطعامها اللحم ضرر

ويقول هشام أخو ذى الرمة :

ألوى الجهال هراميل العفاء بها ... وبالمناكب ريع غير ملجوم
تصطك اعناقها والبق يقذعها ... حتى اناخوا فزموا كل مزموم
من كل أكلف او أجأى تنط له ... أنساع تابوت جوف غير مهضوم

وقال امرؤ القيس يصف فرسا :

ويخطـو على صم صلاب كأنها حجـارة غيـل وارسـات بطحلب

وقال النابغة الجعدى :

كأن حواميـه مدبرا خضبـن وان كان لم يخضب

وقال الكندى يصف الناقة :

كأن الحصـا من خلفهـا وامامها اذا نجلتـه رجلهـا خذف أعسرا

وقال الشماخ وكأنه أخذ من الاول :

لهـا منسـم مثـل المحـارة خفة كأن الحصا من خلفه خذف اعسرا

وقال الفرزدق :

تنفى يداهـا الحصـا فى كل هاجرة نفـى الدراهـم تنقـاد الصياريف

ومن قول الكندى فى الفرس :

سلم الشظا عبل الشوى شنج النسا له حجبـات مشرفـات على الفال

وقـال :

له ايطـلا ظبـى وساقـا نعامة وارخـاء سرحـان وتقريـب تتفل

وقال المعذل :

له قصريـا رئـم وشدقـا حمامة وسالفتـا هيـق من الربـد أربدا

ومن المعلقة :

كميـت يزل اللبـد عن حال متنه كما زلـت الصفـواء بالمتنزل

واوله :

وقـد أغتدى والطـير فى وكناتها بمنجـرد قيـد الاوابـد هيكل

وقال المتنبى :

فتبيت تسئد مسئدا فى نيها   إسآدها فى المهمه الانضاء

وهذا فى الناقة التى وصف طريقها بالعذراء وخفافها بالثقوب :

ويقول زهير بن ابى سلمى فى صفة الجواد :

فبتنا عراة عند رأس جوادنا   يزاولنا عن نفسه ونزواله
ونضربه حتى اطمأن قذاله   ولم يطمئن قلبه وخصائله
وملجمنا ما أن ينال قذاله   ولا قدماه الارض الا انامله
ورحنا به ينضو الجياد عشية   مخضبة ارساغه وعوامله

ويقول وما ابلغه :

القائد الخيل منكوبا دوابرها   قد احكمت حكمات القد والأبقا
غزت سمانا فآبت ضمرا خدجا   من بعدما جنبوها بدنا عققا
حتى يؤوب بها عوجا معطلة   تشكو الدوابر والانساء والصفقا

وقال أيضا فى القلائص :

هل تبلغنى ادنى دارهم قلص   يزجى اوائلها التبغيل والرتك
مقورة تتبارى لا شوار لها   الا القطوع على الانساك والورك
مثل النعام اذا هيجتها ارتفعت   على لو احب بيض بينها الشرك

وقال يصف الخيل :

وكل طوالة وأقب نهد   مراكلها من التعداء جون
تضمر بالاصائل كل يوم   تسن على سنابكها القرون
وخرجها صوارخ كل يوم   فقد جعلت عرائكها تلين

وعزتهـــا كواهلهـــا وكلت سنابكهـــا وقدحـــت العيون
اذا رفـــع السيـــاط لهـــا تمطت وذلك من علالتهـــا متين
ومرجعهـــا اذا نحـــن انقلبنا نســـيف البقـــل واللبـــن الحقين

وحسبك فى البـاب قولـه تعـالى : « إذ عرض عليـه بالعشى الصافنـات الجياد » . وقوله : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » . وقولـه تعـالى : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت » .

« اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك »

قال أبو تراب :

هذه دعوة المسيح عليه السلام ، قال له الحواريون : هل يستطيع ربك أن يفعل ذلك ؟ قال : اتقوا الله ! قالوا : نريد أن نأكل ونريد أن تطمئن قلوبنا إلى صدقك ، فلما دعا عيسى الله .. قال : انى منزلها فمن يكفر بعد فالعذاب وكذلك سنة التحدى وطلب المعجزات .

قال أبوتراب : ونزلت المائدة يوم الأحد واتخذ عيدا ، ومن أجل كلمة العيد الواردة فى القرآن استفتحنا هذا المقال المناسب للعيد بهذه الآية وان لم تتعلق بالموضوع ، ولسنا بصدد تفسيرها ولا بيان مافيها من القصة ، ولا ذكر اسرارها البلاغية ، وانما المرام هنا اللفظ المشتق من العود ، والعيد اسم المصدر عند علماء الصرف كالقيل من القول ، وهو اسم لما عاد فى وقت معلوم ، فسمى العيد عيدا لأنه يعود كل سنة فيفرح بجديده من فرح ، وهذا معنى قول عيسى عليه السلام « تكون لنا عيدا » اى نتخذ اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا نعظمه نحن ومن يأتى بعدنا ، وهكذا كان ذلك العيد عند النصارى .

قال أبوتراب : وقلنا ان العيد سمى به لأنه يعود كل سنة فيفرح به من فرح ، وفى هذا اشارة الى ان ليس كل عيد يأتى بفرح على كل احد خلافا لمن توهم هذا ، وهو غير صحيح لا لغة ولا واقعا مشاهدا ، اما اللغة فالعيد فيها

بالكسر ما اعتادك من هم اومرض او حزن او نحوه من نوب وشوق قال الشاعر : (والقلب يعتاده من حبها عيد) وقال يزيد بن الحكم الثقفى يمدح سليمان بن عبدالملك :

امسى بأسماء هذا القلب معمودا   اذا اقول صحا يعتاده عيدا

وقال تأبط شرا :

ياعيد ما لك من شوق وايراق   ومر طيف على الأهوال طراق

قال ابن الانبارى فى قوله :

« ياعيد مالك » العيد مايعتاده من الحزن والشوق اراديا ايها المعتادى مالك من شوق اى ما اعظمك من شوق كقولك مالك من فارس وانت تتعجب من فروسيته وتمدحه .

والعيد كل يوم فيه جمع واشتقاقه كما قلنا من عاد يعود ، كأنهم عادوا اليه ، وقيل اشتقاقه من العادة لأنهم اعتادوه ، والجمع اعياد لزم البدل ، ولو لم يلزم لقيل اعواد كريح وارواح لأنه من عاد يعود .

ويقال : عيدوا اذا شهدوه اى العيد قال العجاج يصف ثورا وحشيا :

واعتاد ارباضا لها آرى   كما يعود العيد نصرانى

فجعل العيد من عاد يعود ، وتحولت الواو فى العيد ياء لكسرة العين ، كما هو مقرر فى تعليل الصيغ فى الصرف ، وتصغير عيد عييد ، تركوه على التغيير كما انهم جمعوه اعيادا ولم يقولوا اعوادا .

قال الأزهرى : والعيد عند العرب الوقت الذى يعود فيه الفرح والحزن ، وكان فى الأصل العود ، فلما سكنت الواو وانكسر ماقبلها صارت ياء ، وقيل قلبت الواو ياء ليفرقوا بين الاسم الحقيقى وبين المصدرى .

قال الجوهرى : انما جمع اعياد بالياء للزومها فى الواحد ويقال للفرق بينه وبين اعواد الخشب . وقال ابن الاعرابى : سمى العيد عيدا لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد .

قال ابوتراب : وهذا الذى ذكرناه اورده علماء اللغة فى كتبهم كالأزهرى فى التهذيب وابن منظور فى اللسان والزبيدى فى التاج .

قال ابوتراب : والقول فى الأعياد قبل الاسلام يقتضى أن أقرأ قوله تعالى حكاية عن دعوة عيسى عليه السلام فى مستهل كلامى : « اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك » ذلك لأنه كان عيدا لهم يوم الأحد ، ولأجل وروده فى القرآن استهللت بهذا وما رمت التاريخ ، ولا كانت مناسبة عيد الفطر تقتضى ان نعرج على اعياد غيرنا ولكل قوم عيد كما فى الحديث النبوى الشريف ، بل كان على ان اكتب عن عيدى المسلمين وهما الفطر والأضحى ، ولكن الطلب جعلنى اخرج عن القاعدة ، وان كان هذا الخروج له مساس بالمناسبة على طريقة الأدباء ، والموضوع الذى اسند الى طويل الذيل ولكنى احرص على ان اقصر منه حتى ابلغ الغاية من ذكر هذا العيد الذى يهل علينا عقيب الافطار ، ولتثق بما صار اليك من العلم وارجع اذا شئت الى النواب القنوجى وكتب البيرونى والصوفى وابن خلدون فمعلومى مستقى من هؤلاء ولعلك لاتعيب على حشوا فأخذا عندما يلزم الدرج وبالله المستعان .

قال ابوتراب : ومن ايام الأعياد الشهيرة يوم نيروز ، وبعض الحشوية يقولون ان سليمان بن داوود لما افتقد خاتمه ، وذهب عنه الملك ، ثم رد عليه بعد اربعين ليلة قالت الطيور (نوروز آمد) اى جاء اليوم الجديد فسمى النوروز وهو من ايام الفرس .

ويوم آخر هو اليوم السادس من النيروز وهو روزخرداذ وهو عيد عظيم عند الفرس ، وكانوا يعتقدون ان الله خلق فيه المشترى واسعد ساعاته على حسب

معتقدهم .

والعيد عندهم كان بعد ذلك فى (أرديبهشت) وهو روزوماه عيد يسمى بـ« اردیبهشكان » ومعناه منتهى الخير .

ويوم اشتاذروز ، ويوم خردادماه ، وفيما استحدث منهم كان عيد جشن نيلوفر .

وروز تير عيد عندهم يسمى التيركان ، وروز مرداذ ، وروز مهر عيد ، ويعرف بالمهرجان ورام روز هو المهرجان ، وروز آبان عيد ، ويوم آذر عيد ، وأعياد أخرى وروز مهر ، وهذا يسمى : درامزينان . ولا يعنينى هذا البحث عند الوقوف على هذا الاسم .

وروز افند اسفند عيد عندهم باتفاق ، ورام روز هو المهرجان العظيم وسببه ظفر افريدون بالضحاك على ماجاء فى الشاهنامة تسلينا بها ايام الصبا ورحم الله جدى كان يثقفنى بها .

قال أبوتراب : وروز آبان ماه عيد كان يسمى آبانكان ويوم آذرجشن عيد ، وروز خور وروز كوش وروزدى بمهر ودرامزينان وباذروز وافريجكان اعياد عندهم كروزخرودين .

وأما أعياد أهل السغدفنوسرد وهو العيد الكبير ، ومجوس بخارى كان لهم عيد يسمى رامش آغام وجرجن ونيسنج وماخيرج وعمس خوارة واشنا خندا ، كلها أعياد عندهم .

ولأهل خوارزم ناوساريجى واردوشت واجغار واخشر يورى وخشنكام .

قال ابوتراب : وعيد رأس السنة هو عيد اليهود اصلا كانوا ينفخون فيه بقرون الكباش . والعاشوراء صوم لهم خالفهم فيه رسول الله ﷺ بقرنه بالتاسوعاء ، وعيد المظال أيامه سبعة متوالية وعيد وقف الغمام على بنى اسرائيل وعيد التبريك .

وعيد الحنكة وعيد الفصح يهودى بالتحقيق وعيد العنصرة عندهم عيد عظيم

وفيه حضر مشايخ بنى اسرائيل طور سيناء فسمعوا قول الله تعالى من موسى من الجبل بالأمر والنهى والوعد والوعيد وأمروا أن يتخذوا فيه عيدا شكرا لله على سلامتهم وغلاتهم من الصواعق والبرد والرياح .

وفى السفر الثانى من التوراة : وحجوا الى ثلاث مرات فى كل سنة الأول فى حين الفطير والثانى حين نزلت التوراة والثالث فى آخر السنة ولكن اليهود عصوا الله فيما أمر .

وفى كتاب المقالات لأبى عيسى الوراق ان نوعا من اليهود يقال لهم المغاربة يزعمون ان الأعياد لاتصح الا بأن يكون القمر فى ليلة الأربعاء وهى التى تتلو نهار الثلاثاء عند غروب الشمس يطلع بدرا فذلك رأس السنة ومنه تعد الأيام والشهور وعليه تدور الأعياد لأن الله خلق النورين العظيمين فى يوم الأربعاء وكأنهم لايجيزون الفصح الا يوم الأربعاء وهذا ضد مانطقت به التوراة .

قال البيرونى : وأما العنانية فانها تأخذ اوائل الشهور من رؤية الهلال بالعيان فلا يبالون بهذه الأعياد كيف اتفقت من الأسبوع الا فى السبوت فانهم يؤخرونها الى يوم الأحد الذى يتلوه ويسمون هذا التأخير دحيا ولا يتناولون يوم السبت عملا البتة حتى الختان للمولودين فانهم يؤخرونه الى اليوم التابع خلاف ما تعمل عليه الربانية فى ذلك .

قال أبوتراب : ويتعلق ببطلان عملهم هذا قوله تعالى : « **اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لا تأتيهم** » .

ومن أعياد النصارى عيد الورد وهو ذكرى النبى أرميا وعيد السنابل ، وعيد اكليل السنة .

ولا تنس عيد الذهبانية ويوم البخت وعيد دميس وعيد الفتية وديلفتان وعميد وكلها اعياد عندهم .

قال ابوتراب : ولاعيد عندنا الا عيد الفطر وعيد الأضحى ، فهما عيدا اهل

الاسلام ، وبهما نحتفل دون ما سواهما .

وفى الصحيحين وسنن ابى داوود والترمذى والنسائى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ خرج يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما ثم أتى النساء وبلال معه فأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تصدق بخرصها وسخابها .

قال ابوتراب : خرج يوم أضحى أو يوم فطر ، وقد صح انه كبر سبع تكبيرات فى الأولى وخمس تكبيرات فى الأخرى ، وأصابهم مطر يوم فطر فصلى رسول الله فى المسجد ، ولا أذان ولا إقامة ، والخطبة بعد الصلاة كما هو فعل الصحابة ، ففى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن نافع مولى ابن عمر رضى الله عنهم ان ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ وابوبكر وعمر يصلون العيدين قبل الخطبة .

وفى روايته : أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقرأ : « **ياأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن** » ثم قال أنتن على ذلك .

وفى رواية فجعلت المرأة تلقى القرط والفتخ والخاتم .

قال أبوتراب : والسنة فى القراءة بـ« **ق والقرآن المجيد** » و « **اقتربت الساعة** » وقد ورد ان رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العيدين والجمعه بـ« **سبح اسم ربك الأعلى** » و« **هل اتاك حديث الغاشية** » .

وقد أمر ان تخرج يوم العيد البكر من خدرها وذات الحيض والعاتق ، ويعتزلن مصلى المسلمين .

وفى سنن النسائى قال ابن عمر رضى الله عنهما : ان رسول الله ﷺ كان يخرج العنزة يوم الفطر ، ويوم الأضحى يركزها فيصلى اليها .

قال أبو تراب :

ألف الاقدمون فى الجن كتبا من أشهرها « آكام المرجان فى أحكام الجان » للشبلى الحنفى .. وكتاب « لقط المرجان » للسيوطى . وورد ذكر الجن فى القرآن الكريم تصريحا ثلاثا وثلاثين مرة ، خمسا منها بلفظ (الجان) وخمسا بلفظ (الجنة) وثلاثا وعشرين بلفظ (الجن) . اما قوله تعالى : « فلما رآها تهتز كأنها جان » فهو بمعنى الحية وكذلك ما جاء من قوله : « ام به جنة » فهو من الجنون . قال الله تعالى : « خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار » والجان اما هو ابو الجن كآدم ابى الانس واما هو الجن بنفسه لان الجان والجن وصفان من باب واحد ، ويقال : الجن اسم الجنس والجان بمثابة الصفة . فالجان الأول خلق من نار ومن بعده من ذريته خلق من مارج اى النار الصافية أو المشوبة بدخان مختلط فالانسان الاول من اصل كثيف وذريته من صلبه والجان الاول من اصل لطيف فضل عليه الكثيف ، فكان دحرا للقياس اذ قاس ابليس « قال انا خير منه خلقتنى من ناز وخلقته من طين »

وقال تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » وهذا اما من باب « ولا تزر وازرة وزر اخرى » واما انهم يعرفون بسواد وجوههم فلا يحتاج الى أن يسأل من المذنب ؟ لأنه جاء بعد ذلك : « يعرف المجرمون بسيماهم » وقال تعالى : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » وقال ايضا فى موضع آخر : « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » وفى هذا بيان عفاف الحور العين وكمال عظمتهن بحيث لم يمسهن احد من الفريقين وفى هذا ايضا تصريح بمواقعة الجن لذلك كانت لهم ذريات واولاد واختلفوا فى انهم هل يواقعون الانس والمشهور

اثبات ذلك .

وقال تعالى : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » اى لا تجدون الخلاص من العذاب الا بسلطان من الله يجيركم . وقال تعالى : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » هو ابو الجن كما تقدم أو هو ابليس كما فى رواية ابن عباس والحسن ومقاتل وقتادة والجن عند بعضهم جنس غير الشياطين والاصح ان الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمنا فانه لا يسمى بالشيطان وكل من كان منهم كافرا سمى بهذا الاسم ، وفى الآية دليل على أسبقية خلق الجن من نار السموم ، قال ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق الله منها الجان ، وامكان حصول الحياة فى هذه الاجسام من قدرة الخالق جل وعلا . وقال تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » والحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى ان الله سبحانه وتعالى جعل كل هذه الاصناف جنوده وسخرها له وهذا دليل عظمة ملكه .

وقال تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » روى عن ابن عباس انه قال : نزلت هذه الآية فى الزنادقة الذين قالوا ان الله وابليس اخوان ، وهم يقولون والعياذ بالله ان الله خالق الناس والدواب والانعام والخيرات .. وابليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور والذى يقوى هذا الوجه قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا » قيل وهذا مذهب المجوس القائلين باله الخير واله الشر وهما عندهم يزدان وأَهْرَمَنْ نسأل الله السلامة .

وقال تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم

وما يفترون » والمعنى مردة الجن والانس والشيطان كل عات متمرد ومن الجن شياطين ومن الانس شياطين ، والشيطان من الجن اذا اعياه المؤمن ذهب الى متمرد من الانس وهو شيطان الانس فأغراه بالمؤمن ليفتنه ، وفى رواية لأبى ذر قال له رسول الله ﷺ هل تعوذت من شر شياطين الانس والجن قال وهل للانس من شياطين قال : نعم هم شر من شياطين الجن . وقال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذى اجلت لنا » وهذا تبكيت لهم وبيان لاعترافهم بالجرم ، والمراد استكثار الجن من الدعاء الى الضلال مع مصادفة القبول والاستمتاع بين الفريقين على سبيل الاستعاذة والتعظيم وهو من الشرك الصريح وكم من واقع فى حبائله يعظم الجنى ويناديه لكشف كربته وجلب منفعته ويعتقد فى قدرته ويعوذ به ويطيعه وينقاد لحكمه وهو يدله على انواع الشهوات واللذات وتأتى الخيبة والحسرة يوم المحاسبة « قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » . وقال تعالى : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين » وهذا تبكيت آخر يقع يوم القيامة أما وقوع البعثة إلى الجنى فالآية ظاهرة لكن هل كان الرسل من الجن أم من الانس فقط ، فيه خلاف وقال تعالى : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار » . هذا من كلام خازن النار لأن الله تعالى لا يكلم الكفار والآية دليل على وقوع العذاب على الجن .

وقال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس » وهذا دليل آخر على وقوع العذاب على الجن كالانس واما جواب قول المعتزلة بأنه اراد من الكل الطاعة فهو ان هذا بموجب علمه الازلى سبحانه وتعالى وهو الذى يحيط بمصاير الأمور من عباده كإحاطته باكتساب كل مكتسب . وقال تعالى : « قل لئن

اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ووقوع التحدى مع الجن ايضا ينفى كون هذا الكلام من ايحاء الجن الى الرسول كما اعتقد الجاحدون « هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك اثيم » وقال تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه » فى هذه الآية تصريح بأن ابليس من الجن ، وبعضهم قال : ان قبيلة من الملائكة يسمون بهذا الاسم وبعضهم قال انه من الجن الشياطين وقال آخرون : انه من الملائكة فمسخ والذى يدل على انه ليس من الملائكة ان الله تعالى اثبت له ذرية ونسلا « افتتخذونه وذريته اولياء من دونى » والملائكة ليس لهم نسل .

وقال تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك وانى عليه لقوى امين » .. والعفريت من الشياطين الخبيث المارد يغر اقرانه وفى الآية دليل على ما خلق الله تعالى من قوة فى هذا النوع من خلقه . وقال تعالى : « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير » فسبحان من سخر له هذا الجنس الذى يتقيه الآدمى لكنه جل شأنه تولى حفظه من همزات الجن فكانوا يعملون بين يديه دون احداث اية مفسدة مع استئناسهم بما يضارعهم أو يطلبون اصطياده « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » .

وقال تعالى : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » .. هذا فى قصة وفاة سليمان عليه السلام والجن لا يعلمون الغيب والا لما بقوا فى الاعمال الشاقة ظانين ان النبى حى وفى ذلك دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا فى التسخير اذ لا يقع عليهم العذاب .

وقال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا

يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون » اى كانوا ينقادون لأمر الجن . وقال تعالى : « وحق عليهم القول فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين » وهـذا يدل على كينونتهم فى جملة امم متقدمة فى العهود .

وقال تعالى : وقال الذين كفروا ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الاسفلين » قيل : هما ابليس وقابيل والظاهر من الآية الجنسان من شياطين الانس والجن . وقال تعالى : « اولئك الـذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين » وهذا ايضا دليل وقوع العذاب على أمة الجن عند الانحراف وقـال تعـالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » والعبادة التى خلق الجن لاجلها فى تعظيم امر الله تختلف بالهيئة والزمان والمكان والكثرة والقلـة والـكيف والـكم وبالخصوص فهم مكلفون .

وقال تعالى : « ولكن حق القول منى لاملأن جهنـم من الجنـة والنـاس اجمعين » لأنه تعالى قال لابليس : لاملأن جهنم منك وممن تبعك . وقال تعالى : « وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » وهذا ايضا دليل للاشتراك فى العذاب عند العصيان . وقال تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون » فيها حكاية معتقدهم الفاسـد من اقامـة الملائكة بنات لله والعياذ به أو من جعل الجن شركاء له ، وفيها اثبات حشر الجن وتعذيبهم بالنار . وقال تعالى : « الذى يوسـوس فى صدور النـاس من الجنـة والناس » والخناس يكون من الجنة ويكون من الانس والاستعاذة وقعـت من ثلاث آفات من البلايا فى سورة الفلق وذكر للمستعاذ به ثلاث صفات فى سورة الناس فالمطلوب فى الاولى سلامة النفس والمطلوب فى الثانية سلامة الدين .

وقال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا

يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم يؤمنون » يعنى أنهم كانوا ينقادون لطاعتهم يتخذونها كالقبلة لقرباتهم .

وقال تعالى : « واذا صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين » بين الله تعالى .. ان فى الجن من آمن وفيهم من كفر واجمعوا على انهم مكلفون . وقال تعالى : « قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا ، وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا ، وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ، وانهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احدا ، وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وانا لا ندرى أشر اريد بمن فى الارض ام اراد بهم ربهم رشدا ، وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا . وانا ظننا ان لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا ، وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ، وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فأولئك تحروا رشدا ، واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

قال سعيد بن جبير : كانت الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذى حدث فى السماء انما حدث لشىء فى الارض فذهبوا يطلبون السبب وكان قد اتفق ان النبى ﷺ لما ايس من اهل مكة ان يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخلة قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به نفر من اشراف جن نصيبين لان ابليس بعثهم ليعرفوا السبب الذى اوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا ان ذلك هو السبب . وقالو ان ذلك هو السبب . وقالوا ان فى الجن مللا كالانس من يهود ونصارى ومجوس وعبدة اصنام .

وقال ابن عباس لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة ويزدحمون على ابوابها .

وروى ان الجن المكنى عنهم فى قوله : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن الآية » سبعة نفر من نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا الى قومهم هذه رواية ابن عباس ، ويروى بن حبيش انهم تسعة احدهم زوبعة ، وعن قتادة انهم صرفوا اليه من ساوة .

واختلفوا هل كان عبد الله بن مسعود مع النبى ﷺ ليلة الجن والروايات فيه مختلفة مشهورة لسنا بصدد تحقيقها فلها مقام آخر ان شاء الله وأمد فى العمر .

وعن انس قال كنت مع رسول الله ﷺ فى جبال مكة اذ اقبل شيخ متوكىء على عكازة فقال النبى ﷺ مشية جنى ونغمته فقال : أجل : انا هامة بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال : لا أرى بينك وبين ابليس الا ابوين فكم اتى عليك ؟ فقال : اكلت عمر الدنيا الا اقلها ، وكنت وقت قتل هابيل على يد قابيل امشى بين الآكام - وذكر كثيرا مما مر به وذكر فى جملته ان قال : قال لى عيسى بن مريم : ان لقيت محمدا فأقرئه منى السلام وقد بلغت سلامه وآمنت بك فقال عليه السلام وعلى عيسى السلام وعليك يا هامة فقال : ان موسى علمنى التوراة وعيسى علمنى الانجيل فعلمنى القرآن فعلمه عشر سور وقبض رسول الله ﷺ ولم ينعه قال عمر ولا أراه الا حيا ولابن كثير فى هذه الرواية كلام فراجعه ، والرواية واهية الإسناد .

واختلف الناس قديما وحديثا فى ثبوت الجن ونفيه فالفلاسفة كأبى على ابن سينا ينكرونه وله كلام عنه فى حدود الاشياء يقول فيه انه هوائى يتشكل ، وأما جمهور ارباب الملل المصدقين بالنبوة فقد اعترفوا بوجود الجن واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة ومنهم من لا يجعل الجن اجساما ولا حالة فى الاجسام بل هى جواهر قائمة بأنفسها وبعضها خيرة وبعضها شريرة ولاشك ان ماهيتها مختلفة ولايبعد ان لكل نوع منها تعلقا بنوع مخصوص من هذه الاجسام السفلية

من العالم كما دلت عليها القرائن .

وقائلون بجسمانية الجن مع التماثل والتكاثف ومورد التقسيم والمكان والتصرف والزمان والمباحث فى كل ذلك طويلة الذيل لسنا هنا بصددها . وما بدأنا فيه القول الا لامر اخى الاستاذ عبدالله الدارى مدير عكاظ عن له فيه شيء وما ادرى ما الذى لاث به من امر الجن حتى اراد استجلاء الامر فى ضوء الوحى .. فأجبناه بما وعته الذاكرة والحمد لله على ما انعم .

قال ابو تراب :

فى ديوان أبى العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ هـ المعروف « باللزوميات » ظاهرة جديرة بالبحث والدراسة ، وانى على كثـرة ما وقفـت على ما كتـب عن هذا الفيلسوف الفحل من الشعراء لم أجد من تعرض لتلك الظاهرة بحثاً مستفيضاً ممن تصدى لاستيعاب جوانب حياته واستقصاء ظواهرها وتتبع شواذّها ، حتى العلامة الفاضل عبد العزيز الراجكوتى فى كتابه عن شاعر المعرّة المعنون « بأبى العلاء وما اليه » لم يعرج على ذكر الظاهرة التى سنتحدث عنها .

اللهم الا الدكتور عبد الوهاب عزّام فانه قد اتى فى بحثه عن لزوميات المعرى بالمامة فيها رائحة ضعيفة من ذلك عند ذكره سن المعرى حين نظم هذا السفر العجيب ، ونلتمس للنقاد والباحثين عذرا لأن دراساتهم كانت خارجة عن موضوعنا تنصب على نواح أخرى .

نقول هذا فى حق من لم يفرد تأليفا خاصا بالمعرى وانما اورد عنه نبذة عجلى استطرادا للباب كالرافعى مثلا فى « تاريخ آداب العرب » حيث لم يجعل فصله فى الالتزام مستقلا بلزوميات ابى العلاء او دراسة ما تتضمنها ، بل ادرجها ادراجا فى معرض الذكر ، فعذر امثاله واضح . ولكنا قد لا نعذر من عكف على الديوان دراسة وتعليقا ثم شرحا كابراهيم الاعرابى واشباهه من المحققين لتقصيرهم فى هذه الناحية .

فغاية صنيع هؤلاء انهم يذكرون متى نظمت اللزوميات ، وكيف نظمت ، وكيف رتبت ، وما هى ملابسات ذلك العصر ، وكيف كانت حياة المعرى ، وما

وجوه فلسفته ، وما هى آراؤه وافكاره فيها . اما اهل التراجم والمؤرخون فيقتصرون على تاريخه ، وذكر مؤلفاته وأقواله ، وبيان ذكائه ، واقوال العلماء فى شأنه من حيث الديانة والمعتقد .

وبعضهم لا يزيد على ما ذكره ابو العلاء نفسه ، بأنه نظم على نوع الالتزام قائلا فى المقدمة : جمعت ذلك كله فى كتاب لقبته « لزوم ما لا يلزم » ومعنى هذا اللقب ان القافية تلتزم لها لوازم لا يفتقر اليها حشو البيت ، ولها اسماء تعرف ، وسأذكر منها شيئا مخافة ان يقع هذا الكتاب الى قليل المعرفة بتلك الاسماء .

ولعل ابا العلاء اول من نبهّ على هذه الصناعة من الشعر ، حيث لم يتعرض لها قدامة ولا العسكرى ولا ابن المعتز ، مع ان الالتزام وجد منذ القدم ، ومن شواهده ما ذكره ابن رشيق القيروانى فى « العمدة » (ج ١ ص ٥٦) من ارجوزة العجاج الراجز ذات المائتى بيت ، وهى موقوفة مقيدة وتكون باطلاق قوافيها منصوبة كلها .

لذلك لم يدّع ابو العلاء هذه الصناعة لنفسه ،لأنها نهج مطروق سبقه اليه اناس ، وبرع فيه آخرون كابن الرومى . فلما انتشرت الصناعات فى القرن السادس اتى القوم فيها بالعجائب كابن الاشتركوانى وعبد العزيز بن قاضى حماة . ومن اراد الاطلاع فليراجع « فوات الوفيات » للصفدى و « بغية الوعاة » للسيوطى (ص ٣٠٣) .

وقد تكلف ابو العلاء فى تأليفه ـ كما قال ثلاث كلف ، الاولى : ان ينتظم حروف المعجم ، والثانية ان يجىء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة : انه لزم مع كل روى شىء لا يلزم من باء او تاء او غير ذلك من الحروف .

فلهذا جاء ديوانه مائة وثلاثة عشر فصلا لكل حرف اربعة فصول ، وهى على حسب حالات الروى من ضم وفتح وكسر وسكون ، واما الالف وحدها

فلها فصل واحد لأنها لا تكون الا ساكنة بغير ضغطة ، قال : « وربما جئت فى الفصل بالقطعة الواحدة او القطعتين ليكون قضاء حق للتاليف » .

كانت هذه مقدمة رأينا من المستحسن ان تكون مدخلا للموضوع الذى نود التعرض له ، وتبصرة بين يدى « اللزوميات » وماهيتها .

فأما الظاهرة التى لاحظناها فى شعر ابى العلاء فهى ظاهرة التبرم بحياة الشيخوخة ، وما جزمنا بهذا الا بعد تثبتنا منه وتتبعنا ذلك فى اكثر شعره ، ولو اوردنا جملة الشواهد حول ذلك لطال بنا المقال ، فلئن اردت الوقوف والاطلاع فعليك بمراجعة اللزوميات فى مظانها ، عندئذ تجد ذلك واضحا بينا ، او غامضا مستكنا ، يلوح لمن دقق النظر وأرسل عنان التأمل .

ونسوق هاهنا عدة امثلة ندلل بها على هذه الظاهرة العجيبة فى تفكير هذا الفيلسوف . يقول المعرى :

اذا ما خبت نار الشبيبة ساءنى	ولو نصّ لى بين النجوم خباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبى	ولا بعد مرّ الاربعين صباء

ويقول :

وأرواحنا كالراح ان طال حبسها	فلا بد يوما ان تكون سباء

ثم يصرح :

متى يتقضى الوقت والله قادر	فنسكن فى هذا التراب ونهدأ
تجاور هذا الجسم والروح برهة	فما برحت تأدى بذاك وتصدأ

والمعرى فى هذا يعبر عن شديد تأذيه بالحياة التى افضت به الى الهرم والكبر فهو يترقب الوقت الذى يتيح له الهدوء فى الثرى لذلك تراه يأسى على الشيب

حين يقول :

أسيت على الذوائب ان علاها   نهاري والقميص له ارتقاء

والنفس عند المعرى سجن يشير الى ذلك بقوله :

طال الثواء وقد أنى لمفاصلى   ان تستبد بضمّها صحراؤها

ويقول :

موت يسير معه رحمة   خير من اليسر وطول البقاء
تقدم الناس فيا شوقنا   الى اتباع الاهل والاصدقاء

وهو القائل :

فهنىء ولاة الميت يوم رحيله   اصابوا تراثا واستراح الذى مضى

وهو ايضا :

حياة عناء وموت عنا   فليت بعيد حِمامٍ دَنَا

ويرى المعرى ان الحياة بعد الاربعين موت والوجدان فقد فهو يبرم بالحياة فى عنفوانها ويدل على ذلك قوله :

حياتى بعد الاربعين منية   ووجدان حِلف الاربعين فقود
فما لى وقد ادركت خمسة اعقد   أبينى وبين الحادثات عقود !

ويقول ايضا :

شربت سنى الاربعين تجرعا   فيا مقراً ما شربه فى ناجع

والشيخوخة فى نظر ابى العلاء هى بلوغ العنفوان وهو سن الاربعين التى يعبر

عنها بالضعف والهرم فيبرم بالحياة ويهتف بالموت ، اسمعه اذ يقول :

أعلل مهجتـــى ويصيـــح دهرى الا تغـــدو فقـــد ذهـــب الرفاق

ثم اسمعه وهو يقول :

تخلفــت بعــد الظاعنــين كأنهم رأوك أخــا وَهْــنٍ فما حملوكا

ويمل مقامه فى الدنيا فيهتف :

ربّ متــى أرحــل عن هذه الدنيا فانــى أطلــت المقام

ويقول ايضا :

ومــا زال البقــاء يرث حبلى الى ان حان للمــرس انقطاع

وتارة يندد :

أخمســين قد افنيتهــا ليس نافعى بتأخــير يوم ان اعض على خمس

ويكرر هذا المعنى قائلا :

خمســون قد عشتهــا فلا تعش والنعش لفــظ من قولك انتعش

ومرة قال وهو يعتبر المنية بعثا :

ثيابــى اكفانــى ورمسى منزلى وعيشى حمامــى والمنيــة لى بعث

وهو القائل :

اذا كنت قد جاوزت خمسين حجة ولـم ألــق خسرا فالمنيــة لى ستر

ومــا اتوقــى والخطــوب كثيرة من الدهــر الا ان يحــل بى الهتر

والتَبَرّم بالحياة فى هذه الابيات يبدو تصريحا تارة وتلويحا اخرى ، فالمعرى له شأن مع الحياة ينظر اليها بغير ما ينظر به سواه لو كانت الحياة بلغت به ارذل

العمر وذهب رفاقة وبقى هو وحده لكان الشذوذ بالبرم منتفيا عنه ، ولكان شأنه فى ذلك شأن غيره ممن امتد به حبل العمر حتى شكا الحياة وفضل عليها المنايا . ولكن الهرم وطول الثواء عند المعرى هما بعد الاربعين والضعف فى رأيه هو بلوغ الاوج ، وما من واصل الى منتهى الشيء الا اوشك على السقوط والقهقرى ، وبلوغ الذروة يشعر بالانتهاء لان الكمال فى الدنيا الى زوال دائما . وهكذا رأى الصديق ابو بكر ببعد نظره ان الوحى قد انتهى ، وذلك عندما نزلت الآية الكريمة (اليوم اكملت لكم دينكم) ، فأقبل يبكى بينما كان غيره مستبشرا بها فرحا . فلهذا ترى المعرى يذكر بعد بلوغ العنفوان من الشباب دنو الاجل وقرب الرحيل والكبر متبرما متململا ، ويعد نفسه مبكرا من سقط المتاع ، بينما يعتبر غيره السن التى يشقى بها المعرى سن النضج والرأى والفكر والحصافة والحنكة والتجربة السديدة والمتعة الذهنية وخصوبة الخيال واحتمال الحكم ، لذلك جاء فى سن النبوة (فلما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلما) واذا شئت فانظر قول المعرى :

خير الحياة شرورها وسرورها من عاش مدة (اول) المتقارب
وافى بذلك اربعين وما له عذر اذا امسى قليل تجارب

وفى قوله : (اول المتقارب) لغز وهو يقصد به حرف الميم وعدده بالجمل اربعون ، هذا واما جار الله الزمخشرى فينعت نفسه بأنه ألف الكشاف حين بلغ « دكاكة الظهر » وهى السبعون يعنى انه وان كان قليل الهمة بمقتضى ضعف القوى الجسمانية غير انه ناضج الفكر بمقتضى السن ، وذلك كما يقول الميدانى :

وهت عزماتك عند المشيب وما كان من حقها ان تهى
فأنكرت نفسك لما كبرت فلا هى انت ولا انت هى

وفى هذين البيتين جناس لطيف .

ويقول المعرى وهو يشكو الحياة :

ورميت اعوامى ورائى مثلما رمت المطى مهامه السفار
وركبت منها اربعين مطية لم تخل من عنت وسوء نفار

ويقول ايضا على مذهبه :

تود البقاء النفس من خيفة الردى وطول بقاء المرء سم مجرب

وله ايضا :

عش يا ابن آدم عدة الوزن الذى يدعى (الطويل) ولا تجاوز ذلكا
فاذا بلغت وأربعين ثمانيا فحياة مثلك ان يوسدها لكا

وفى معنى ابياته هذه :

كأنك بعد خمسين استقلت لمولدك البناء دنا ليهوى

* * *

عقلت بحبل العمر خمسين حجة فقد رثّ حتى كاد ينصرم الحبل

* * *

لا خير من بعد خمسين انقضت كملا فى ان تمارس امراضا وأرعاشا

اما بعد ، فلعلنا بهذه الشواهد المقتضبة دللنا على الظاهرة التى اشرنا اليها فى شعر المعرى ، وهى تبرمه بالحياة ، واذ قد اتينا بهذه العجالة فانا نرى فيها الكفاية ، وان لم نوفّ الموضوع حقه لان فى البحث بعد متسعا .

ذات الأكمام !؟

قال أبو تراب :

إن لأدب النخيل عندى انفساحاً يبدأ من أرض طيبة الطيّبة الى البصرة ، وتخوم العراق ، فحدّث عن المتعة وانت ترى فى الأرض ذات البهجة نخلاً باسقات لها طلع كأنه العسجد ، ولسنا نتحدث عن الفسيلة والوَدِيَّة ، وانما نتطلع الى الجذوع الجُبارة ، والرَّقلة ، والعيدانة، كرعت من الماء واهتجنت فكان منها البَكور ، والسنهاء ، والخضيرة والصنّور ، والعَوانة .

فاذا هى أطلعت ، وأبلجت ، وأبسرت ، وأزهت ، ثم أمعت ، وأرطبت فتلك هى التى دَنَا جنَاها ، فهزّوها اليكم تساقط رطباً من قبل أن يُتمر إتمارا ، وإنى لأعرف انه كان بالمدينة منها أكثر من مئة نوع ، وهو غذاء كاف ، فهذه عائشة رضى الله عنها تقول : ولقد كان يمر شهر وشهران وثلاثة وما توقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، وما لنا طعام الاّ الأسودان ، التمر والماء .

ودعك من كلام من يزعم انه يلبك المعدة ، ولا يساعد على انهضام الطعام ، وخذ بالتحنيكة ، فهذا رسول الله عليه السلام يتلمظ التمرة والتمرتين ، ويحنّك بها الصبّى يؤتى به اليه ، ويلوك الصبّى الرضيع بلسانه فيقول : انظروا الى حب الأنصار التمر .

ولقد ذكر القرآن المجيد النخل والنخلة عشرين مرة « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » « ونخل طلعها هضيم » « والنخل باسقات لها طلع نضيد » « والنخل ذات الأكمام » « ونخيل صنوان وغير صنوان » الى غيرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب النخل مثلا

للمؤمن فى ثباته ، وهذا فى حديث الجُمَّار الذى كان يأكله وهو لُبُّ النخلة فقال : « ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المؤمن فحدّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال ابن عمر رضى الله عنهما : وقع فى نفسى أنها النخلة ، فأنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحديث النخل يطول ، ومن كانت ذاكرته كجراب ابى هريرة رضى الله عنه الذى كان يخبىء فيه التمر افاض منه ، وحسبنا أن نذكر طرفا مما يحضرنا وبالله التوفيق .

قال جعفر بن محمد : نعمتتِ العَمّة لكم النخلة ، عمرها كعمر الانسان ، وتلقيحها كتلقيحه ، وخير أموال الناس اشبهها بهم .

ووصف خالد بن صفوان النخل لهشلم فقال : هن الراسخات فى الوَحْل ، المُطعمات فى المحل ، الملقّحات تخُرج اسفاطاً عظاما ، وأوساطاً كأنها مُلئت رياطا ، ثم تفترّ عن قُضبان اللُّجين ، منطوقة باللؤلؤ المزين ، فيصير ذهباً أحمر ، منظوماً بالزبرجد الأخضر ، ثم يصير عسلا فى لحاء ، معلّقا فى هواء .

وقال ابن المعتز :

ظلّت عناقيدها يخرجن من ورق كما احتبى الزنج فى خُضر من الورق

وقال أُحيحة بن الجُلاح ـ وكان قومه لاموه فى ابتياعه النخيل :

يلومونني فى اشتراء النخيل قومى وكلهمو يعذل
تفشّى الحبوب بأذنابها ويحلب من ضرعها من عَلُ
هى المال والظل حق الظليل والمنظر الأحسن الأجمل

وقال ابن دريد : سألت أعرابيا فقلت : ما أموالكم ؟ قال : النخل ، فقلت : أين أنتم من غيره ؟ فقال : النخل سعفها صلاء ، وجذعها غَماء ، وليفها رشاء ، وفروها اناء ، ورطبها غذاء .

ووصفها بعضهم فقال : شريعة العلوق ، سائحة العروق ، صابرة على الجدوب ، لا يخشى عليها عدو الذئب .

وفى حديث مقتل ابن الأشرف اليهودى : ان عندى لتمراً يغيب فيها الضرس ، ويروى مرفوعاً وهو حديث موضوع : أكرموا النخلة فانها عمتكم ، ونعمت العمة لكم النخلة ، تغرس فى أرض خوّارة ، وتسقى من عين خرّارة ، والصحيح الثابت من ذلك ما ورد فى العَجْوةِ عَجْوةِ العالية من المدينة ، عن سعد مرفوعاً فى السنن والمسانيد : من تصبّح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره شىء وكان الناس ينتقون جيادها ، يقال انه أهدى رجل الى جحظة نخلة زعم انها قرشية ، فغرسها ولم يزل يتعهدها حتى حملت فاذا هى دَقْلة فجاء الرجل فسأله عنها فقال : ما فعلت قرشيتك ؟ فقال : هى قرشية من ولد زياد .

وقال بعض البصريين وهم أصحاب نخل : النخلة تقتل نفسها سنةً ، وصاحبها سنةً ، لأنها تحمل سنة كثيراً ، وسنة قليلا .

وقيل : ان النخلة تقول للنخلة : أبعدى ظلك ، أحمل حملى وحملك ذلك أن الحرب الخفية أن تقرب النخلة من النخلة .

وكانوا يذمّون رديئها ، قال أعرابى : انها صعبة المرتقى ، بعيدة المهوى ، مهولة المجتنى ، دقيقة السلاء ، شديدة المؤنة ، قليلة المعونة ، خشنة المسّ ، ضئيلة الظل .

وذكروا انه اختلف فى البُرّ والتمر اثنان عند محمد بن سليمان فقال : طالما اختلفت فى ذلك الأمم ، ثم قال لابن داحة : اقض بينهما فقال لصاحب البُرّ : خبّرنى ايهما اوجد فى الجدب ؟ قال : التمر ، قال : فأيهما أبقى على الغَرَق ؟ قال : النخل ، قال : فأيهما الحَرَقُ أسرع اليه ؟ قال : السُنبل ، قال : أيهما أمنع من النار ؟ قال : النخل ، قال : أى الأَرَضينَ أَعَزُّ ؟ قال : أرض النخل ، فقال محمد بن سليمان قد قضيت وفضّلتَ النخل .

وقيل : البر خبز ، والتمر أدم ، والبر اذا أُكل فلابد أن يداس ، ويُذرى ، ويُغربل ، ويُعجن ، ثم لا يأكله بغير أدم الآ جائع ، والتمر يؤكل من النخلة على أى نوع اردت ، ومنافعه لا تُحصى ... قال الشاعر :

لنـــا على دِجلــة نخــل منتخل نُسلفــه ماء فَيعطينـــا عسل
مسطَّـــر على قوام معتدل يُسقـى بمـــاء وهـــو شىء فى الأُكل

قال ابن وحشية :

يحتمل ان تكون جزيرة « حرقان » الواقعة على الخليج العربى بالبحرين هى الموطن الأصلى الذى نشأت فيه نخلة البلح ومنها انتقلت الى بابل .. نقله عبداللطيف واكد فى كتاب النخيل .

قال أبو تراب :

كتب اللافظ الهميع ابو فريد عن المغرب وهو الذى لا يدب الى يراعه ناخرة الصراء ، واطلعنى أبو اليسار خديننا القسطى على المقال حسب نتفه متخيرة وجمله متنضرة، ضرب فيه صاحبه الامثال غرناطية قرطبية فأغرب .. وأجلت فيه الباصرة قائلا : هل يتخير الطيب الا الطيب وسرحت بالنظر فى المقاله الزيدانية استاذ الاستاذين والصديق فى البؤسى والنعمى .

وقلت : برك على من أملى عليه بروكا لم يحسب حساب من يئط تحت كلكله أطيط النيب تحن الى فصالها . وجاء الرشح من المعدن ولم تعجبنى الخلطة والزيدان وهو مؤرخ أبصر بأبناء الاندلس ثم المغرب وبما أعنى وأنا من سلالة بنى عدى .

وأغلب ما قال أرجعه ويرجعه الى الاندلس فإلى القائد والثلاثة من المغرب واذا عديت عقبة وجامع القيروان وابن خلدون فما أخالك تجد شيئا فى المقال الا اقحام ابن عبد البر وابن حزم ويحيى الليثى والقرطبى وامثالهم وهؤلاء تفخر بهم الاندلس ولا عنصرية .

ونحن لا نريد من الشيخ الضارب فى تنائف اكناف التاريخ سيرة بنى مضاب المغربيين حتى يحدث لنا سيرة ملفقة بين بنى قرطبة ومكناس أو غرناطة وسلجماسة .

ولكننا نقول انه ليس فى كلام الاستاذ مراكش ولا فاس ولا القيروان ولا تلمسان ولا قابس ولا صقلية ولا صفاقس ولا مكناس ولا الرباط ولا الدار البيضاء

ولا درن ولا أغمات ولا برقة ولا زوينة ولا سوسة ولا بونة ولا الاجدابية ولا طرابلس ولا تافزرت ولا تاهرت ولا اشفلين ولا الموزار ولا الخميسات ولا تفليت ولا الحاجب ولا ايفران ولا غيرها من بقاع المغرب التى جاء تاريخها آيات وآيات .

وحواضر المغرب التى أغفلها الاستاذ كان فيها أجلة من مشاهير القوم يعرفهم من ترجم عنهم كالمحبى وابن خلكان والصفدى وابن العماد والذهبى لكنى لا أدرى ما الذى دهم الاستاذ وهو خير من يعرف الى هؤلاء السبيل الا ان الاعذار تعذر وما العابر فى المقالة كالبحاث فى السلالة .

أما مراكش فأعظم بها من مدينة وأجلل بها من حاضرة كانت سرير ملك بنى عبد المؤمن اختطها من الملثمين يوسف بن تاشفين .

وفاس وما فاس اكبر مدينة مشهورة واجل حاضرة معروفة تنبجس عيونا وتنبسط مروجا وهى ذات جوامع وأسوار وجداول وأنهار ورجال هم طلاع أنجد وقد قال فيها الخليلى :

يا عدوة القرويين التى كرمت　　لازال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سرى الله عنها صَوْبَ نعمته　　أرض تجنبت الآثام والزورا

وأعظم بعالمها عمران بن نجح الفارسى فقيه أهل القيروان فى وقته شهد له الشرق والغرب بالعلم والفضل .

والقيروان قد مصرت فى الاسلام ايام معاوية كانت أجل مدينة بناها العبد الصالح عقبة وهو مستجاب الدعوة نادى فيها : ايتها السباع والحشرات نحن أصحاب رسول الله فارحلوا عنا فانا نازلون فمن وجده بعد قتلناه .

قالوا فنظر الناس يومئذ الى أمر هائل .. كان السبع يحمل أشباله والذئب يحمل اجراءه والحية تحمل أولادها وهم خارجون أسرابا أسرابا . وأسلم البربر

وقد رأوا هذه الكرامة .

واختط عقبة جامع القيروان وسمع التكبير مع الهاتف الى حيث القبلة وكانت أحدى الخوارق . وكان بالقيروان علماء كابن حاتم الازدى صاحب الباقلانى وابن أبى كدية الأصولى تلميذ القضاعى الذى دفن اخيرا مع أبى الحسن الاشعرى .

وصفاقس ذات الزيتون التى بها المتكلم العظيم أبو حفص البكرى المعروف بالذهبى الذى رد على الغزالى .

وقابس المسورة أصح البلاد هواء ومنها عبد الله بن محمد القابسى ومحمد بن رجاء القابسى والحافظ عيسى بن أبى عيسى الفقيه المالكى تلميذ أبى ذر الهروى والأجدابى وغيرهم .

وتافرزت التى اختطها الملثمون وهى تلمسان التى نبغ فيها الشاعر المفلق ابن خليفة التلمسانى . ثم مكناس التى اختطها ابن تاشفين التى كان بها عالمون فى التصوف والدين وكتب تاريخها ابناء المغرب .

ويونة الزاهرة التى كان بها الفقيه الاسدى شارح الموطأ من اخصاء أصحاب القابسى .

ولا تنس أغمات الجامعة للخيرات الخصيبة أيام دولة عبد المؤمن كان بها الفاضل أبوهارون الاغماتى الذى يقول :

لعمر الهوى انى وان شطت النوى — لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت فى اقصى خراسان ثاويا — فجسمى فى شرق وقلبى فى غرب

وفيها قال ابن اللبانة :

انفض يديك من الدنيا وساكنها — فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا .
وقل لعالمها فالارض قد كتمت — سريرة العالم العلوى أغمات

واذا ذكرت برقة ذكر معها ابن زرعة الزهرى محدث المغازى ثم اخواه اللذان رويا السيرة عن ابن هشام

والاجدابية ذات أراك ونخل وبساتين لطاف ينسب اليها اللغوى المعروف صاحب المترادفات وليس هو صاحب كفاية المتحفظ كما ثبت ..

والتاريخ يحدثنا ان ابا القاسم المسمى بالمهدى هو الذى بنى فيها صومعة منمنمة بديعة العمل لها فى التاريخ خبر يحتفل .

ثم سوسة خرج منها محدثون وفقهاء وأدباء منهم يحيى أبى خالد السوسى والأديب ابو الحسن الزيات القائل :

لا تعتبن شيبا ألم بلمتى ان المشيب غبار معترك الصبا

واليها كان معاوية بن خديج بعث ابن الزبير فى جمع وتعجب منه النقفور البطريق وهو فى ثلاثين الف مقاتل كيف يصلى بالناس وهو امام هذا الجيش الداهم دونما مبالاة فلما فرغ هزمهم وذلك من فضل الله .

وانهزم عنها الخوارج فقال الوراق :

ان الخوارج صدها عن سوسة منا طعان السمر والاقدام
وجلاد اسياف تطاير دونها فى النقع دون المحصنات الهام

وقال ابن صالح السوسى :

مدينة سوسة للغرب ثغر تدين لها المدائن والقصور
ولولا سوسة لدهت دواه يشيب لهولها الطفل الصغير

وحدث عن صقلية من بحر المغرب وفيها يقول ابن حمديس :

ذكرت صقلية والهوى يهيج للنفس تذكارها
فان كنت اخرجت من جنة فانى أحدث أخبارها

وكان بها اسد بن الفرات الذى ذكره الاستاذ الزيدان . وفى طرابلس كان عمر بن عبد العزيز المالكى الذى قال فى كتب الغزالى :

هذب المذهب حبر احسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

وفيها يقول ابن خراسان :

أحبابنا غير زهد فى محبتكم عز القطا فى الفياف موضع اليبس
أكارم حسد الأرض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

والموزور الذى كان بها الشاعر أمية بن غالب والرحالة المعروف بالهراوى الذى سمع موطأ القعنبى فى جدة على المحدث البحترى .

وتاهرت ذات الانداء والضباب التى قلما ترى فيها الشمس قال فيها اعرابى :

ما خلق الرحمن من طرفة أشهى من الشمس بتاهرت

وكان بها بكر بن حماد من حفاظ المحدثين وهو القائل :

ما أخشن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت كأنها تنشر من تخت
فنحن فى بحر بلا لجة يجرى بنا اليها على سمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت كفرحة الذمى بالسبت

وكان صاحبها ميمون رأس الاباضية ثم لما آل امرها بعد التقلب كان ملوكها بنو أفلح كما فى تاريخ ابن خالدون . وينسب اليها البزاز التاهرتى

وقرأت فى الاستيعاب لابن عبد البر لابى بكر بن حماد بن حطان الخارجى :

قل لابن حطان والاقدار غالية هدمت ويلك للاسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم | وأول الناس اسلاما وايمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما | سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره | أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له | ما كان هارون من موسى بن عمرانا
وكان فى الحرب سيفا ضاربا ذكرا | ليثا اذا لقى الاقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر | فقلت سبحان رب الناس سبحانا
انى لأحسبه ما كان من بشر | يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مراد اذا عدت قبائلها | وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الاولى التى جلبت | على ثمود بارض الحجر خسرانا
قد كان يخبرهم ان سوف يخضبها | قبل المنية أزمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله | ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله فى شقى ظل مجترما | ونال ما ناله ظلما وعدوانا
يا ضربة من شقى ما أراد بها | الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
بل ضربة من غوى أوردته لظى | فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته | الا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

ولقول ابن حطان معارضات لسنا بصددها وانما ساقنا الى ذلك هذه التاهرتية التى أوردها النمرى . ثم نقول للزيدان : اذا شئت فاذكر ابن الموقت المراكشي صاحب كتاب السعادة الابدية الذى طبع بكانس . وعبد الواحد المراكشي احد علماء القرن السادس المبرزين وهو صاحب كتاب المعجب الذى طبع فى لندن . وصاحب جامع المبادى والغايات فى علم الميقات وهو أبو على المراكشي وكتابه مطبوع بباريس . ومحمد الصغير المراكشي الافرانينى صاحب صفوة من انتشر والمسك السهل ونزهة الحاوى وقد طبع فى أنجه . وشيخ المشايخ أبا عبد الله

الفاسي صاحب ممتع الاسماع . وأحمد بن يوسف صاحب شرح رائية الشريشي . وتقي الدين الفاسي صاحب الشفا والمقنع الذى ترجم عنه الصفدى فى المنهل الصافي . وعبد القادر الفاسي الذى ترجم عنه المحبّى فى خلاصة الأثر وهو صاحب حاشية البخارى ورسالة الامامة . ومحمد بن مسعود الفاسي صاحب الانوار القدسية ومحمد المهدى الفاسي صاحب تحفة الملوك ومطالع المسرات .

وابن هولولو صاحب الضياء اللامع ، وابن ابى دينار الرعينى القيروانى صاحب المؤنس . وصاحب باكورة السعد الفقيه المشهور الذى رفع رأس المغرب بـ « الرسالة » . ومقديس الصفاقسى صاحب نزهة الانظار والنووى صاحب القراءات وابن الصباغ فى القرن التاسع صاحب فضائل الأئمة وقد طبع فى ايران . وأبو عثمان التلمسانى صاحب الحقيقة وقد طبع فى الجزائر مع ترجمته الى الفرنسية ومقدمة الجنرال فوربيكه . ومحمد الفاطمى صاحب التخميس على الوتريات . والادريس صاحب النزهة . وقد اعتنى به دوزى ودى نموث وهو من سلالة العلويين وكان سواحا .

وانظر سرقسطة التى حاصرها الاغلبى ومن كان بها من علماء التصوف الاسلامى . واحمد بن مبارك صاحب الابريز فى التصوف . واذكر بعد ذلك اجادير بمصب وادى السوس وتافيلالت فى جنوب المغرب وقد ذكرها ابن خلدون فى التعريف وتيهرت (تاهرت) مدرسة ابن ناشفين ووادى ثورت موضع الخبء والذكريات تحَن اليهن نوازع الأشواق وفى القلب منها دخيل مداخل وخليط مخالط وقلت متمثلاً بقوله ابن خلدون :

وان نسيم الريح منهم يشوقنى اليهم وتصبينى البروق اللواعب

على أنى لم أستوف ما أردت ولعل الادكار تعينه بقية العمر فى الشطار .

مع ياسين طاها أيضًا

قال أبو تراب :

وقرأت ما كتبه ذو المنقبة الحصيف ياسين طاها فى احدى « يومياته » من لزبة اصابته وطارئة حلت به مما لقيه من العطش فى نفنف التيه وبيداء تشعب مسراها وضل سالكها على غير ما لا حب فلم يدر اين يسير وايان يهتدى اذ حيث ذبلت الشفاه وجف الريق وامتص الجسم كل رطوبة فيه فتذكرت بيت المعلقات :

ولقد حفظت وصاة عمى فى الضحى اذ تقلص الشفتــان عن وضــح الفم

وتذكرت قول بلال بن جرير الخطفى فيما رواه ابن قتيبة :

فما اعــطش الضــــيف لما غدا من البيدعــات وما أجوعه

وتذكرت ما روى من ان قوما من اليمن اقبلوا يريدون رسول الله ﷺ فضلوا الطريق ووقعوا على غير ماء فمكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء فجعل الرجل منهم يستذرى بفىء السمر والطلح فبيناهم كذلك اذ اقبل راكب على بعير فانشد القوم :

فلما رأت ان الشريعــة همها وان البيــاض من فرائصهــا دامى

تيممت العــين التــى عنـد ضارج يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فقال الراكب من يقول هذا الشعر ؟ قالوا امرؤ القيس فقال والله ما كذب هذا ضارج عندكم واشار لهم اليه فأتوه فاذا ماء غدق واذا عليه العرمض والظل

يفيء عليه فشربوا منه وارتووا وحملوا ولولا ذلك لهلكوا حتى بلغوا رسول الله ﷺ فأخبروه وقالوا احيانا بيتان من شعر امرىء القيس .

والقصة فى اللسان ومعجم ياقوت وعيون الأخبار لابن قتيبة والأغانى وهى من اشهر الأخبار عند قدامى الأدباء ولكن فى آخرها حديث لا يصح رواه احمد فى المسند بسند ضعيف وهو أن رسول الله ﷺ قال فى حق امرىء القيس انه حامل لواء الشعراء الى النار وهذا اخرجه البزار والخطيب ايضا واخرجه البخارى موقوفا على ابى هريرة فى كتاب الكنى .

وتذكرت أم أيمن التى تدلى لها الدلو من السماء فشربت منه ثم ارتفع .

وتذكرت اكثم بن صيفى اذ نهض الى رسول الله ﷺ فى مئة نفر من بنى عمرو وحنظلة طائعين مسلمين فلما كانوا ببعض الطريق اتاهم حبيش بن اكثم فبقر رواحلهم وشق قربهم واراق كل ماء معهم فأجهد أباه العطش فمات بعد ان أشهد على اسلامه رفاقه ويقال انه نزل فى حقه : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله » .

قال أبو تراب : وانما بقر حبيش بن اكثم بطون رواحل القوم لأنه اراد قطع الماء عنهم جملة ليموتوا وكان من عادة العرب انهم اذا تاهوا فى المسالك ولم يجدوا ماء ثم اشرفوا على الموت نحروا جزورهم وشربوا من سلاها لأن الابل تحتفظ بالماء فى بطونها فلذلك هى كثيرة الاحتمال للظمأ وربما لا تشرب ثمانيا او اكثر اما الحوت فلو انقطع عنه الماء سويعة مات كمدا .

اللهم الا الضب فانه كما يقول الدميرى فى حياة الحيوان لا يشرب الا فى كل اربعين يوما قطرة وذكر علماء الحيوان ان انواعا من الخفافيش تنام ستة اشهر لا تشرب خلالها ولا تأكل بل تكتفى بما فى حواصلها قد اختزنته ايام الصحو .
ولقد ربيت سلحفاة لا تشرب الماء طيلة أيام الصيف .
كانت فى الفلاة حتى ان البدو ربما اهتدوا بها اليها .

وتذكرت فى امرها حديث رسول الله ﷺ حين سئل عن ضالتها فقال دعها فان معها سقاءها ووعاءها حتى يلقاها ربها وقال فى الشاة هى لك أو لأخيك أو للذئب .

وتذكرت يوم ضاعت قلادة عائشة فأرسل رسول الله ﷺ فى طلبها وأناخ القوم الرواحل وناموا ونام كالئهم بلال وجاء ابوبكر الى ابنته فقال حبست رسول الله ومن معه وليس معهم ماء ولا هم على ماء وانزل الله آية التيمم وما كانت بأول بركة من آل أبى بكر ثم نهضوا فاذا بقلادة تحت راحلة رسول الله ﷺ .

وتذكرت من حديث البخارى يوم ارسل رسول الله ﷺ فى طلب الماء وكانوا على سفر فوجد الرسل امرأة على ناقة لها وعليها مزادتان او سطيحتان مملوءتان ماء فقال لها على اين عهدك بالماء قالت عهدى به أمس الساعة هذه فساقوها الى رسول الله ﷺ فأمر بأن يستقى الجيش من قربتيها فسقوا واستقوا وانها لأشد امتلاء ثم قال لها ما رَزَأْنَا من مائك شيئا وانما سقانا الله وجمع لها شيئا من السويق والثياب والأقط والتمر كان معهم فولت وهى مندهشة فأخبرت قومها بما رأت ثم أسلمت وأسلم أهلها .

وتذكرت الاعرابى الذى جاء رسول الله ﷺ وهو على المنبر يوم الجمعة فقال يا رسول الله هلكت المواشى وانقطعت السبل فادع الله ان يسقينا فقال اللهم اسقنا غيثا مغثيا نافعا غير ضار عاجلا غير آجل قال أنس فبعث الله غمامة دون سلع مثل الترس فرعدت وبرقت وانتشرت فأمطرت وخرجوا من المسجد وان اشدهم ما كان ليجوز السيل من شدة انهماره وظل المطر سبعا حتى جاءه اعرابى فقال يا رسول الله هلكت الماشية وانقطعت السبل وانهدمت البيوت فادع الله ان يحبسه عنا فقال اللهم حوالينا ولا علينا فانقشع كأنما هو ثوب يشقه بزاز وخرج الناس فى الغياية من الشمس وان المدينة لكالجونة يومئذ

وقرأت فى كلام ياسين ان بدويا ركل القدح الذى كان بيده وقال له

لا تشرب عبا ولكن اشرب مصا بعد ان اجهدك الظمأ فانه بك ضار وان الماء كثير بأرضنا فلا تجزع وقلت انها لحكمة وتذكرت ما رواه ابو داود فى المراسيل من ان رسول الله ﷺ كان يتسوك عرضا ويشرب مصا وتذكرت قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .

وتذكرت قوله تعالى لايوب « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » .. ثم أم اسماعيل حين نفد ما فى سقائها من ماء فصعدت الصفا والمروة تبحث عنه حتى رأت ابنها يضرب بعقبيه موقع زمزم فاذا ماء ينبع ورحم الله أم اسماعيل لو لم تحفر له لكان عينا على الأرض معينا . ثم موسى وقومه اذ تاهوا فى الأرض اربعين يوما فأمر بأن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل اناس مشربهم .

ثم قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » . ونقول الحمد لله : الله يأتينا به وهو رب العالمين قال تعالى : « اخرج منها ماءها ومرعاها » وقال : « وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » . وقال جل شأنه وعز اسمه : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » وقال : « والله انزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » .

وتذكرت نزول رسول الله ﷺ يوم بدر على ادنى ماء الى المدينة واشار عليه الحباب بن المنذر بغير ذلك وقال يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة فقال بل هو الرأى والحرب والمكيدة فقال يا رسول الله ان هذا ليس بمنزل فانهض بنا حتى نأتى ادنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملأ ونشرب ولا يشربون فاستحسن رسول الله هذا الرأى وفعله .

وتذكرت ان توبة صاحب ليلى الأخيلية كان اذا اراد الغارة حمل المزادة وكان من اهدى الناس بالطريق اغار ذات يوم على قوم وهم بنو عوف ومعه اخوه عبيد الله فاطرد ابلهم وقتل منهم رجالا فطلبوه فقتلوه وضربوا رجل اخيه فأعرجوه واستنقذوا ابلهم وتركوا عند اخيه السقاء مليئا بالماء كيلا يقتله العطش فتحامل حتى اتى بنى خفاجة فلاموه وقالوا فررت عن اخيك فقال يعتذر :

يلـــوم على القتـــال بنـــو عقيل وكيف قتـــال اعـــرج لا يقوم

وتذكرت قول طرفة :

(ستعلم ان متنا غدا أيَّنا الصدى) والصدى العطشان من صدى يصدى صدى فهو صد وقال القطامى :

فهـن ينبـذن من قول يصبـن به مواقع الماء من ذى الغلـة الصادى

والصدى ايضا الصوت .

وقال حاتم الطائى :

أمـــاوى ان يصبـــح صداى بقفرة من الأرض لا مـــاء لدى ولا خمر
ترى ان ما ابقيـــت لم أك ربه وان يدى مما بخلـــت به صفر

وتذكرت ماكانت تزعمه عرب الجاهلية من ان الصدى طائر يأتى قبر رجل لم يدرك به الثأر فيصيح اسقونى قال ذو الأصبع العدوانى :

يا عمرو الا تدع شتمى ومنقصتى اضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وتذكرت قول عبد الله بن رواحة الأنصارى ـ لما امره رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش مؤتة بعد زيد وجعفر يخاطب ناقته :

اذا بلغتنـــى وحملـــت رحلى مســـيرة أربـــع بعـــد الحساء

فشأنـــك فانعمـــى وخـــلاك ذم   ولا ارجـــع الى اهلى ورائى

قال المبرد والحساء جميع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة فاذا مطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة ان يغيض ومنع الرمل السمائم ان تنشفه فاذا بحث ذلك الرمل اصيب الماء .

وتذكرت ان العرب من اجل جدب تربتها وقلة الماء بأرضها اكثروا من ذكره واغذوا السير فى طلبه واولعوا بذكر السقيا ونحوها فى استعاراتهم وكناياتهم ومحاوراتهم حتى ان كثيرا من تعابيرهم يرمى الى الماء
وما يمت اليه بصلة وانك لتجد جزءا كثيرا من اللغة يدور حول الماء وما يتعلق بالماء وجاء ذكر الماء فى القرآن اكثر من ستين مرة فسقى الله ارض العرب واغدق عليهم من شآبيب الرحموت يعلون منها وينهلون ويغاثون ثم يصدرون ولا جعل كبد صديقنا ياسين بعدئذ حزى وسبحان الله الذى جعل من الماء كل شىء حى .

وتذكرت المثل القائل « عند الصباح يحمد القوم السرى » قال المفضل ان اول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث اليه ابو بكر رضى الله عنهما وهو باليمامة ان سر الى العراق فأراد سلوك المفازة فقال له رافع الطائى قد سلكتها فى الجاهلية هى خمس للابل الواردة ولا اظنك تقدر عليها الا ان تحمل من الماء فاشترى مئة شارف فعطَّشها ثم سقاها الماء حتى رويت ثم كتبها وكعم افواهها ثم سلك المفازة حتى اذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل وخشى ان يذهب ما فى بطون الابل نحر الابل واستخرج مافى بطونها من الماء فسقى الناس والخيل ومضى فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع انظروا هل ترون سدرا عظاما فان رأيتموها والا فهو الهلاك فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس

ثم هجموا على الماء فقال خالد :

لله در رافع انى اهتدى　　فوز من قراقر الى سوى
خمسا إذا سار به الجيش بكى　　ما سارها من قبله انس يرى
عند الصباح يحمد القوم السرى　　وتنجلى عنهم غيابات الكرى

ذكره الميدانى فى المجمع .

وقال ابو هلال العسكرى فى الجمهرة هو فى شعر للجميح يقول فيه :

تسألنى عن بعلها اى فتىً　　خب جبان واذا جاع بكى
لاخطب القوم ولا القوم سقى　　ولا ركاب القوم اذ ضاعت بغى
ولا يوازى فرخه اذا اصطلى　　ويأكل التمر ولا يلقى النوى
كأنه غرارة ملأى خثى　　لما رأى الرمل وفئران الغضى
بكى وقال هل ترون ما أرى　　أليس للسير الطويل مقتضى
قلت أغرى صاحبى ألاَبَلى　　عند الصباح يحمد القوم السرى
وتنقضى عنهم غيابات الكرى

أما قوله : رأيت الموت فأقول اننا سنراه يوم يأتى كبشا ثم يذبح فيقال خلود ولا موت .

نشير بذلك الى رواية وردت ولسنا بكل ما نورد نريد الاحتجاج وانما يكون الاحتجاج تارة والحكاية اخرى فاذا كان الاحتجاج وحده اقمنا البرهان وأبرزنا الحجة وبينا وجوه العلل وبالله نتأيد .

قال أبو تراب :

وقرأت ما كتبه محرر صفحة الأدب بجريدة البلاد من انى اخفيت عند ذكرى دواوينى اسم الديوان الثالث الذى صنفته ، وقال : انه ديوان « العباسيات »

وقلنا نعم اننا وضعنا ديوان « العباسيات » ولكنا سجرنا به التنور فلا نعده من عداد دواويننا اليوم كما كتب يحيى بن معين عن الكذابين ثم القى بما كتب الى الأتون .

هذا وأما الديوان الثالث الذى لم اذكره فهو ديوان « الغزاويات » حقا حقا صدقا صدقا ، ورعى الله احمد فقد امتعنا بأدبه وأذاقنا من عسيلته ولا انسانا عباسا فقد لهونا به زمانا وكلاهما غزاويان .

مع ياسين طاها أيضاً

قال أبو تراب :

وأردنا ان نقرأ للكاتب المعروف ياسين طاها فلما قرأنا قرأنا كلاما عجبا .

انه رجل اتاه شيطان ما سويعة فاستغرب وناجاه واغرب اذ فار وثار ولم يلق الاستقرار ، وليست شعرى كيف غاب عنه انه يعيش مع الشيطان وقد قال رسول الله ان الشيطان يجرى فى ابن آدم مجرى الدم -

وتذكرت قوله تعالى : « وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين واعوذ بك رب ان يحضرون » . وقوله تعالى : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » .

الأذان وله ضراط كما يرويه ابو هريرة .

ولا ادرى ان كان ياسين يدرى ما الفرق بين شيطانه هذا الذى حكى عنه وبين الشيطان الذى اخرج حظه من صدر رسول الله ﷺ فى قصة شق الصدر عند البخارى فقيل هذا حظ الشيطان منك .

وهل درى ما الفرق بين شيطانه والشيطان الذى يبيت فى خيشوم ابن آدم ومن اجله شرع الاستنثار ثلاثا بعيد الهبوب من النوم .

وهل درى ما الفرق بين شيطانه وشيطان نفخ فى منخرى امرأة بحضرة رسول الله ﷺ كما رواه الامام احمد فى المسند .

ثم ما الفرق بين شيطانه وشيطان تطلع بين قرنيه الشمس كما فى رواية مالك فى الموطأ أقول هل درى ياسين هذا ثم هل درى ؟

هل درى ظبى الحمى ان قد سبى   قلب صب حله عن مكنس

انه يا ابن عم ليس الشيطان الذى تعنيه بل هو شيطان الهوى وشيطان الغضب وشيطان العصيان وشيطان الوسوسة وشيطـان الشره وشيطـان السـوء وشيطان الخبث وشيطان الجهل والغواية والعماية وهـو شيطـان النفس الأمـارة بالسوء ، وما ابعده عن شيطان جاء ابا هريرة وهو حارس كما رواه الترمذى علمه ما علمه ووعد بأنه لا يعود فقال رسول الله ﷺ صدق وانه لكذوب وما ابعده عن شيطان اخرج حظه من صدره فانه شيطان الغضب ويدل عليه انه قمع ذلك الشيطان وما أبعده عن شيطان أراد حبس الرسول حين عرض له فى الصلاة وشيطان اتى ايوب ثم اسماعيل ثم عبدالقادر الجيلانى .

وأما ابليس فهو شيطان غير هذا الشيطان والشيطان جاء بمعان فليت القوم يتأملون .

قال ابو تراب وبالله نتأيد : انه التمس منى صديقنا الحميم الأستاذ الكريم الأديب الفاضل عبد الفتاح أبو مدين ان اكتب فى مجلته المسماة بالرائد ما أعرفه واطلعتُ عليه من نثر الأدباء ونظم الشعراء مما قيل قديما فى موسم الصيف وشدة قيظه ثم دون فى رسائل الأدب ومحاضرات الظرفاء ومفاكهات العلماء ، وان أخص بالشرح والتفصيل المثل القائل : « الصيف ضيعت اللبن » فأجبته الى طلبه بهذه العجالة وقيدتها على تشتت الذهن وتبلبل البال ، فما صار اليك فهو جهد المقل على قدر الحال . وقد عنونته بـ : « هيف الضيف فى حيف الصيف » والهيف هو شدة العطش ، والحيف اقلاع المطر ، وهذا أوان الشروع .

الصيف ضيعت اللبن

فأما المثل المذكور فيروى على وجهين أحدهما : « الصيف ضيعت اللبن » ، والصيف هنا منصوب على الظرفية الزمانية . والثانى : « فى الصيف ضيعت اللبن » بعدم نزع الخافض والوجه الأول ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ج٢ ص ٢٩ والوجهان ذكرهما الميدانى فى المجمع ج ٢ ص ١١ قال والتاء فى (ضيعت) مكسورة فى كل حال اذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع .

قال ابو تراب : وانما كان ذلك لأن الأمثال لا تغير عن صيغها الأصلية التى قيلت بها فى مناسباتها لذلك قال العسكرى :قولهم : « الصيف ضيعت اللبن »

بكسر التاء وان خاطب به مذكرا لأن الأمثال تحكى ومعنى ذلك ان المثل يتمثل به أول مرة ولا يعبر عن صيغته فى سائر الأحوال .

ويضرب هذا مثلا للرجل يضيع الأمر ثم يريد استدراكه وأصله ان عمرو بن عمرو بن عدس تزوج بنت عمه دختنوس بنت لقيط بن زرارة بعد ما أسن وكان أكثر قومه مالا ففركته فتزوجها فتى ذو شباب وجمال من آل زرارة ، ثم غزتهم بنو بكر بن وائل فنبهت زوجها فقالت الغارة الغارة فجعل يقول الغارة الغارة ويضرط حتى مات .

وأغاروا فأخذوها سبية . فأدركهم الحى وعمرو بن عمرو فى السرعان فقتل منهم ثلاثة واستنقذها فقال :

أى حليليك وجدت خيرا

أالعظيم ....

أم الشديد للعداة ضيرا

أم الذى ساق العدو سيرا

فتزوجت منهم شابا مملقا ومرت بها ابل عمرو كأنها الليل فقالت لخادمتها قولى له ليسقنا من اللبن فأتته فقال لها قولى لها : « الصيف ضيعت اللبن » .

فضربت يدها على كتف زوجها فقالت : « هذا ومذقه خير » ، فذهبت كلمتاهما مثلين .

وبمثل ذلك ذكر الميدانى وقال كان عمرو بن عمرو بن عدس شيخا كبيرا فطلقها ثم تزوجها فتى جميل الوجه وأجدبت فبعثت الى عمرو تطلب حلوبة الى آخر القصة .

وقولها : « هذا ومذقه خير » يعنى ان هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو ، والمثل الأول يضرب لمن يطلب شيئا قد فوته على نفسه . والثانى يضرب لمن قنع باليسير اذا لم يجد الخطير .

وانما خص الصيف لأن سؤالها الطلاق كان فى الصيف أو ان الرجل اذا لم يطرق ماشيته فى الصيف كان مضيعا لألبانها عند الحاجة .

والمثل الثانى لم يذكره الميدانى فى مجمع الأمثال فى مظنته فليتنبه .

ما قيل فى فصل الصيف

وأما ما قيل فى فصل الصيف فوجدت فى كتاب اللطائف والظرائف للثعالبى ص ٨٨ وهو جمع ابى نصر المقدسى فى الاضداد من مدح الصيف انه خفيف المؤنة جميل المعونة كثير النفع قليل الضروهو أم الحب والرياحين ونبات البساتين وراحة الفقراء والمساكين وستر الضعفاء والمتخملين والعون على عبادة رب العالمين وطبعه طبع الشباب الذى هو باكورة الحياة ، كما ان الشتاء طبعه الهرم الذى هو باكورة العدم .

ومن باب الذم ما جاء فى الحديث المرفوع : ان شدة الحر من فيح جهنم .

وفى كتاب المبهج : حر الصيف كحد السيف وقال ابو نصر :

رب يوم هواؤه يتلظى فيحاكى فؤاد صب متيم
قلت اذ خد حره حر وجهى « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم »

وكتب بعض الكتاب الى بعضهم : أشكو الى مولاى صيفا لا يطيب معه عيش ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش .

وكتب آخر يقول : كيف لى بالحركة وقد قوى سلطان الحر وفرش بساط الجمر لاسيما وفيه الهاجرة التى هى كقلب المهجور والتنور المسجور .

وكتب آخر : لا مرحبا بالصيف من ضيف فهو عون على الحيات والعقارب وام الذباب والخنافس وظئر البق الذى هو آفة الخلق ثم قال فيه :

من كل سائلــة الخرطــوم طاغية   لا يحجب السجف مسراها ولا الكلل
طافوا علينــا وحــر الصــيف يطبخنا   حتــى إذا نضجـت أجسامنــا أكلوا

مدح الصيف وذمه

قال ابو تراب : وشرط الملتمس منى هذه المقالة وهو الأستاذ عبد الفتـاح ابو مدين ان اذكر ما يتعلق بالصيف فحسب لذا فانى سوف اقتصر على ذلك ولو ان المذكور جعل لى رحلة الشتاء والصيف لذكرت ما أورد العلماء والأدباء من المفاخرة بينهما ثم المحاكمة الفاصلة بين الفصلين ومثل هذا يجرى كثيرا على لسان الأدباء والظرفاء وهم فى ذلك يتفننون ويأتون بالعجائب وذلك كمدح الشيء وذمه وسبب امكان ذلك ان الأشياء ذات وجهين فاذا مدحوا ذكروا احسنهما واذا ذموا ذكروا اقبحهما وفى كل شيء ما يمـدح ويـذم قال العلماء ووجـه ذلك ان المصلحة فى ابتداء امر الدنيا الى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر والضـار بالنافع والمكروه بالمحبوب ولو كان الشر صرفا لهلك الخلق ولو كان الخير محضا لسقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة ومتى بطل التحير وذهب التمييز لم يكن صبر على مكروه ولا شكر على محبوب ولا تعامل فى بيان ولا تنافس فى درجة ومن ذلك ما قال الجاحظ ان العربى يعاف الشيء ويهجو به غيره فان ابتلى به فخر به ولكنه لا يفخر لنفسه بما هجى به غيره .

وقال ابن رشيق القيروانى اكثر ما تجـرى هذه المهادح والمذام على جهـة المنافقة لا على جهة المناصفة ومن باب المسامحة لا من باب المشاحة والا فالشيء لا يوافق ضده فيكون الحسن قبيحا فى حالة واحدة والمدح ذما لمعنى واحد لكن لكل شيء كما ذكر الجاحظ مساو ومحاسن .

قال ابو تراب : ومن ذلك ما جرى فى مفاخـرة السـيف والقلـم والشرق

والغرب والشمس والقمر والنظم والنثر والأعمى والبصير والسفر والاقامة والمسك والرماد الى غير ذلك .

وكل ذلك جرى على أقلام الكتاب وأصحاب المقامات وهذا هو فن المغايرة والتغاير والتلطف عند علماء البيان والبديع ومن ذلك قصة عمرو بن الاهتم والزبرقان بن بدر الفزارى بحضرة رسول الله ﷺ : ولولا الخروج عن الموضوع لأوردناها وهى مذكورة فى كتب الحديث وفى مثل هذه الموضوعات رسائل مؤلفة للبلغاء .

وعلى هذا المنوال الف الجاحظ كتابه سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف والف الشيخ ابو بكر كتاب مسامرة الضيف بمفاخرة الشتاء والصيف ولولا ان الأخ الأستاذ عبد الفتاح ابو مدين رئيس تحرير الرائد قيدنى بأن لا أورد إلا ما يتعلق بالصيف لنقلت نبذا من هذه المفاخرة بين الشتاء والصيف لامتاع الاسماع وإفادة ذوى الأدب وأرباب القلم والفكر ولكنى سوف اكتفى فى آخر هذه العجالة بذكر محاكمة الشيخ عبد الحفيظ القارى بين فصلى الشتاء والصيف وأضرب صفحا عن مناظرة الربيع والخريف التى ألفها الجاحظ لعدم تعلقها بالمقام وأورد هاهنا ما قيل نظما ونثرا فى فصل الصيف من النوع الذى أورده الثعالبى وابو نصر وأتتبع فى ذلك ما وسعنى من المراجع والمدونات التى أودعت فيها هذه الطرائف والملح البديعة وبالله التأييد .

ما ذكر من المسامرة
فى الصيف

قال الشيخ ابو بكر فى كتابه الموصوف بالذكر : بينما انا ذات ليلة فى أرق وضجر شديد وقلق مما أقاسيه من حر السنبلة وأتجرعه من حرارتها إذ جاءنى طيف خيال فى صورة أسد مغتال وقال انى انا الحر والقيظ والصيف الفعال

والضيف الحر فى الفعال وانتم الى أمام فعال أحوج منكم الى امام قوال ولله در من قال :

يتمنى المرء فى الصيف الشتا فاذا جاء الشتا أنكره
ليس يرضى المرء حالا واحدا « قتل الانسان ما أكفره »

وقال الصيف : تضجرون من جيرتى وتصيحون من حرارتى وانتم تجدون اللذة العريقة اذا قابلتمونى بالماء والثياب الرقيقة ورقيتم لأجلى المواضع الرفيعة وتفسحتم فى الرياض البديعة .

وقال بعض الشعراء يفتخر فى زمن الصيف بجمع الراآت :

عندى فديتك راآت ثمانية ألقى به الحران وافى وان وردا
راح وروح وريحان وريق رشا ورفرف ورياض ناعم وردا

وقال بعضهم منونا بالنونات :

للصيف سبع من النونات رائعة يا حسنها من ذوات أوقيت دنسا
نور ونور ونوم فوق نمرقة ناعورة ونسيم طيب ونسا

وقيل فى الصيف ومدحه انه الخل الموافق والصديق الصادق والطبيب الحاذق اجتهد فى مصلحة الأصحاب ويرفع عنهم كلفة حمل الثياب ويخفف اثقالهم ويوفر أموالهم ويكفيهم المؤنة ويجزل لهم المعونة ويغنيهم عن شراء الفراء وملبسه كل ظريف وشفاف وخفيف مثل الشاش وما يحصل به الانتعاش كما قيل :

الشاش فى الصيف جنة ومن أذى الحر جنة
لكننى تعترينى به لدى البرد جنة

وقيل فيه وذمه : ان الصيف لم يترك كبيرا ولا صغيرا الا وجلب اليه السرسام وعضال الداء وكلف الأغنياء السفر الى المواضع الباردة فهربوا منه

وصرفوا المصاريف الزائدة وكلف كل شخص حمل مروحة يطرده بها ويخفف عن نفسه ما نابها من الكرب وحل بها سيما اذا انضم اليه حر الهوى والهوان وحر البعاد والهجران ومع ذلك يخرج الهواء من مروحته حارا كوقته .

قصة طريفة تتعلق بالصيف

أما سمعت بقصة الفقير الذى احب مملوك السلطان الأشرف فحجبه عنه ثم رق له فأمره بالوصول اليه فجعل يروح عليه فرفع الفقير رأسه وتنفس وأنشد وكان آخر النفس :

روحنى عائدى فقلت له لا لا تزدنى على الذى أجد
أما ترى النار كلما خمدت عند هبوب الرياح تتقد

أورده فى المسامرة ص ١١ .

مراوح الصيف

أنشدنى ذلك الأستاذ الفاضل السيد حسن حسنين متع الله به قبل نحو ربع قرن .

جمع الهواء مع الهوى فى مهجتى فتضاربت فى أضلعى ناران
فقصرت بالممدود عن نيل المنى ومددت بالمقصور فى أكفانى

وقال الشيخ عبد الحافظ القارى فى مروحة الصيف :

أيظن ملسوع الفؤاد بانه ان هز مروحة يخف لهيبه
أو ما درى ان الهواء يزيده لهبا اذا ما غاب عنه حبيبه

وقال الفاضل الشيخ عثمان الراضى فى المروحة ايضا :

ولقد تروح يبتغى بردا لكبد منه حرى

فأثـار بالمدود مقـ ـصـور الهـوى فازداد حرا

وقال ايضا فيها :

يا مـن تروح يبغى من الهـواء براده
ان الهـواء يقينا هو الهـوى وزياده

وقال آخر :

ومروحـة جعلـت راحة لحـر الهجـير وتلهيبه
كأن سليمان اهـدى لها نسيما من الريـح تسرى به

وقال آخر ايضا :

ومروحـة جاء النسيـم بهـا يجرى يبـرد أكبـادا أذيبـت من الحر
حوتهـا يد كالبحـر والبحـر دونها وأطيـب ما جـاء النسيـم من البحر

ومما قيل فى القيظ الذى يتميز من الغيظ :

لم لا أهيـم الى المصـيف وطيبه وأظـل فيـه تحـت ظل ضافى
والزهـر يلحظنـى بثغـر باسم والماء يلقانـى بقلـب صافى

هذا وأما المراوح وما ذكر من أمرها من الفضل الغادى والرائح فهى من محاسن الصيف وفضائل زمنه وهى حسنة لعبت بها الشمول وغدا لسان حالها يقول :

انـا فى الـكف لطيفة مسكنـى قصر الخليفة
انـا لا أصلـح إلا لظـريف أو ظريفة
أو وصـيف حسـن الـ ـقـد شبيـه بالوصيفة

وكذا تقول وقد حفها القبول :

انني اجلب الرياح وبي يذهب الخجل
وحجاب اذا الحبيب ثني الرأس للقبل

وتقول وقد جرت الذيول :

انا المحبوبة العظمى اذا ما الصيف قد أقبل
وأما فى الشتا الجافى فلا أهدى ولا أقبل

مروحة من نخل بمسجد الرسول

ومما يذكر فى هذا الباب ما حكاه ابو الفوارس قال كنا يوما عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فحضر رسول صاحب المدينة ومعه قود وهدايا فلما جلس أخرج مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر.

وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا أخذ من بنى أيوب مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول يا مولانا السلطان لا تعجب قبل تأملها وكان السلطان ملكا حكيما فتأملها فاذا عليها مكتوب :

انا من نخلة تجاور قبرا فاق من فيه سائر الناس طرا
شملتنى عناية القبر حتى صرت فى راحة ابن ايوب اقرا

واذا هى من خوص النخل الذى فى مسجد الرسول ﷺ فقبلها السلطان ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة قلت : كلمة « عناية القبر » هنا موضع مناقشة ونحن فى مجال رواية .

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد وفى القر تسلوها أكف الحبائب
اذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا اتت بالهوا الممدود من كل جانب

وقال آخر :

يا سائلي عن نسيم طي مروحة أهدت سرورا بترجيع وترويح
اما ترى الخوص اهدى من مراوحه ما أودعته قديما نسمة الريح

وألطف منه قول الآخر :

نهيت الحبيب عن المروحة لمعنىً وحسبك ان اشرحه
لقد خفت ان مر فيها النسيم ولامس خديه ان يجرحه

وقال الآخر وأجاد :

ومروحة اهدت الى النفس روحها لدى القيظ مبثوثا باهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها على ضعفه مستخرجا من صحيحها

وقال الآخر :

ومبثوثة فى كل شرق ومغرب لها أمهات بالعراق قواطن
يحرك انفاس الرياح حراكها كأن نسيم الريح فيهن كامن

ولله در القائل فى المستديرة :

ومروحة ان تأملتها ترى فلكا دائرا فى اليد
وتطوى وتنشر من حسنها فتشبه قنزعة الهدهد

وأما مروحة الخيش فقد قال فيها ابو نواس لعنان جارية الناطفى اجيزى : (العيش فى الصيف خيش) فقالت : (اذ لا قتال وجيش) وقد ذكرها الحريرى فى مقاماته حيث قال اسمعوا وقيتم الطيش ومليتم العيش وأنشد ملغزا فى مروحة الخيش :

وجارية فى سيرها مشمعلة ولكن على أثر المسير قفولها
لها سائق من جنسها يستحثها على انه فى الاحتثاث رسيلها

ترى فى أوان القيظ ينطف ماؤها ويبدو اذا ولى المصيف قحولها

قال فى المسامرة ص ١٦ :

وهذه المروحة شبيهة بشراع السفينة تعلق بالسقف ليتروح بها وتبل بالماء وترش بماء الورد ويشد فيها حبل يدار به مشيها فاذا أراد الرجل النوم جبذها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجىء فيهب منها على صاحبها نسيم طيب الرائحة فيذهب عنه الأذى ويستطيب النوم وهى فوقه ذاهبة جائية ولذلك سماها الحريرى جارية وفيها قال بعضهم :

وخيش كما انجرت ذيول غلائل مصندلة يختال فيها الكواعب
وقد اطلعت فيها الشمائل وانثنت مقيدة عن جانبيها الجوانب

طريفة فى باب اللغز

وذكر غير واحد من الأدباء من ملح الصاحب بن عباد قوله لأبى العباس الحارث فى يوم قيظ : (ما يقول الشيخ فى قلبه) ويعنى بقلب الشيخ الخيش وهو جناس مقلوب فى فن البديع واللغز .

أول من اخترع المروحة فى الصيف

وقال الشهاب ابن ابى حجلة المروحة محدثة فى زمن بنى العباس وكان سبب حدوثها ان هارون الرشيد دخل يوما على اخته علية بنت المهدى فى قيظ شديد فوجدها قد صبغت ثوبا من زعفران وصندل ونشرته على حبل ليجف فجلس هارون قريبا من ذلك فجعلت الريح تمر على الثوب فتحمل منه ريحا بليلة عطرة

فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه فأمر ان يصنع له فى مجلسه مثله والمروحة منه جاءت .

ذم الصيف

ومما جاء فى كتب الأدب من ذم الصيف وفخر الشتاء عليه قول بعضهم :

خضرة الصـيف من بيـاض الشتاء وابتسـام الثـرى بكاء السماء

وقيل فيه : اذا جاء النهار فتحت للصيف أبواب النار واشتد الكرب والقلق ونضحت الأبدان بالعرق فغير لون الثياب وعلاها فان كانت جديـدة حلهـا وأبلاها أو قديمة زاد فى تمزيقها وبلاها وتخرج منها رائحة يعظم بلاهـا كما قال الشيخ ابو بكر :

عرق تقاطـر فى ثياب كالبـول رائحـة ولونا
فيذيبهـا ويميـت نفسا يؤذى الـورى ويزيـد هونا

وتعظم حرارة الشمس وربما أدخلت الرمس وقال بعضهم انها تشحب اللون وتغير العرق وترخى البدن وتثير المرة ان احتجمت فيها امرضتك وان اطلت النوم فيها افلجتك وان قربت منها صرت زنجيا وان بعدت عنها صرت صقليا قال الشاعر :

يقـال تركت الـذى حسنه يكاد يُخْجِـلُ شمس الضحى
فقلـت وشـمس الضحـى تحتمى إذا بسطـت فى المصـيف الأذى

ولله در القائل :

فى خلقـة الشـمس واخلاقها شتـى عيـوب ستـة تذكر

من صبحها النور لامسائها مغاير الأشياء لايفتر
رمداء عمشاء اذا اصبحت عمياء عنه الليل لا تبصر
ويغتدى البدر لها كاسفا وجرمه من جرمها اصغر
حرورها فى القيظ لا تتقى ونورها فى القر مستحقر
ليست بحسناء وما حسن من يقصر عنه اللفظ اذ يخبر

ومما قيل فى ذمه ان الماء يصير فيه حارا كأنه من حميم وشاربه من سكان الجحيم ينسيه ما يجده من التهابه ان يحمد الله على شرابه ويخرج فيه السموم يتلهب ويزأر ويطرق الأبواب ويشوى الوجوه وينسف التراب فتشتد به الحرارة والغموم وتضاعف به على العاشق الهموم وفى ذلك قال ابو بكر :

بعادك والهوى وهيب عذل سموم فى سموم فى سموم
صدودك والوشاة ومر عيشى سموم فى سموم فى سموم

وفاخر الصيف الشتاء وقال وقد تفصد عرقا وصوت سمومه فرقا :
اما حرارتى فهى من حرارة الشمس لأنها تكون اذن فى البروج الشمالية من الرأس والى تنقلها يشير الشاعر :

لو ان فى شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

ولا يعيبها بذلك إلا هالك لأنها كذلك تدبير المالك .
وفى تعب من يحسد الشمس نورها ويجهد ان يأتى لها بضريب

أما تعرف بها الأوقات ويشتد فيها النبات ويستدل على طريق الصواب ويعلم عدد السنين والحساب قد جعلها رحمة للعباد ومصلحة تدرأ الفساد .
وقال ارسطو الحكيم فى الزمن القديم لو توارت الشمس عن الأرض لمات

حيها وأنتن طينها وجمد ماؤها لأنها فى الأرض كالكبد والدم فى الجسد وقد قال فيها الشعراء كثيرا فمن ذلك :

وسائـــرة لا ينقضى الدهـــر سيرها وليســت على حى من النـاس تنزل

لهـا صاحــب لم تلقــه الدهــر مرة على أثرهـــا يمشى يســـير ويعمل

وما هى الا كما قيل : الشمس بين الكواكب كالملك بين المواكب والباقى كالأعوان والجنود وحمال الرايات والبنود فهى جمال أيام الصيف ومدة مقام الضيف حتى يأتى زمان الشتاء فتبعد فى جهة الجنوب وتختفى فى الغيوم التى تأتى بالغموم .

العرق فى الصيف

وما عرق الجسد الا من تمام الصحة فاذا قوبل بالمروحة كان لذة وراحة وعرقه تابع لثوبه فان كان مطيبا فانه يتحدر ويترشح كالمسك الأذفر وفى ذلك قال الشاعر : (الطيبون ثيابا كلما عرقوا) وقال الآخر :

تنشـــق مســـك أصداغـــى حلالا فهـــذا الطيـــب من عرق الجبين

وتراه كاللؤلؤ اذا انتثر أو الطل على أوراق الشجر أو دمع المحب عند الفراق والسهر قال الشيخ خوقير فى رسالته :

عرق الحبيـــب اذا تحدر كالطـــل فى ورق تقطر

أو لؤلـــؤ يزهـــو وينثر أو دمـــع مهجـــور تقطر

وما ألطف قول بعضهم :

قبلـــت وجنتـــه فألْفَـــتَ جيده خجـــلا ومـــال بعطفـــه المياس

فانهـــل من خديـــه فوق عذاره عرق يحـــاكى الطـــل فوق الآس

فكأننـــى استقطـــرت ورد خدوده بتصاعـــد الزفـــرات من أنفاسى

وقال الآخر :

سقى الله روضا قد تبدى لناظرى   به شادن كالغصن يلهو ويمرح
وقد نضحت خداه من ماء ورده   وكل اناء بالذى فيه ينضح

وقال الآخر مضمنا :

وطل على ورد حكى ورد غادة   به عرق من خجلة يتصبب
وأوراق كرم قد حكت كف سائل   لمن بات فى نعمائه يتقلب

وقال آخر وأنشدنيه صفوة حمائى الفاضل الأديب حسين البغدادى :

بدا عرق فى خده فسألته   بماذا تندى قال لى وهو يمزح
الا ان ماء الورد خدى اناؤه   وكل اناء بالذى فيه ينضح

وما أظرف قول الآخر :

فى خده عرق بدا   ذا حمرة لصفائه
هذا يصدق قولهم   الماء لون انائه

ولله در القائل :

وكلل الطل أوراق الغصون ضحى   كما تكلل خد الخود بالعرق
واطلق الطير فيها شدو منطقه   ما بين مختلف منها ومتفق

السموم والماء البارد فى الصيف

وقالوا فى الصيف ان الماء به لوجود الباعث هنىء ولا يطيب ولا يلذ ولا يساغ الا فى زمنه فيبرد بالليل والسموم فيروى الغليل ويشفى الهموم .

ولقد روى عن معاوية انه قال ما شىء ألذ عندى من شربة باردة فى يوم

صائف ونظرى الى بنى وبنى بنى يدرجون حولى .

والسموم فائدة للمزروع وفيه عين النعيم فاذ انزوى الانسان الى جانب بيته او روضه وسكب الماء حوله على أرضه طاب الهواء وبرد الماء وثمرة هذه السموم فى المونقات والباسقات تنشق عن لجين وعسجد ولون كلون الزبرجد فى السموم نضج الثمار واستحكام الحب وادراك الحصاد واصلاح الرطب واخصاب الأرض ودر الاخلاف من النعم وسمنة البهائم واشتداد قوى الأبدان .

ومن ذم الصيف قول القائل :

ويوم قيظ اذاب جسمى والماء لم يشف لى الغليلا
قد صح موت النسيم فيه وكان عهدى به عليلا

موت اسكندر الرومى فى الصيف

وأما قولهم (سحابة صيف عن قريب تقشع) .

فمن قولهم (سحابة الصيف) مثل يضرب لما يقل لبثه ويخف مكثه وشبه بها غضب العاشق . وقال أحد الحكماء الذين وقفوا على تابوت اسكندر الرومى ورمى كل منهم بحكمة بالغة انظر الحلم النائم كيف انقضى والى سحاب الصيف كيف انجلى .

هذا وكان ابن شبرمة اذا نزلت به نازلة يقول : « سحابة صيف عن قريب تقشع » .

ومن قول الصاحب بن عباد : سحائب الصيف اثبت من قولك والخط فى الماء اقوى من عهدك .

وفى كتاب المبهج : اقبال الدنيا كالمامة ضيف او سحابة صيف وقال الأصفهانى : طبع الكريم لا يحتمل حمة الضيم وهواء الصيف لا يقبل غمة

الغيم .

وقيل الصيف صاحب الحيف يجعل المحاسن عيوبا وكان العيب عليه مضروبا اما تنظر الى يومه الطويل الذى هو كيوم الحساب وليله القصير المهيل الذى تخرج فيه الدواهى من الثقاب ومما قيل فى ليل الصيف :

وقصر يوم الصيف فيه وليله شتاء سرور منه رفرف طائره

وقالت العرب الشتاء ذكر والصيف انثى وقال بعضهم للوليد بن يزيد فى كلام دار بينهما : عجبت لمن لم تحرقه الشمس .

وكتب بعض الكتاب القدامى فى الصيف وقال : انتعل كل شىء ظله وقام قائم الهاجرة ورمت الشمس بجمرات الظهيرة .

وكتب آخر : ونقله فى المسامرة ص ٦١ : لا مرحبا بالصيف من ضيف حر يشبه قلب الصب ويذيب دماغ الضب . وسئل بعضهم كيف كان الهواء البارحة فقال مات ولم يكن له نفس.

قال أبو تراب :

هذا القدر هو الذى نشرته « الرائد وأضاعت بقية ما قيل فى الصيف مما جمعناه ، ولم أعثر عليه حتى الآن ، وكم من ملتقط لنا غاص فى الخضّمات ، ولله الأمر .

مع عصا الدكتور محمد عبده يماني

قال أبو تراب :

ذهب ذِكر العَصَا فى الدُّنَا مذهبَ الريح ، وسارت هى لا خَيْزَلى ولا هَيْدَبَى ، وانما سير الاعتماد عليها الى حيث تُلقى ، حتى أَلِفَتْها المُوق فلا الرَّائيها يستنكر ، ولا الرِعْشيْشُ عنها بُمسْتَغْن ، إَن كانت الحاجة اليها هى أُمُّ التأهُّب والاستعداد ، لكن ما درى المتأبّطون ايّاها ، والقابضون عليها بالأكف والأنامل ماذا هى تَعنى عندما يأخذها الآخرون للتظرّف واستكمال الوجاهة ، وفرق بين هؤلاء وأولئك ، فذو الحاجة اليها يقول متحسراً :

قد كنـت أمشي على رجلـين متكئاً فصرتُ أمشي على أخــرى من الخشب

وذو غاية أخرى قد يستشهد بصنيع كليم الله إذْ لم يقتصر فى المناجاة على التوكؤ عليها ، والهش بها على الغنم ، لكنْ جاوز الى مآرب له أخرى ، فما بال من اتخذها لا لهذا أو لا لذاك ، وانما كان اتخاذُها لديه تقليداً فى الصغر ، واعتياداً فى الكبر .

وربما ناسب سوق هذا الكلام ما شاهدت أنا ونخبة من الصحب من صنيع صديقنا النابغة الدكتور محمد عبده يمانى وزير الاعلام بنفسه اذ اتخذ له عصاً يتوكأ عليها إثر « عملية » أجريت له ، شفاه الله منها ، وعـاد معـافى ، والله المحمود على كل حال وهو ذو الطول والفضل ، فلماّ بصرنا به مقبلا ، وحَلَلْنا الحُبَى وابتدرنا القيام لتحيته تبسمّ ضاحكاً وأنا أنظر الى عصاه ، وهو يقـول موقّتة ، حتى تَقْوى قَدَمى ، ثم أتركها وكأنه يقول لى : لك ولأمثالك .

ومن قبل قرأت وقرأ الناس معى نبأ الصديق الفاضل الأديب عبد المجيد شبكشى وهو يهبط مرة مرقاة الطائرة بعصا قيل : انها فُضّض مقبضها ، ولم يُزَجَّج طرفها الأسفل ، وكانت فى المَلْمَس كالصِلّ ، أو هى ألين ، وفى اللون كالأُرَيْقِط أو هى كالفسيفساء .

وسبق أن ضمّنى مجلس بعكاظ بثلة من أهل الأدب منهم الأديبان ـ الدارى والطاشكندى ـ وقد تناولوا فى حديثهم ذكر عصاتى ، وما أكثر ما يتناولونها حتى كتبوا عن إصابتها وإصلاحها وإبدال مقبضها ، وسائر مراحل تطورها ، وهى فى كل ذلك تلازمنى منذ الصغر ، وأنا أفهم ما هم يعنون « ورب البيت أدرى بما فيه » .

ذلك أنّى كنت فى الماضى معلّم أطفال ـ والحجّة هنا لصديقنا العمير ـ ولا يَسلم من امتهن هذه المَشْغَلة من أن يستعمل الهراوة ، كما فعل أخونا الذى ذكره الجاحظ جعل لنفسه عصاً طويلة تبلغ أخريات الصف ، وأخرى قصيرة ، وصولجاناً وطبلاً يعلقه فى حلقه ، فالطويلة يصيب بها القاصى ، والقصيرة تنال الدانى ، وأمّا الطبل والمضراب فاذا أعياه المطلب ليستنجد بأهل السوق ، وكذلك الصبيان الذين يجننون معلّميهم .

ولكنّى أؤكد أن عصاى لم تكن قط فى عهدى ذاك للضرب والطرد ، وأمامى أكثر من مئة صبّى يعرضون الألواح ، ولن أبالى اذا قام مستشهد كالشيخ جمال تركى بكلام قديم فى إجازة استعمالها للحاجة ، فإن الحكم شىء والفعل شَىء آخر ، وقد بسطت الجرائد صفحاتها إبان ذاك لتلك المعركة استقصينا فيها القول فالرجوع اليها أحمد ، ويعلم الله أننّى لم أكن ضرّاباً قط أرهب الجآذر ، الغُفْل ، بالعصّى اليُبْس ، وهم عن الدروس لاهون ، أو فى لعبهم يمرحون .

كأنما جِلْـدُه والسَّـوط يأخذُهُ قطـن تَطَـايَر عن قُضبـانِ نَدَّاف

ولاحظ حاضر و المجلس الوهن الذى أصاب عصاى فأرادوا أن يكون موضع تفكّهٍ لهم ، فأَحَلْتُ الهزل جداً ، فقلت فى مجلسى ذاك : قد ألّف أسامة بن منقذ كتاباً فى العصا ، هل تدرون ما هو ؟ وكتب المعرّى رسالة فيها ، وهذا الجاحظ ايضاً سلك هذه النهجة ، فما لكم تصدفون .

قالوا : اكتب لنا مقالاً فيها ؟ قلت : هى موضوعى فى « المدينة » ان شاء ربنا وصرفت حواجب الظروف ما لم يكن مصروفاً عنه فى القدر ، وما كنت بمنيع الملتمس ، ولا بثانى العطف عن إجابة الصحب ، ومضت على المجلس ليلتان ونهار حتى تلقّانى صُبْحَةً تحت منزلى هذا الأديب الطاشكندى الذى ذكرتُ ، فأركبنى فارهته وهو يقول : هل وفيت بما وعدت ؟ قلت : بلى ، وأتيت البيت أفتش عن أوراق كتبتها انْدَسَّتْ فى ثنايا الحنادر ، وأسفت على فقدانها ، فاضطررت الى أن أستأنف القول ، فرأيت أن أحكى قصَّتَىْ مثلين من أمثال العرب يتعلقان بالعصا ، هما : (ان العصا من العُصَيَّة) و (ان العصا قرعت لذى الحُلم) وبالثانى تُغَنْون هذه المقالة ، لعلّها تبلّ الغلة على العجالة .

وإتحافاً للقارىء أورد رسالة لأبى العلاء المعرّى ليس لها ذكر فى جملة رسائله البتَّةَ ، وعثر عليها البحاثة عبد العزيز الراجكوتى منذ أكثر من خمسين سنة ، وفيها ذكر العصا ، ونقلها أسامة بن منقذ فى كتاب العصا (ورقة ١٦٠) وقد أخطأ المستشرق مرجليوت إذْ صَحَّفَا الكلمة (بالقضاء) بدل (العصا) ، وهذا نصها :

قال المؤلف :

« وقفت على كتاب كتبه الشيخ ابو العلاء أحمد بن سليمان المعرّى الى الشيخ جعفر بن أبى القاسم بن أبى العَوْد فيه ذكر العصا أنا ذاكره وهو : مولاى الشيخ الأجلّ الأوحد أطال الله بقاءه ، وأدام نعماءه ، وكبت اعداءه ، واسمه جعفر ، والجعفر النهر الصغير الكثير الماء ، وإنه لفرات يَرِده أهل الأَظْماء ، فيُغْنى الوارد

عن القطر النازل من السماء ، وكنيته أبو القاسم ، وهو يقسم مارزق بين الضعفاء ، وطارق يحبّ له حسنَ الوفاء ، وهو يشفق على بعيد وقريب وأهلٍ من القوم وغريب ، والله جلّت عظمتُه يريه من الشجر ثناماً يسرّه ، وفى هذه المدّة عرض لى ما يمنع من القيام ، ويلحق النار الموقدة بالأيام ، فاذا نهضت خِلْتُ أنّى متوتّل فى نيق ، يعجز تعالى السوذنيق ، واذا مثلت قائماً لم أقدر على خطو الاّ كما ضعف من القطر ، كأنّ خَطْوى فتر ، وبيد الله العافية والستر ، ولابد لى من عصا معينة ، والعجب للدنيا اللعينة ، وورد وليه الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم وهو مُوْقَر من أياد ، مازال لمثلها ذا اعتياد ، والله يستجيب منى فيه وفى أودّائه ما يرفع من دعاء ، فالربّ الأول ملك الملوك وراعى الرعاء .

قال أبو تراب :

أمَّا المَثَلان اللذان أحببت ايرادهما فأولها : « إن العصا من العُصَيّة » وقائله : الأفعى الجرهمى وقصته كما ذكر الضبّى أن نزاراً لما حضرته الوفاة جمع بَنيه مُضَرَ وإياداً وربيعة وأنماراً فقال : يا بَنىَّ ، هذه القُبَّة الحمراء ـ وكانت من أدم ـ لمضر ، وهذا الفرس الأدهم ، والخباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم ـ وكانت الشمطاء ـ لإياد ، وهذه البَدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم شىء كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجرهمى ومنزله بنجران .

فتشاجروا فى ميراثه فتوجهوا الى الأفعى الجرهمى فبينما هم فى مسيرهم اليه إذْ رأى مُضرَ أثَر كلإقد رُعِىَ فقال : ان البعير الذى رَعَى هذا لأعور ، وقال ربيعة : انه لأزور ، وقال إياد : انه لأبتر ، وقال أنمار : إنّه لشرود ، فساروا قليلاً ، فاذا هم برجل ينشد جمله ، فسألهم عن البعير فقال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ـ وقال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم ، وقال إياد : أهو أبتر ؟ ؟ قال : نعم ، وقال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم ، وهذه والله صفة بعيرى فدلّونى

عليه ؟ قالوا ، والله ما رأيناه ، قال : هذا والله الكذب ، وتعلّق بهم وقال ، كيف اصدّقكم وانتم تَصِفُون بعيرى بصفته ، فساروا حتى قدموا نجران .

فلما نزلوا نادى صاحب البعير : هؤلاء أخذوا جملى ووصفوا لى صفته ، ثم قالوا : لم نَرَه ، فاختصموا الى الأفعى وهو حكم العرب فقال الأفعى : كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر : رأيته رَعَى جانباً وترك جانباً فعلمت أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته ، فعلمت انه أزور لأنه افسده بشدة وطئه لازوراره ، وقال اياد : عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذَيَّالا لمصعَ به ، وقال أنمار : عرفت انه شرود لأنه كان يرعى فى المكانِ الملتف نبتُه ، ثم يجوزه الى مكان ارق منه ، وأَخْبَتَ نبتاً فعلمت انه شرود .

فقال الجرهمى للرجل : هؤلاء ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ، ثم سألهم من انتم فأخبروه ، فرحّب بهم ، ثم أخبروه بما جاء بهم فقال : أتحتاجون الىّ وانتم كما أرى ، ثم أنزلهم فذبح لهم شاة ، وأتاهم بشراب ، وجلس لهم الأفعى حيثُ لا يُرى وهو يسمع كلامهم .

فقال ربيعة ، لم اركاليوم لحماً اطيب منه لولا أن شاته غُذيت بلبن كلبة ، وقال مضر ، لم أر كاليوم شراباً أطيب منه لولا أن حَبَلَتَها نبتت على قبر ، وقال إياد : لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له ، وقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع فى حاجتنا من كلامنا ، وكان كلامهم باذنه .

فقال الجرهمى ، ما هؤلاء الاّ شياطين ، ثم دعا القهرمان فقال : ما هذا الشراب وما أمرها ؟ قال : هى من حَبَلَةٍ غرستُها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها ، وقال للراعى : ما أمر هذه الشاة ؟ قال : هى عَنَاق ارضعتُها بلبن كلبة وذلك انّ أمها كانت قد ماتت ، ولم يكن فى الغنم شاة ولدت غيرها ، ثم أتى امّه فسألها عن أبيه فأخبرته أنها كانت تحت رجل كثير المال وكان لا يولد له ، قالت : فخفت ان يموت ولا ولد له فأمكنت من نفسى ابن عمّ له

كان نازلا عليه (قبحها الله)

فخرج الأفعى عليهم فقصّ القوم عليه قصتهم ، وخبّروه بما اوصى به ابوهم فقال : ما أشبه القُبَّة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمّى مضر الحمراء لذلك ، وقال ، أمّا صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شىء أسود ، فصارت لربيعة الخيلُ الدُّهم ، فقيل : ربيعة الفَرَس وقال : ما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد فصار له الماشية البُلق من الحبلق والنقد فسمّى إياد الشمطاء ، وقَضَى لأنمار بالدراهم وبما فَضَل فسمّى أنمار الفَضْل ، فصدروا من عنده على ذلك فقال الأفعى : « ان العصا من العصيّة » وأرسله مثلاً .

قال أبو تراب :

وهذه القصة ذكرها الضبّى ، ونقلها العسكرى ، والميدانى ، واختصرها الفيروزابادى ، واوردها غيرهم ، والعُصَيَّة من العصا فى قول أبى عبيد ، وقد يراد بالمثل أن الشىء الجليل يكون فى بدء أمره صغيراً ، أمّا على قول أبى عبيد فالتصغير للتكبير ، إذَنْ فالمراد أنهم أشبهوا أباهم فى إصابة الرأى ، قال الميدانى : قيل : ان العصا اسم فرس والعُصّية أمّه ، وكأنّه يحكى الأم فى كرم العرق ، وشرف العتق .

قال أبو تراب :

وبمثل هذا الاستنتاج الذى ورد فى هذه الرواية وقع للإمام مالك فى غلام آبق لرجل ، وليس هذا موضع ذكره ، ومن شاء فليراجعه فى ترجمته .

قال أبو تراب :

وثانى المثلين اللذين كنا بصددهما : « ان العصا قرعت لذى الحلم » قال الميدانى فى مجمع الأمثال : قيل : ان أول من قُرعت له العصا عمرو بن مالك

الكنانى ، وذلك ان سعداً أخاه أتى النعمان بن المنذر ، ومعه خيل له قادها ، وأخرى عرّاها ، فقيل له : لم عرّيت هذه ، وقدت هذه ؟ قال : لم أقد هذه لأمنعها ، ولم أُعَرّ هذه لأهبها ، ثم دخل على النعمان فسأله عن الأرض التى له فقال : أما مطرها فغزير وأمّا نَبْتُها فكثير ، فقال له : انك لقوّال ، وإنْ شئت أتيتك بما تَعْيَى عن جوابه ، قال : نعم فأمر وصيفاً له أن يلطمه ، فلطمه لطمةً فقال : ما جواب هذه ؟ قال : سفيه مأمور قال : الطمه أخرى فلطمه قال : ماجواب هذه قال : لو أخذ بالأولى لم يَعُدْ للأخرى ، وانّما أراد النعمان أن يتعدّى سعد فى المنطق فيقتله ، فقال : الطمه ثالثة فلطمه ، قال : ما جواب هذه ؟ قال : رب يؤدّب عبده قال : الطمه أخرى فلطمه ، فقال : ما جواب هذه ؟ قال : ملكتَ فأسجح . قال النعمان : أصبتَ فامكثْ عندى ، وأعجبه ما رأى منه ، فمكث عنده ما مكث .

ثم انّه بدا للنعمان أن يبعث رائداً ، فبعث عمروًا أخاه فأبطأ عليه فأغضبه ذلك ، فأقسم لئن جاء ذاماً للكلأ أو حامداً له ليقتلنّه ، فقدم عمرو ، وكان سعد عند النعمان ، فقال سعد : أتأذن أن أكلّمه ؟ قال : اذن يقطع لسانك ، قال : فأشير اليه ؟ قال : إذن تقطع يدك قال : فأقرع له العصا ؟ قال : فاقرعها .

فتناول سعد عصا جليسه وقرع بعصاه قرعةً واحدةً فعرف أخوه أنه يقول له : مكانك ، ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات ، ثم رفعها الى السماء ومسح عصاه بالأرض ، فعرف انه يقول له : لم أجد جَدْباً ، ثم قرع العصا مراراً ثم رفعها شيئاً ، وأومأ الى الأرض فعرف انه يقول له : ولا نباتاً ثم قرع العصا قرعةً ، وأقبل نحو النعمان ، فعرف انه يقول له : كلّمه ، فأقبل عمرو حتى قام بين يدى الملك النعمان فقال له : أخبرنى هل حمدت خصباً ؟ أو ذممتَ جدباً ؟ فقال عمرو : لم أذْمُمْ هزلا ، ولم أحمد بقلا ، الأرض مُشْكِلة لا خصبها يعرف ، ولا جد بها يوصف ، رائدها واقف ، ومنكرها عارف ، وآمنها خائف ، فقال النعمان :

أولى لك ، فقال سعد يذكر القرع بالعصا :

قرعت العصا حتى تبينَّ صاحبى ... ولم تك لولا ذلك فى القوم تقرع
فقال رأيت الأرض ليست بمُمْحِلٍ ... ولا سارح فيها على الرَّعْى يشبع
سواء فلا جَدْب فيُعرف جدبهُا ... ولا صَابهَا غيث غزير فتُمرع
فنجحها جوباء نفس كريمة ... وقد كاد لولا ذاك فيهم تقطع

وقال آخرون : ان العصا قرعت لعامر بن الظَّرِب العدوانى ، وهو ذو الحلم ، وكان من حكماء العرب ، فلما طعن فى السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لِبَنِيه : انّه قد كبرتْ سِنّى ، وعرض لى سهو ، فاذا رأيتمونى خرجت من كلامى ، وأخذت فى غيره فاقرعوا لى المِجَنَّ بالعصا . وعامر هذا عَمِر طويلاً ، وله قصة رواها الشعبى عن ابن عباس . قال ابن الأعرابى : أول من قُرعت له العصا عامر هذا وربيعة تقول : بل هو قيس بن خالد ، وتميم تقول : بل هو ربيعة بن مُخاشِن ، واليمن تقول : بل هو عمرو بن حُمَمَة الدوسى .

وفى شعر المتلمس ذكر ذى الحلم الذى قرعت له العصا قال :

لذى الحلم قبل اليوم ماتقرع العـ ... ـصا وماعلم الانسان الاّ ليعلما

والمثل يضرب لمن اذا نُبّهِ انْتَبَه ، قاله الميدانى وابن قدس وغيرهما .

قال أبو تراب : ولتخريج هذين المثلين متسع من القول فى الرواية وتصحيحها ، وفى اللغة ووجوهها ، وما أردنا الاّ امضاء الوقت فى نهدة بريئة ، وجلوة مرضية ، والعصا هى التى كانت داعية هذه الاثارة ، وستظل العَصَا من العُصَيَّة ، ولو كانت من يابس بجِذْع ، وسيظل المِقْوَلُ ذا استتباع ولو لزم الاستراحة بعض الوقت ، فليمض من شاء ضالعاً ، فإن لنا وقوفاً على الطلل ههنا . ونختم هذا القول ، بالاشارة الى عصا موسى عليه السلام ، وذكرها واضح

فى القرآن ، وتسمى مِنْسَأَة قال الله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الاّ دابة الأرض تأكل مِنْسَأَتَه » وفى محاضرات الراغب ج ٣ ص ١٧١ : يقال : ألقى فلان عصاه ، اذا نزل ، ويقال : شَقَّ العصا ، اذا خرج عن الطاعة ، ويقال : هم عبيد العصا ، أى ينقادون بالعصا ، وسمى الصغير الرأس رأس العصا ، وفلان صُلْب العصا أى قوىّ ، وقولهم : انك خير من تفاريق العصا ، فالعصا تقطع ساجوراً ، ثم يجعل الساجور أوتاداً ، والأوتاد شظاظاً ، والشظاظ مهار البَخَاتِى ، وتُشَقّ العصا فتجعل قوساً للبندق ، وتجعل القوس سهاماً ، والسهام حِظاءً ، والحظاء مغازل ، والمغازل قداحاً .

قال ابو تراب :

والمنسأة هى العصا العظيمة ، تكون مع الراعى ، وقد تُلَيَّنُ همزتها ، قال ابو طالب عم النبى ﷺ يهمزها :

أمن أجل حبل لا أباك ضربته ... بمنسأة قد جرّ حبلك أحبل

وقال آخر أيضا وهو يترك همزها :

إذا دببت على المنساة من هرم ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وانما سميت بالمنسأة لأن الدابة تُنْسَأ بها أى تُزجر ليزداد سيرها أو تدفع وتُؤَخَّر .

وقال الفراء فى قوله تعالى : « تأكل منسأته » فيما نقله عن ابن السيد البطليوسى يجوز (مِنْ سَأَتِه) بفصل (من) على أنّه حرف جَرّ ، والسَأَةُ لغة فى سِيَة القوس ، وهى طرفها .

قال ابن عادل : والسِية العصا أو طرفها ، أى تأكل من طرف عصاه وقد روى انه اتكأ على خضراء من خرنوب .

وقد أشار الى هذه القراءة البيضاوى وغيره من المفسرين ، ونقله وهى مروية عن ابن جبير فى العناية عن الخفاجى ، بمعنى طرف العصا وأصلها ، وسِيَـة القوس ما انعطف من طرفها .

وقيل انها كانت خضراء فاعوجت بالاتكاء عليها ، وقد ردّ ابن السيد على الفرّاء ، وتبعه الفيروز ابادى فقال : فيه بُعْد وتعجرف .

وكلام البطليوسى بأنه لم تأت به رواية ، وانه لم يكن معتمداً على قوس منقوض بما ذكرنا .

والهراوة العصا الضخمة . وفى حديث سَطيح : « وخرج صاحب الهراوة » أراد به النبى ﷺ لأنه كان يمسك القضيب بيده كثيراً ، وكان يُمشى بالعصا بين يديه ، وتُغرز له فيصلى اليها ﷺ .

والجمع هراوى كمطايا ، وهُرِىّ ، وهِرِىّ على غير قياس .

قال كثيرّ :

ينـــوّخ ثم يضرب الهراوى فلا عُــرف لديـــه ولا نكير

وأنشد ابو على الفارسى :

رأيتــك لا تُغنــينَ عنّــى نُقرة اذا اختلفتْ فىّ الهـراوى الدمامك

وهَرَاهُ ، وَتَهَرّاهُ ضربه بالهراوة ، وأنشد الجوهرى لعمرو بن مِلْقَط الطائى :

يكسى ولا يغــرث مملوكها اذا تهــرّت عبدهـــا الهادية

وفى لغة : هراه يهريه : اذا ضربه بالهراوة ، وأنشد ابن الأعرابى :

(وان تهرّاه بها العبد الهارى)

والعنزة قدر نصف الرمح أو أكثر شيئا ، فيها سنان كالرمح ، أو زُجّ كزُجّ الرمح يتوكأ عليها الشيخ الكبير ، وهى أطول من العصا وأقصر من الرمح ، والعُكّازَة قريبة منها .

والعَكُوز والعُكَّاز عصا ذات زُجٍّ فى أسفلها يتوكأ عليها الرجل .

قال أبو تراب :

وقد ذكرنا فى كتابنا « شواهد القرآن » ان ابن الأعرابى أنشد :

يكفيك جهلَ الأحمق المُستجهل — ضَحْيَائَةٌ من عَقَدات السَلْسَل
مبْرَلةٌ تُزمن ان لم تقتل — متى تخالطْ هامةً تَغَلْغَلِ
كأنها حين تجىء من عَلِ — تطلب دَيْناً فى الفراش الأسفل

قالها فى رجل من بنى ضَبَّة سرق نَعْلَيْه فضربه بعصاً من طَلْحٍ ، والأبيات فى معجم البلدان لياقوت .

وقال فى اللسان : ضَحْيانة هى عصاً نَبتَتْ فى الشمس حتى طبختْها ، وأنْضَجَتَهْا فهى أشد ما يكون وهى من الطلح ، وسَلْسل جبل من الدهناء ، وشجره طلح فاذا كانت العصا ضحيانة وكانت من الطلح ذهبت فى الشدة كل مذهب .

قال أبو تراب :

والقطيع السوط (أنظر المقاييس لابن فارس) وفيه شاهد للأعشى . والعصا فى محاضرات الراغب (ج ٣ ص ٧١) وكذلك النَبُّوت ، وأنظر العصية فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ٣٣٩) وأنظر عصا أرزن الخ فى لسان العرب لابن منظور فى مادة (ناء ينوء) وأنظر العكّاظ فى المقامة الوبرية للزمخشرى .

والرأبيل العصا أيضاً . والنبع والشوحط والشريان مما تتخذ منه العصا . وأنظر المشعاب والمحجن ، والقفيل العصا كما فى أساس البلاغة للزمخشرى فى مادة (مشق) والعصا فى اللسان فى (حسب) وبيتان فى العصا فى (مناوأة) :

انـى وجـدّك لا أقضى الغريـــم وإن حان القضـاء ومـــا رقّــت له كبدى
الاّ عصـــا أرزنٍ طالـــت بُراتيها تنـــوء ضربتهـــا بالـــكف والعضد

والهراوى فى (الأساس ص ٤٧٠) .

●●●●

فهرس

الموضوع — رقم الصفحة

* * *

انتهى الجزء الأول من كتاب « الموزون والمخزون » ويليه الجزء الثانى ،

● قام بتصحيح التجارب المطبعية لهذا الجزء :

عبد الحليم محمد عبد الحليم المراقب اللغوى باذاعة جدة

خريج جامعة الازهر

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلا	(نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(نفد)	الشيخ حسين باسلامة
• وقفة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبدالوهاب عبد الواسع
• الابحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجها لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحد	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد على مغربي
• النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء

الكتاب		المؤلف
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(مجموعة قصص مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(ديوان شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(ديوان شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد		الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبد الله سراج
• الموزون والمخزون		الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام		الشيخ أبوتراب الظاهري

تحت الطبع :

- إليها (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبد الله سراج
- حتى لا نفقد الذاكرة — الأستاذ سعد البواردي
- أحاديث وقضايا إنسانية — الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
- نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية — الأستاذ حسن بن عبد الله آل الشيخ
- معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- قصص من طاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- أيامي — الأستاذ أحمد السباعي
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
- دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية) — الأستاذ سباعي عثمان
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- هكذا علمني ورد زورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
- وحي الصحراء — الأستاذ عبد الله بلخير / الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
- سباعيات — الأستاذ احمد السباعي
- خلافة أبي بكر الصديق — الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- الطاقة نظرة شاملة — الدكتور عبدالهادي طاهر
- طيور الأبابيل — الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
- عمر بن أبي ربيعة — الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
- رجالات الحجاز — الأستاذ إبراهيم هاشم فلالي
- لا رق في القرآن — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- من مقالات عبد الله عبد الجبار — الأستاذ عبدالله عبدالجبار
- الجبل الذي صار سهلا — الطبعة الثانية — الأستاذ أحمد قنديل
- التنمية قضية — الطبعة الثانية — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا — الطبعة الثانية — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- غداً أنسى (قصة طويلة) — الطبعة الثانية — الدكتورة أمل محمد شطا
- عواطف إنسانية (ديوان شعر) — الطبعة الثانية — الدكتورة مريم البغدادي
- تاريخ عمارة المسجد الحرام — الطبعة الثانية — الشيخ حسين باسلامة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) — الطبعة الثانية — الأستاذ أحمد السباعي
- الحضارة تحد — الطبعة الثانية — الدكتور محمود محمد سفر
- حوار .. في الحزن البارد — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- البترول والمستقبل العربي — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- البعث — الأستاذ محمد علي مغربي
- سير وتراجم — الأستاذ عمر عبدالجبار

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منهــا :

العنوان	المؤلف
• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبد القادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبد السلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبد المنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقليه
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• مباديء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية	الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن	الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
• تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم



صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الاملائي		الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية		إعداد إدارة النشر
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	
• تسالي	(من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
• كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني	(دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) نفد	الأستاذ علي الخزجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• رعب على ضفاف بحيرة جنيف		الأستاذ شكيب الأموي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
• القرآن .. وبناء الإنسان		الأستاذ صلاح البكري
• اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية		الأستاذ علي عبده بركات
• الطب النفسي معناه وأبعاده		الدكتور محمد محمد خليل
• الزمن الذي مضى	(مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح إبراهيم
• المجموعة الخضراء	(دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخزجي

تحت الطبع :

• قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزّي الدكتور لطفي بركات أحمد
• الموت والابتسامه	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
• الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
• البحث عن بداية	(مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
• وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• الحجاز واليمن في العصر الأيوبي		الدكتور جميل حرب محمود حسين
• ملامح وأفكار مضيئة		الاستاذ أحمد شريف الرفاعي
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• الإمكانات النووية للعرب وإسرائيل		الدكتور صدقة يحيى مستعجل
• ديوان السلطانين		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي

رسائل جامعية

صدر منها :

• صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور بهاء حسين عزي
• الخراسانيون ودورهم السياسي		الأستاذة ثريا حافظ عرفة
• الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت		الأستاذة موضي بنت منصور ابن عبدالعزيز آل سعود
• العثمانيون والإمام القاسم بن على في اليمن		الأستاذة أميرة على المداح
• القصة في أدب الجاحظ		الأستاذ عبد الله باقازي
• تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف		الأستاذة فوزية حسين مطر
• النظرية التربوية الإسلامية		الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
• نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون		الأستاذ رشاد عباس معتوق
• المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة)		دكتور نايف بن هاشم الدعيس

تحت الطبع :

• افتراءات فيليب حتي .. وبروكلمان على التاريخ الإ لامي		الأستاذ عبد الكرم على باز
• الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية		الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان
• دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور فايز عبد الحميد طيب

- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبد الرشيد حسن عطار
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الإحساء (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبد الحميد طيب
- اساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر رفاعي الحلواني
- التعليم في المملكة العربية السعودية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة/ نورة عبدالملك آل الشيخ

كتاب الناشئين

صدر منها :

سلسلة : وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الديك المغرور .والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

تحت الطبع :

- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني، إعداد الأستاذ يعقوب محمد اسحاق



صدر منها :

* **لكل حيوان قصة** للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاء
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

* الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
* السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
* النخلة الطيبة — الأستاذ إسماعيل دياب

تحت الطبع :

- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الاستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ إسماعيل دياب
- سلسلة حكايات كليلة ودمنة — **الأستاذ يعقوب محمد اسحاق**
- سلسلة حكايات ألف ليلة وليلة — **الأستاذ يعقوب محمد اسحاق**

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak A Critical Study
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia

* * *

تَحِيَّةٌ إلى أبي ترابٍ الظاهريِّ

بقلم الدكتور **زكي المحاسني**
أستاذ الأدب العربي - رحمه الله

أَبَا تُرَابٍ وَأَنْتَ الظَّاهِرِيُّ وَمَا ... أَرَاكَ إلَّا عَلِيمًا بِالْخَفِيَّاتِ

أَبَا تُرَابٍ وَمَا يَلْقَاكَ مِنْ أَحَدٍ ... فِي النَّاسِ إلَّا مُشِيرًا بِالتَّحِيَّاتِ

قَدْ طَالَ مَا بَيْنَنَا شَوْقُ اللِّقَاءِ فَإِنْ ... ذُقْنَاهُ إلَّا لِمَامًا طَيَّ فَيْنَاتِ

عِنْدَ الْعَمِيدِ[1] الَّذِي نُعْمَاهُ وَارِفَةٌ ... وَعِنْدَ رَيْحَانِهِ أَطْلَعْتُ آيَاتِي

مِنْ آلِ بَغْدَادَ (عَبْدِالله) مِيسَمُهُ ... وَجَدْتُ فِي قُرْبِهِ رَوْحِي وَجِيَّاتِي

هُوَ الأَدِيبُ الَّذِي لَوْ شَاءَ لَامْتَلَأَتْ ... مِنْهُ التَّوَالِيفُ فِي إِبْدَاعِ رَوْعَاتِ

* * *

يَا صَاحِبَ الْقَلَمِ الْمِمْرَاحِ أَنْتَ لَنَا ... نُورُ الْبَيَانِ عَلَى أَحْلَى الْبَلَاغَاتِ

النَّثْرُ طَوْعُكَ فِي إِعْجَازِ خَاطِرَةٍ ... وَالشِّعْرُ عِنْدَكَ مِطْوَاعُ السَّخِيَّاتِ

وَزِدْتَ فَضْلَهُمَا بِالْخَطِّ مُتَّسِقًا ... وَلِابْنِ مُقْلَةَ فِيهِ سِمْطُ رُقْعَاتِ

عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامٌ سَوْفَ أَبْعَثُهُ ... مِنَ الشَّامِ لَدَى قَوْمِي وَدَارَاتِي

أَقُولُ شِمْتُ أَرِسْطَالِيسَ فِي نَفَرٍ ... تَاهُوا عَلَى النَّجْمِ فِي مَرْفُوعِ هَامَاتِ

فِيهِمْ (حُسَيْنٌ)[2] أَخُو الْعَرْبَاءِ شَاعِرُهُمْ ... العَبْقَرِيُّ الَّذِي غَنَّى الشَّجِيَّاتِ

وَذُو (الْعُطُورِ)[3] الَّذِي إِنْ كَانَ عَاتَبَنِي ... فَإِنَّمَا الْعَتْبُ مَحْمُودُ السَّجِيَّاتِ

قَادَ الزُّحُوفَ لِيَحْمِي الضَّادَ فِي مَلَأٍ ... هُمُو أَغَارُوا عَلَيْهَا بِالْعَدَاوَاتِ

المحرم ٨٦ هـ   د. زكي المحاسني   مكة المكرمة

---

(١) الأستاذ عبدالله بغدادي عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة سابقاً.
(٢) الأستاذ الشاعر الأديب حسين سرحان.
(٣) الأستاذ البحاثة أحمد عبدالغفور عطار.

طبعت بمطابع دار